إدوارد سعيد

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

خارج المكان

ترجمة
فوّاز طرابلسي

مذكّرات

علي مولا

دار الآداب

إدوارد سعيد

خارج المكان

(مذكرات)

نقلها إلى العربيّة: فوّاز طرابلسي

دار الآداب - بيروت

خارج المكان ـ مذكرات
ادوارد سعيد/مؤلف فلسطيني
ترجمة فواز طرابلسي
الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

صدر هذا الكتاب أصلاً باللغة الانكليزية
Edward W. Said, **Out of Place,** A. Knoff 1998.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إهداء

إلى الدكتور كانتي راي

وإلى مريم قرطاس سعيد

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

صدر أولُ كتاب لي في العام ١٩٦٦. كان عن جوزف كونراد، الروائيّ البولونيّ الكبير الذي غادر وطنه عام ١٨٧٤ وهو في السابعة عشرة من العمر. عاش كونراد في فرنسا وعمل قرابةَ أربع سنوات في البحرية التجارية الفرنسية. وفي عام ١٨٧٨، جدّد حياته فجأةً فعمل بحّارًا في البحرية البريطانية إلى العام ١٨٩٥ عندما نشر روايته الأولى، **جنون آلماير**. سحرني في الرجل أنه كتب باللغة الإنكليزية أعماله العديدة من روايات وقصص ومذكرات، وكلها يغرف من حياتة الغنية على نحو مستبعد التصديق بوصفه بحّارًا ومكتشفًا ومغامرًا. ومع ذلك كانت الإنكليزية لغته الثالثة بعد البولونية والفرنسية. في كتابي عن هذا الكاتب الذي ظل يثيرني، بل إني بالتأكيد مهووس به من نواحٍ عديدة، أحاجج أنه عاش تجاربه في اللغة البولونية لكنه وجد نفسه مَسُوقًا إلى الكتابة عن تلك التجارب في لغة ليست هي لغته. فإذا النتيجة كاتبٌ متفردٌ في الأدب العالميّ من حيث الأسلوب والمحتوى معًا. فما من أحد له نبرة كونراد، وما من أحد مِثْله يكتب عن أوضاع غريبة ومتطرفة، وما من أحد حقق تلك الآثار الكابوسية والمقلقة كالتي حققتها كتبه. وأعتقد أنّ السبب في ذلك يعود إلى شعور كونراد بوجود تفارق دائم بين تجاربه وبين اللغة التي استخدمها لوصف تلك التجارب. فكأنه عاش في لغة وكَتَبَ في لغة أخرى. وإذا إدراكه لذلك الاختلال المربك هو في الصميم من كل أعماله.

لست أريد أن أضع نفسي في مصاف كونراد، وإنما أن أقارن فقط بيني وبينه من حيث استخدام اللغة الإنكليزية. غير أنّ الفارق بين لغتي العربية الأم،

والإنكليزية التي نشأتُ عليها واستخدمتُها في كل ما كتبتُه تقريبًا، أكبرُ من ذلك الفارق بين البولونية والإنكليزية الذي وسم أدبَ كونراد. وحتى لو اعترفنا بأنّ بولونيا بلد سلافيّ، فيما إنكلترا بلد أوروبيّ غربيّ، يبقى أنّ العالم الذي نشأ فيه كونراد واللغةَ التي استخدمها في أعماله ظلا محصوريْن ضمن أوروبا بوصفهما وجهَيْن لمنطقة واحدة. وأما في حالتي أنا، فالفارق بين الإنكليزية والعربية يتّخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليًا بل متعاديَيْن: العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمية – وهي كلها عربية – من جهة، وعالم تربيتي الكولونياليّ وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلِّمًا وكاتبًا من جهة أخرى. لم يُعْفني هذا النزاعُ منه يومًا واحدًا، ولم أحظَ بلحظةِ راحةٍ واحدةٍ من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى، ولا نعمتُ مرةً بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر. وهكذا فالكتابة عندي فعلُ استذكارٍ، وهي، إلى ذلك، فعلُ نسيانٍ، أو هي عمليةُ استبدالِ اللغة القديمة باللغة الجديدة.

لذا ساورني شعور عظيم بالارتياب عندما أقدمتُ على تأليف هذا الكتاب عن حياتي المبكرة وقد عشتُها في معظمها في القدس والقاهرة وضهور الشوير. إذ إدركتُ أنني مقدم على عمل متناقض جذريًا هو إعادة بناء عالم في مصطلحات عالم آخر. كان ليّ أن أستخدم اللغة الإنكليزية، ولكنْ كان عليّ أن أستذكر التجارب وأعبّر عنها بالعربية. طبعًا، كان من العبث إنكارُ التغاير والتباعد الكاملين بين هذين العالمين. ولكنْ لا يُعقل أن يكونا منفصلين وحدهما عن الآخر، كأنما نتيجةٌ لعملية بترٍ جراحية، ما داما قد تعايشا سنواتٍ وسنوات داخل شخص واحد. الأحرى أنهما كانا جسميْن متوازييْن، بل توأمين، يتحسّس واحدهما ايديولوجيًا وروحانيًا كلَّ عنصر غريب يتعذّر استيعابُه عند الآخر وينفعل إزاءه. لقد اختبرتُ دومًا ذلك الشعور بالغربة المزدوجة. فلا أنا تمكنتُ كليًا من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنكليزية، ولا أنا حققتُ كليًا في العربية ما قد توصلتُ إلى تحقيقه في الإنكليزية. هكذا طغى على كتاباتي كمٌّ من الانزياحات والتغايرات والضياع والتشوّه، ولكني كنتُ مدركًا في الأقلّ لكل ذلك وقد حاولتُ استظهاره في مؤلفاتي. فالذي عشتُه صبيّاً في البيت مع شقيقاتي وأهلي، مثلاً، اختلف كليًا عمّا قرأتُه

وتعلّمتُه في المدرسة. تلك الانزلاقات والانزياحات هي قوام هذا الكتاب، وهي السبب التي يحدوني إلى القول إنّ هويتي ذاتها تتكوّن من تيارات وحركات لا من عناصر ثابتة جامدة.

على أنّ الفكرة التي أحاول التعبير عنها هنا هي أنّ السبب الوحيد الذي مكّنني من خوض غمار هذا المشروع المتناقض الذي هو كتابة مذكراتي، هو أني، بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربيّ، هي سنوات دراسة وتعليم وعيش وكتابةٍ كلها باللغة الإنكليزية، اتخذتُ قراري، بُعَيد حرب ١٩٦٧، بأن أعود سياسيًا إلى العالم العربيّ الذي كنتُ قد أغفلتُه خلال سنوات التعليم والنضج الطويلة تلك. ولكنّ ما عدتُ إليه لم يكن له أن يكون عالم طفولتي، تلك الطفولة التي دمّرَتْها أحداثُ العام ١٩٤٨ والثورة المصرية والاضطرابات الأهلية اللبنانية التي بدأتْ عام ١٩٥٨.

كان العالم العربيّ الجديد عالمًا سياسيًا وثقافيًا – على الصعيديْن الشخصيّ والعام – يتكوّن من عناصر عديدة، لكنّ علاماته الفارقة عندي كانت الهزيمةَ العربية وانبثاقَ الحركة الفلسطينية والدروسَ الخصوصية في اللغة والأدب العربيين التي كنتُ أتلقاها يوميًا خلال عام بأكمله على يد الأستاذ أنيس فريحة، وهو معلّم رائع، ومَعِينٌ لا يَنْضب من الحكمة اللغوية في اللغات الساميّة كلها. إلى ذلك نما لديّ شعور متزايد بأنه إذا كنتُ أشعر بوجود هوّة من سوء التفاهم تَفْصل بين عالميّ الاثنين، عالمِ بيئتي الأصلية وعالمِ تربيتي، فإنّ مهمة تجسير تلك الهوّة إنما تقع عليّ وحدي دون سواي. فلم يكن لي مَن خيار غيرُ السعي إلى هويتي العربية وتمثُّلِها تمثلاً، على الرغم من المحاولات الحثيثة التي بُذلتْ لإقناعي بالتخلي عنها خلال فترة تربيتي (وبواسطة أهلي، وإنْ يكن بدرجة أقل). بعبارة أخرى، كان عليّ أن أعيد توجيه حياتي لتسلك حركة دائرية تعيدني إلى نقطة البداية مع أني كنتُ قد بلغتُ نهاية الثلاثين من عمري. اخترتُ أن أستعيد هويتي العربية، ولكني عربيّ لا يتلاءم تاريخُه تمامًا مع تقدمه في العمر. ومن منظاري الجديد بوصفي عربيًا بالاختيار، أعدتُ قراءةَ حياتي المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضًا – قراءةً تعيد إليّ ما كنتُ أرغب فيه من تكيّفٍ أفضل وأكثر تناغمًا بين ذاتي العربية وذاتي الأميركية. وكلما أوغلتُ في ذلك الجهد ازددتُ اقتناعًا بأني إنما أسعى إلى تحقيق فكرة طوباوية.

ذلك أنه لم يعد يوجد في حياتنا المعاصرة دعم كبير للفكرة القائلة بأنّ الانتماء العربيّ لا يزال يقتضي، بحكم العادة والتقليد، إقامة علاقة متنافرة مع الغرب. وأعتقد أنّ هذا الكتاب، فيما يؤول إليه، هو صورةٌ شخصية غير تقليدية لتلك العلاقة التي تنطوي على مقدار من التوتر، نعم، ولكنها لا تقتصر على العداء وحده. وآمل أن لا أبدو متبجّحًا إنْ قلتُ إنّ الجديد في «إدوارد سعيد» المركّب الذي يظهر في خلال هذه الصفحات، هو عربيٌّ أدّت ثقافتُه الغربية، ويا لسخرية الأمر، إلى توكيد أصوله العربية، وإنّ تلك الثقافة، إذ تلقي ظلال الشكّ على الفكرة القائلة بالهوية الأحادية، تَفْتح الآفاقَ الرحبة أمام الحوار بين الثقافات.

ولكنْ إذا كان تأليف الكتاب قد اقتضى المراوحة بين عالم وآخر، فإنّ استقباله في العالم الناطق بالإنكليزية كان مراوحةً أكثر تعقيدًا وتدويخًا. فقبل شهر من صدور هذا الكتاب في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩، كانت الحياة التي يصفها موضوعَ هجوم مذهل في مجلة **كومنتري**، الشهرية الأميركية اليهودية اليمينية المتطرفة. فقد زعم الكاتب، وهو مُحامٍ أميركيّ - إسرائيليّ مغمور، أنه أمضى ثلاث سنوات بكاملها ينقّب عن حياتي المبكرة، مُجْرياً مقابلاتٍ مع عشرات من الأشخاص (وقد عمد إلى تشويه شهاداتهم أو إغفالها كليًا)، ومنصرفًا إلى قراءة الوثائق في القارات الأربع. وقد مَوّل دراستَه نصّابٌ عالميّ أميركيّ - يهوديّ معروف أمضى وقتًا في السجن لتعاطيه الإجراميّ بما سمّي «سندات خزينة مزوّرة». وكانت خلاصةَ تلك التحريات المزيفة في معظمها هي «إثباتُ» أني لستُ فلسطينيًا حقًا، مع أنّ الكاتب بدا عاجزًا عن تحديد هويتي الفعلية. إنّ هجوم ذلك الكاتب هو هجومٌ مكشوف للطعن في مصداقيتي. وكانت عملية التزوير كلها معدّةً بهدف سياسيّ محدد هو إظهارُ أنه لا يمكن الوثوق بالفلسطينيين عندما يتحدثون عن حق العودة. فإذا كان مثقف بارز يكذب، فما بالك بما قد يُقْدم عليه الناسُ العاديون من أجل «استعادة» أرضهم، تلك الأرض التي لم تكن لهم أصلاً؟

ولكنْ إلى جانب سَيلٍ من المراجعات، كانت ردود الفعل الأكثر إثارةً على الكتاب هي تلك التي صدرتْ عن أناس مذكورين في الكتاب ذاته، والعديد منهم لم أره ولا سمعتُ عنه منذ خمسين سنة. اكتشفتُ الفرد كورونيل، الصبيّ الإسبانيّ اليهوديّ الذي كان يركب الباص معي إلى المدرسة الأميركية في المعادي، وهو الآن

يعيش في البرازيل، منكفئًا على ذاته، ولا يزال يعتبرني أفضل صديق عرفه إطلاقًا، منذ إحدى وخمسين سنة تمامًا. قال في رسالة كتبها لي إنه لا يذكر أيّ ظل لعداوة نشبتْ بيننا، على الرغم من قصة فلسطين التالية. واكتشافي الآخر هو آدا، أرملة الدكتور فريد حداد، التي تعيش الآن في اوستراليا مع ابنيها (الابن البكر طبيب سمّي على اسم جده النادر المثال، وديع) وابنتها. قبل أن تغادر الشرق الأوسط نهائيًا، عام ١٩٦٤، عملتْ آدا معلّمةً عند مسز بولِن (المديرة العجوز لمدرسة «إعدادية الجزيرة») في بيروت، حيث أنشأتْ هذه الإنكليزية العاصية مدرسةً على مثال المدرسة التي كانت لها ولزوجها في القاهرة. والأشد مفارقةً في الأمر أنّ آدا أبلغتني على الهاتف من منزلها في سيدني أنّ فريد كان طبيب مستر بولِن أيضًا. فإذا فكرةُ أنّ معذِّبي الرئيسيّ وأنا طفل قد كان في عناية نموذجي البطوليّ الرئيسيّ مفاجأةٌ لا توصف. وأخيرًا، بعد أسابيع قليلة من صدور كتابي في إنكلترا، تلقيتُ رسالة من مادلين دابل، التي تعيش الآن في لشبونة، والتي كانت في «مدرسة القاهرة للأولاد الأميركيين»، فملأت الفراغات عندي في ما يتعلق بالعديد من زملائنا. والأكثر إثارةً للمشاعر أنها أرسلتْ صورةً لي وقّعتُ لها عليها عام ١٩٤٨ (لم يتغيّر خطي كثيرًا منذ ذلك الوقت) بصفتي «بابا غوميز»، الجنتلمان الإسبانيّ العجوز الذي مثّلتُ شخصيته في المسرحية المدرسية عن شوپان التي أصفها في هذا الكتاب. ولعلّ المفاجأة الأكثر إشباعًا هي التي وردتْ من ميشلين ليندل، الصبية التي طالما سحرتني وأنا صبيّ عندما كنتُ أشاهدها ليلةً بعد ليلة في دور أليس في مسرحية «أليس في بلاد العجائب» منذ أربع وخمسين سنة في القاهرة، وقد منعني خجلي الشديدُ حينها من أن أتحدث إليها. وها نحن نتراسل بسهولة عبر البريد الإلكترونيّ، هي المحامية الساكنة في أوستراليا أيضًا وأنا البروفسور الساكن في نيويورك.

ربما توجد عناصر لتأليف كتاب جديد يسجِّل ردود الفعل هذه على الكتاب وسواها. والعديد منها وَرَدَ من قراء عرب، لا من مجرد فلسطينيين يشاطرونني الشعور بأنّ نشأتهم وهويتهم التالية هما بمثل ارتباك الهوية التي أصفها في مذكراتي أو بمثل تعقّدها على الأقل. وقريبًا تصدر ترجمة عبرية من الكتاب، وسوف أراقب ردود الفعل عليها بافتتان عظيم. كذلك أنتظر بشغفٍ كبير ردودَ فعل القراء

العرب على ترجمة فواز طرابلسي الأنيقة. لقد سبق لزميل عربيّ أنْ قال إنّ بعض ما ورد في كتابي لا يُسِرّ به المرءُ إلا لطبيبه النفسانيّ. وأنا طبعًا مدرك أنّ الكتابة الصريحة عن الذات نادرة في تراثنا. وإني لآمل أن يُسْهم هذا الكتابُ في تنمية هذا التقليد. فإذا تحقق ذلك، بلغتُ الغايةَ في الرضى. وربما عليّ أن أضيف أنّ هذا الكتاب ليس الجزء الأول من مذكراتٍ متسلسلة. بل إنه كلُّ ما نويتُ أن أكتبه في هذا النوع الأدبيّ.

إدوارد وديع سعيد

نيويورك، تموز/يوليو ٢٠٠٠

ملاحظة عن التعريب

بقلم: فوّاز طرابلسي

لا تحتاج الترجمة إلى تقديم. إما أن تنجح في أن تُقرئك النص المترجَمَ وكأنه مكتوب في اللغة المترجَم إليها، وإما أن لا تنجح. والباقي أعذار.

أريد فيما يلي تسجيل ملاحظةٍ عن حرفة الترجمة مستوحاةٍ من ممارستها منذ أن كنتُ على مقاعد الدراسة الجامعية، إلى أنْ واجهتُ تحدي تعريب هذا الكتاب، وتخلّل ذلك فترةُ انقطاع خلال الحرب.

درج القول إنّ الترجمة فعل خيانة. ينطوي هذا الاستشهاد المتكرّر بالمَثَل الإيطاليّ الشهير على مقدار كبير من الاستكانة والتبرير. فالأحرى أنّ عملية الترجمة عملية صراعية بامتياز، يجري خلالها تطويعُ لغة لكي تحمل معاني وتراكيب لغة أخرى. وتتوسل عمليةُ التطويع هذه مجموعةً واسعةً من الحِيَلِ على اللغة لكي تؤدي معاني وتراكيب واستعارات وأقوالاً مأثورة ومناخات ليست لها ولا هي منها. ناهيك عن الحيل المطلوبة لتأدية لغة الكاتب المخصوصة. ومن هنا فإنّ الترجمة عِلم من علوم الحِيَل أكثر مما هي فعلُ خيانة.

هذا النص بالعربية سجلٌّ لعملياتِ تحايلٍ عديدة. كانت المعركة مع إنكليزية إدوارد سعيد عسيرة متطلِّبة لأدق دقائق المعاني والأحاسيس والمشاعر والأفكار والأوصاف. فأسلوب إدوارد ممتنع، كما يعترف هو نفسه في تقديمه لهذه المذكّرات، وقد جهدتُ لجعله سهلاً ممتنعًا. أحيانًا، كنتُ أتغلّب عليه، وأحيانًا أخرى أعترف بأنّه تغلّب عليّ. ومع ذلك، انصبّ كلّ جهدي على جعل إدوارد يتكلم العربية.

تتعلّق أولى مجموعات الحِيَل بالزمن. ففي تعريب مذكّرات عن الماضي، يكون التحديّ الأكبر، في العربية، هو التحايل على «كان» ناهيك عن أخواتها. ومن جهة ثانية، سعيتُ إلى الابتعاد عن نحت التعابير والمصطلحات والمفردات الجديدة قدر الإمكان، وإلى اختيار ما هو دارج ومألوف منها. وبالجملة، فاذا كان لي أن أستلهم من إدوارد استعارته الموسيقية العديدة، أقول إنّ المطلوب، في الترجمة، هو تحاشي السقوط في النغم النشاز، نشاز النقل. أيكون المطلوب إذن إعادة تأليف؟ ليس تمامًا. الأحرى القول إنّ الترجمة تنطوي على عملية إعادة توزيع، كما في إعادة توزيع المقطوعات الموسيقية. لن تَلْقى المقطوعةَ ذاتَها في محصّلة العملية. لكنّ المؤكّد أنّ التنويع والتقسيم أو التفريد وإدخال الآلات مستحدثة وحتى التغيير في الإيقاع ـ هذه كلها لن تضيّع عليك النغم الرئيسيّ، أقلاً، وهي سوف تترك لديك مشاعر مشابهة للمشاعر التي تثيرها المقطوعة «الأصلية». ومهما يكن، فالاكتشاف المتكرّر هو أنّ كل حِيَلنا محدودة حيال عظمة اللغة العربية غير المحدودة الحِيَل. هذا ما أزداد به اقتناعًا، ترجمةً بعد أخرى. يبقى أنّ القصور الأكبر هو قصورنا نحن تجاه غنى لغتنا العربية، بل عبقريتها، لأنّه إذا كان فيها من قصور، فإنّ معظمنا لم يستنفد بعدُ كامل إمكاناتها وطاقاتها لكي يستطيع إنباءنا بمكامن القصور.

خلال تعريبي مذكّرات إدوارد سعيد، تابعتُ بعض أوجه الحملة التي شُنّت على الكتاب والكاتب، فور نشر صفحات منه في الصحافة الأدبية الغربية، وعلى الأخصّ منها ما يتعلّق بإنكار انتماء إدوارد سعيد إلى فلسطين وملْكيته لبيت عائليّ في القدس. لستُ أريد الخوض في سجال مع هذه الحملة. أكتفي بالكشف عما تعنيه، وتذكّرنا به، هذه الحملةُ عن الصهيونية، فكرًا وممارسة. ردة الفعل الأولى هي القول إنّ الحملة تنطوي على عملية اغتيال رمزية لجماعة بصيغة فرد: الإمعان في إنكار حق الفلسطينيين في فلسطين من خلال إنكار حق أحد أبرز وألمع مثقفيها في وطنه. لكنني أجد في تلك الحملة ما هو أبعد من ذلك. تنطوي الصهيونية على مضمر أساسيّ، بل وجوديّ، بما هي استعمار استيطانيّ. وهذا المضمر هو السرقة. حدِّثْ ولا حرج عن سرقة الأرض (والتراب أحيانًا، كما في جنوب لبنان) والمياه، والآثار التاريخية، والتاريخ ذاته، والذاكرة، والمأكولات (من الفول والحمّص إلى التبّولة والفلافل)، والعمارة، والعادات، والتقاليد الشعبية. وتستطيع أن تضيف

إلى ذلك كله لونًا آخر من ألوان السرقة، هو احتكار المآسي والعذاب، وسرقة «حق» الآخرين في الادعاء بأنهم، هم أيضًا، قد تعرّضوا للظلم والمآسي والتنكيل والتشريد والعذاب عبر تاريخهم. لكنّ الأدهى هو سرقة البيت، التي هي بحق أعلى مراتب السرقة. وبالبيت أعني ذلك المدى العموديّ ـ الأفقيّ، الذي يمدّ جذورَه في الأرض من جهة، وينفتح، من جهة ثانية، على كافة المسارات الممكنة. تبدأ منه كل الرحلات وإليه تعود. بهذا المعنى لا تزال الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، بل هي أعلى مراحل التمييز العنصريّ، اعترفت الأممُ المتحدةُ بذلك أم سحبتِ اعترافَها. وبهذا المعنى، فإنّ مَنْ يجرؤ على سرقة البيوت (ناهيك عن نسفها) فلا حدّ لما يستطيع اقترافه من جرائم.

ومع أني قرّرتُ منذ البداية الإحجام عن استثمار صداقة إدوارد سعيد لمساعدتي في هذه الترجمة، لاقتناعي بأنّ المترجم وحيد دومًا مع نصه، وبأنه لا يُفترض به أصلاً معرفة المؤلف، فقد اضطررتُ إلى كسر هذا القاعدة، استثنائيًا، من أجل التدقيق في عدد محدود من المصطلحات والإشارات الأميركية جدًا أو تلاوين المعاني. ومهما يكن، أشكر ادوارد على ثقته بي وحماسه لتوليّ مهمةَ تعريبِ نصّه. ولستُ أفشي سرًا إنْ قلتُ إنّ معايشتي القريبة لمكابدة إدوارد المرضَ ونضالِه ضده واستمراره في التدريس وإلقاء المحاضرات والتأليف والكتابة الصحفية والمراسلة والتنقّل بوتيرة مذهلة والعيش مع عائلته واستقبال أصدقائه جعلتني أشعر أحيانًا كأنّ «حياته» بين يديّ بكل ما تثيره التباساتُ الحياة الحقيقية والحياة السردية من مشاعر الإعجاب والألم والمحاكاة والفرح والحماس والاستعجال.

شجّعني الصديق الياس خوري على خوض هذه المغامرة مثلما شجعني على سابقاتها في التأليف في الثقافة والأدب. قرأ إلياس المخطوطة واقترح العديد من التصحيحات والتعديلات. وهذه هي المناسبة لشكره على كل هذا التشجيع والمساعدة. لكني أسارع إلى القول إني وحدي المسؤول عن الأخطاء والقصور في هذا الجهد الذي أردناه، نحن أصدقاء إدوارد، تعبيرًا عن إعجاب وفعلَ صداقةٍ وتضامن.

ف.ط.

بيروت، حزيران ٢٠٠٠

من قبيل الشكر

كتبتُ معظم هذا الكتاب خلال فترات من المرض أوالعلاج، أحيانًا في منزلي في نيويورك وأحيانًا أخرى حين كنتُ أنعم بضيافة أصدقاء أو مؤسسات في فرنسا ومصر. بدأتُ العمل عليه في أيار ١٩٩٤ خلال فترة نقاهة على أثر ثلاث وجبات أولية من العلاج الكيميائيّ لمرض سرطان الدم. بعطف وصبر مبذولين بلا حساب، اعتنى بي دايل جونسون والممرّضاتُ الرائعات في «وحدة العلاج الكيميائي ونقل الدم» التابعة لمستشفى لونغ آيلاند اليهوديّ خلال الأيام والأسابيع والشهور التي أمضيتُها في عنايتهم.

وخلال السنوات الخمس التي استغرقها تأليفُ هذا الكتاب، تحمّل معي أفراد عائلتي – مريم ووديع ونجلا – نوبات المرض والغيابات والعلاجات بالإضافة إلى تحملّهم حالتي العامة الصعبة الاحتمال أصلاً. وقد سهّلتْ فكاهتُهم ودعمُهم غير المشروط وقوّتُهم عيشتي في تلك الأثناء إلى حد كبير، مع أنّ الأمر لم يكن دائمًا بمثل تلك السهولة بالنسبة إليهم هم. وأنا عميق الامتنان لهم على ذلك.

منحني صديقي ريتشارد پواريه، وهو خيرةُ نقّاد الأدب الأميركيين تأكيدًا، التشجيعَ منذ وقت مبكر، وقرأ مسوّدات مختلفة من هذا الكتاب، وكذلك فعل ديردري وآلان برغسون. وأنا مَدين لهم حقًّا. ويجب منح زينب استرابادي، مساعِدتي الممتازة في جامعة كولمبيا، جائزةً تقديرية لمقدرتها على فكّ الغاز خطّي وطبعه في شكل مقروء والمساعدة في عدة مسودّات، وذلك كله دائمًا بصبر ومن دون تذمّر. وقد منحني سوني ميهتا صداقته ودعمه، وهو الناشر والرفيق النادر. وأود أن أشكر أندرو وَايلي مرةً أخرى لمتابعته هذا العمل من البداية حتى النهاية.

إنه لأمر تقليديّ، بل روتينيّ، أن يشكر الكاتب محرِّري كتبه. ولكنْ في حالتي أنا، لا تنطوي مشاعرُ المودة والإعجاب والامتنان التي أحملها للصديقتَين فرانسِس كودي، من دار «غرانتا»، وشيللي وانغر، من دار «كنوپف»، على أية مجاملة. فلقد ساعدتني فرانسِس على أن أتبيّن بوضوح ما أحاول القيام به وقدّمتْ مقترحات ثاقبة من أجل نَحْت مخطوطةٍ مثقلة ومضطربة لتتخذ الشكل المناسب. أما شيللي فقد جلستْ معي بصبر وفكاهة دائمين، وقدّمت النصح خلال مراجعتنا معًا لمئات الصفحات من النثر الخام المكتوبة غالبًا بطريقة متكلّفة.

أما الدكتور كانتي راي فقد أعانني، بعظيم خبرته الطبية وإنسانيته الرائعة، على أن أستمر في الكتابة وأن أنجز الكتاب أخيرًا. ومنذ بداية مرضي، تعاونَ هو ومريم، بانسجام، على منعي عمليًا من الانهيار. بامتنان، أهدي هذا الكتاب إلى مريم لدعمها المحِبّ، وإلى كانتي لمهارته الإنسانية وصداقته.

إدوارد وديع سعيد

نيويورك، ايار/مايو ١٩٩٩

تقديم

هذا الكتاب هو سِجِلّ لعالم مفقود أو منسيّ. منذ عدة سنوات، تلقيّتُ تشخيصًا طبّيًا بدا مُبْرَمًا، فشعرتُ بأهمية أن أخلّف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربيّ، حيث ولدتُ وأمضيتُ سنواتي التكوينية، كما في الولايات المتحدة حيث ارتدتُ المدرسة والكلية والجامعة. العديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا لم تعد موجودة، على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى أستبطنها، وغالبًا بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروّعة.

لعبتْ ذاكرتي دورًا حاسمًا في تمكيني من المقاومة خلال فترات المرض والعلاج والقلق الموهِنة. ففي كل يوم تقريبًا، وأيضًا فيما أنا أؤلف نصوصًا أخرى، كانت مواعيدي مع هذه المخطوطة تمدّني بتماسك وانضباط ممتعين ومتطلِّبين معًا. ومع أنّ كتاباتي الأخرى وتدريسي أبعدتني كثيرًا عن العوالم والتجارب المختلفة التي ينطوي عليها هذا الكتاب، فالأكيد أنّ الذاكرة تشتغل بطريقة أفضل وبحرّية أكبر عندما لا تُفرَض عليها الأساليبُ أوالنشاطات المعَدّة أصلاً لتشغيلها. فلا شك في أنّ كتاباتي السياسية عن الوضع الفلسطينيّ، ودراساتي عن العلاقة بين السياسة والجماليات، وخصوصًا الأوبرا والنثر المتخيّل، وافتتاني بموضوع كتابٍ أكتبه عن الأسلوب المتأخر (بدءًا ببِتهوفن وأدورنو) قد غذّتْ هذه المذكرات بروافد خفية.

عندما انتهيتُ من تأليف هذه المخطوطة، قمتُ برحلة إلى القدس ومنها إلى القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨. في الأولى، حضرتُ ندوة عن المشهد الطبيعيّ الفلسطينيّ في بيرزيت ثم سافرتُ إلى مصر للمشاركة في أطروحة دكتوراه قدمها طالبٌ من طلابي الموهوبين يدرِّس في جامعة طنطا، خمسين ميلاً إلى الشمال من القاهرة. في فلسطين، اكتشفتُ مجددًا أنّ ما كان شبكةً من البلدات والقرى عاش فيها أبناءُ عائلتي الموسعة ذات يوم – القدس وحيفا وطبريا والناصرة وعكا – أضحت الآن مطارح إسرائيلية تعيش فيها الأقلية الفلسطينية تحت السيادة الإسرائيلية. صحيح أنّ الفلسطينيين يتمتعون بالحكم الذاتيّ، أو الاستقلال الذاتيّ، على أجزاء من الضفة الغربية وغزة، لكنّ الجيش الإسرائيليّ يحتفظ فيها بالسيطرة الأمنية الشاملة، وهي سيطرة تبدو أشد نفورًا على الحدود وعند نقاط التفتيش والمطارات. وكان أحد الاسئلة الروتينية التي وجهها إليّ الموظفون الإسرائيليون (لمّا كان جواز سفري الأميركيّ يشير إلى أني ولدتُ في القدس) هو الموعد المحدّد الذي غادرتُ فيه إسرائيل بعد الولادة. فكنتُ أجيب أني غادرت فلسطين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، مشدِّدًا على كلمة «فلسطين». «هل لديك أنسباء هنا؟» كان السؤال التالي الذي أجبتُ عليه بـ «لا أحد» وقد امتلكني شعورٌ من الحزن والخسران لم أكن أتصوّر أني سوف أختبره. ذلك أنه مع حلول ربيع ١٩٤٨ كانت عائلتي الموسعة كلها قد أُجليَتْ عن المكان وعاشت في المنفى منذ ذلك الحين. على أني في عام ١٩٩٢ تمكنتُ، للمرة الأولى منذ مغادرتنا عام ١٩٤٧، من زيارة المنزل الذي تملكه عائلتي في القدس الغربية والمنزل الذي نشأتْ فيه أمي في الناصرة ومنزل خالي في صفد وغيرِها من المنازل. وإذا هي في زيارتي الثانية، يسكنها جميعَها ساكنون جدد تذرّعوا بأسباب عاطفية كابحة جدًا ومبهمة جدًا لعرقلة دخولي إليها مرةً ثانية، بل لمنعي عمليًا من الدخول، ولو من أجل إلقاء نظرة خاطفة.

خلال زيارتي القاهرة في نوفمبر ١٩٩٨، زرت جاراتنا السابقات، نادية وهيلدا وأمهما، السيدة جندي، اللواتي عشن لسنوات عديدة تحتنا بثلاثة طوابق، في الطابق الثاني من البناية الواقعة في رقم ١ شارع عزيز عثمان. فأبلغنني أنّ شقتنا القديمة، ذات الرقم ٢٠، لا تزال شاغرة ومعروضة للبيع. بعد التفكير لبرهة باقتراحهنّ إعادة شرائها، لم أشعر بأيّ حماس لإعادة امتلاك مكانٍ تركناه منذ نحو

أربعين سنة. قبل تناول الغذاء، أبلغتني نادية وهيلدا أنه يوجد شخص ينتظرني في المطبخ. فهل أرغب في لقائه؟ دلف إلى الغرفة رجلٌ صغير نحيل وصلب العود يرتدي الثوب الداكن واللفّة، وهما اللباس التقليديّ للفلاح الصعيديّ. وعندما قالت له المرأتان إنّ هذا هو إدوارد الذي كنتَ تنتظر رؤيته بفارغ الصبر، تراجع مطأطئًا رأسَه: «لا. كان إدوارد طويلاً ويضع نظارتَين. هذا ليس إدوارد». وبسرعة تعرفتُ إلى أحمد حامد، الفرّاش الذي عمل عندنا خلال ما يقارب ثلاثة عقود، وهو رجل ساخر ومتزمّت في صدقه وإخلاصه وكنا جميعًا نعتبره بمنزلة فرد من أفراد العائلة. حاولتُ إقناعه بأني أنا إدوارد حقًا، ولكنْ بدّلني المرض والعمر بعد غياب ٣٨ سنة. فجأةً وقع كلٌّ منا في حضن الآخر نجهش بدموع الفرح للقاء المتجدد والحزن على زمن لن يستعاد. روى لي أحمد كيف كان يحملني على كتفيه وعن أحاديثنا في المطبخ وكيف كانت العائلة تحتفل بعيد الميلاد ورأس السنة وما إلى ذلك. فصعقتُ كيف أنه لا يتذكر كلٌّ واحد منا نحن السبعة -الوالديْن والأبناء الخمسة - فحسب، وإنما يتذكر أيضًا كلٌّ واحد من عمومتي وعماتي وأبناء عمومتي وجدّتي بالإضافة إلى البعض من أصدقاء العائلة. وبعد أن انتهى العجوز، المتقاعد في بلدة إدفو البعيدة قرب أسوان، من تفريغ الماضي الذي في داخله، أدركتُ مجددًا مدى هشاشة وقيمة وزوالية التاريخ والظروف التي تمضي إلى غير رجعة ولا تجد مَنْ يستعيدها ويدوّنها، اللهم إلا على شكل ذكريات عرضية أو أحاديث متقطعة.

زاد هذا اللقاء بالمصادفة من اقتناعي بجدوى هذا الكتاب الذي يَكْشف ـ قدرَ ما أستطيع ـ من حياتي، خصوصًا بين العام ١٩٣٥، عام مولدي، والعام ١٩٦٢، الذي كنتُ فيه على أهبة نيل شهادة الدكتوراه. وهو سجلٌّ شَخصيّ غير رسميّ عن تلك السنوات المضطربة التي عاشتها منطقةُ الشرق الأوسط. فوجدتُني أروي قصة حياتي على خلفية الحرب العالمية الثانية وضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيل وسقوط المَلَكية في مصر والسنوات الناصرية وحرب عام ١٩٦٧ وانطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية أوسلو. كل هذه الأحداث موجودة ضمنًا في مذكراتي، ويمكن تبيُّن حضورها العرضيّ هنا وهناك.

والأكثر إثارة بالنسبة إليّ ككاتب هو إحساسي بأنّي أحاول دائمًا ترجمة التجارب التي عشتها لا في بيئة نائية فحسب وإنما أيضًا في لغة مختلفة. ذلك أنّ كُلاً منا يعيش

حياته في لغة معينة، ومن هنا فإنّ الكل يختبر تجاربه ويستوعبها ويستعيدها في تلك اللغة بالذات. والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربية، لغتي الأم، وبين اللغة الإنكليزية، وهي اللغة التي بها تعلّمتُ وعبّرتُ تاليًا بما أنا باحث ومعلّم. لذا كانت محاولتي سردَ التجارب التي عشتُها في اللغة الأولى بواسطة اللغة الأخرى مهمة معقّدة، ناهيك عن الطرائق المختلفة التي بها تختلط عليّ اللغتان وتعبُران من حقل إلى آخر. وهكذا صَعُبَ عليّ التعبير في الإنكليزية عن الفروقات اللفظية (والوشائج العينية) التي تستخدمها العربية، للتمييز مثلاً بين العم/ة والخال/ة، ولكني اضطررتُ إلى محاولة التعبير عن تلك التلاوين لأهمية الدور الذي لعبته في حياتي المبكرة.

إلى جانب اللغة، كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى، خصوصًا جغرافية الارتحال، من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء، ناهيك عن السفر ذاته. فكل واحد من الأمكنة التي عشتُ فيها – القدس والقاهرة ولبنان والولايات المتحدة – يَملك شبكة كثيفة ومركبة من العناصر الجاذبة، شكلتْ جزءًا عضويًا من عملية نموي واكتسابي هويتي وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين. وفي جميع تلك الأمكنة، احتلّت المدارس مكانًا مميزًا في قصتي، وهي صورٌ مصغّرة عن المدن أو البلدات حيث عثر لي أهلي على مدارس وسجلوني فيها. ولما كنتُ أعمل في حقل التربية، فطبيعيّ أن أرى أنّ البيئة المدرسية تستحق الوصف والسرد بنوع خاص. لكني لم أكن متأكدًا من جهوزية ذاكرتي عن المؤسسات الأولى التي درستُ فيها، وعن أهمية الدور الذي لعبه الأصدقاء والمعارف في حياتي قياسًا إلى الأصدقاء والمعارف أيامَ الجامعة أوالمدرسة الداخلية في الولايات المتحدة. ومن الأمور التي حاولتُ استكشافها ضمنًا السطوةُ التي مارستْها تلك التجاربُ المدرسيةُ المبكرة جدًا عليّ، وسبب استمرار تلك السطوة، ولماذا لا أزال أنبهر وأهتمّ بها إلى درجة الكتابة عنها للقراء بعد مضيّ خمسين سنة.

غير أنّ الدافع الرئيسيّ لكتابة هذه المذكّرات هو طبعًا حاجتي إلى أن أجسّر المسافة، في الزمان والمكان، بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس. أرغب فقط في تسجيل ذلك بما هو واقع بدهيّ دون أن أعالجه أو أناقشه، علاوة على أنّ انكبابي على مهمة إعادة تركيب زمن قديم وتجربة قديمة قد استدعى شيئًا من البُعاد ومن السخرية في الموقف والنبرة.

لا يزال العديد من الأشخاص الوارد وصفهم هنا على قيد الحياة، ولعلهم سوف يخالفونني تشخيصي لهم وللآخرين بل قد يستاؤون منه. أؤكد أني لا أحمل أية رغبة في الإساءة إلى مشاعر أحد، ولكني بالمقدار ذاته أرى أنّ واجبي الأول ليس أن أكون لطيفًا وإنما أن أكون وفيًا لذكرياتي وتجاربي وأحاسيسي، ولعلها غريبة بعض الشيء. فأنا وحدي مسؤول عما أستذكر وأتصوّر، لا أفرادٌ من الماضي قد يَجْهلون الأثر الذي مارسوه عليّ. وأرجو أن يكون واضحًا أيضًا أني، بصفتي راوي هذه السيرة وواحدًا من شخصياتها، لم أُعفِ نفسي قصدًا من السخرية ولا من الروايات المحْرِجة.

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

الفصل الأول

تَخترع جميعُ العائلات آباءها وأبناءها وتَمنح كلٌ واحدٍ منهم قصةً وشخصيةً ومصيرًا، بل إنها تمنحه لغته الخاصة.

وقع خطأٌ في الطريقة التي تمّ بها اختراعي وتركيبي في عالم والديّ وشقيقاتي الأربع. فخلال القسط الأوفر من حياتي المبكرة، لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كان ذلك ناجمًا عن خطإي المستمر في تمثيل دوري أو عن عطب كبير في كياني ذاته. وقد تصرّفتُ أحيانًا تجاه الأمر بمعاندة وفخر. وأحيانًا أخرى وجدتُ نفسي كائنًا يكاد أن يكون عديم الشخصية وخجولاً ومترددًا وفاقدًا للإرادة. غير أنّ الغالب كان شعوري الدائم أنّي في غير مكاني.

هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على «ادوارد» وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسمُ الإنكليزيُّ الأخرق الذي وُضع كالنير على عاتق «سعيد»، اسم العائلة العربيّ القحّ. صحيح أنّ أمي أبلغتني أنّي سُمّيتُ ادوارد على اسم أمير بلاد الغال (وارثِ العرش البريطانيّ) الذي كان نجمُه لامعًا عام ١٩٣٥، وهو عام مولدي، وأنّ سعيد هو اسم عدد من العمومة وأبناء العم. غير أنّ تبرير تسميتي تَهافَتَ كليًا عندما اكتشفتُ أنْ لا أجداد لي يحملون اسم سعيد. وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجةَ بين اسمي الإنكليزيّ المفخّم وشريكه العربيّ، كنتُ أتجاوز «إدوارد» وأؤكّد على «سعيد»، تبعًا للظروف، وأحيانًا أفعل العكس، أو كنتُ أعمد إلى لفظ الاسمين معًا بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمرُ على السامع. والأمر

الوحيد الذي لم أكن أطيقه، مع اضطراري إلى تحمله، هو ردود الفعل المتشككة والمدمِّرة التي كنت أتلقّاها: ادوارد؟ سعيد؟

اندغم عندي تحمّلُ مشقّات مثل هذا الاسم مع ورطةٍ لم تكن أقل إقلاقًا، تتعلّق باللغة. فأنا لم أعرف أبدًا أية لغةٍ لهجتُ بها أولاً: أهي العربية أم الإنكليزية، ولا أيًا منهما هي يقينًا لغتي الأولى. ما أعرفه هو أنّ اللغتين كانتا موجودتين دومًا في حياتي، الواحدة منهما ترجِّع صدى الأخرى، وتستطيع كلٌّ منهما ادعاءَ الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً اللغة الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأوّليّ إلى أمي التي أذْكر أنها كانت تحدّثني بالإنكليزية والعربية معًا على رغم أنها كانت تراسلني بالإنكليزية على مدى حياتها، وبمعدّل مرّةٍ في الأسبوع، وكنتُ بدوري أعاملها بالمثل، إلى أن طواها الموت. كانت بعض عباراتها المحكية عربية، مثل «تِسْلَمْ لي» و«مش عارفة شو بدّي أعمل» و«رُوحها [للماما]» والعشرات غيرها، ولم أضطرّ مرّة إلى ترجمتها أو حتى إلى أن أفقه معناها تمامًا، كما في حال «تِسْلَمْ لي». وكانت تلك العبارات جزءًا من مناخ الأمومة الغامر الذي أحنّ إليه في الأوقات العصيبة، وتضفي عليه رقّةُ عبارة «يا ماما» مناخًا يغري كالحلم وإذا به يُنتزع فجأةً منك انتزاعًا بعد أن يكون قد وعدكَ بأشياء لم يفِ بها أبدًا.

على أنّ أمي كانت توشّح لغتها العربية بالكلمات الإنكليزية، مثل naughty boy («يا شيطان») وتوشّحه طبعًا باسمي ذاته الذي تلفظه Edwaad («إدواآد»). ولا تزال تراودني ذاكرةُ جَرْسِ صوتها، في المكان والزمان عينهما، وهو يناديني «إدواآد» منزلقًا على نسيم الغسق عند موعد إقفال «حديقة الأسماك» (الحديقة الصغيرة في الزمالك المزوّدة بحوض للأسماك)، وشخصي يتردّد بين أن أجيبها وبين أن أبقى مختبئًا برهةً قليلةً أطولَ مستمتعًا بلذةِ أنني المنادى وأنني المطلوب، بينما الجزءُ غيرُ الإدواردي من شخصي يَنْعم بترف التمهّل في الإجابة، إلى إن يضيق كياني بصمته. كانت لغتها الإنكليزية محمّلةً ببلاغة تعبير وقاعدةِ سلوكٍ لم تغادرني أبدًا. وما إن تنتقل أمي من العربية إلى الإنكليزية حتى تصير نبرتُها أكثر موضوعيةً وجديةً، فتكاد تَطرد نهائيًا الحميميةَ المتسامحة والموسقة للغتها الأولى، العربية.

في الخامسة أو السادسة من عمري، أدركتُ أني «شيطان» ميؤوس من إصلاحه، تنطبق عليّ في المدرسة كلُّ الأوصاف التي تُطْلَق على أفعال غير حميدة مثل «fibber» (كذّاب) و«loiterer» (متسكّع). وما إنْ أدركتُ تمامًا أني أجيد الإنكليزية بطلاقة، من دون أن يعني ذلك أني كنتُ أتكلّمها دومًا على نحو سليم، حتى صرتُ أشير إلى نفسي بصفتي «هو» بدلاً من «أنا». كانت تقول لي: «ماما لا تحبّك، يا شيطان» فأردّ مؤكّدًا في مزيج من الإلحاح الشاكي والتحدي: «ماما لا تحبّك، لكن أنطي ميليا تحبّك». وأنطي ميليا هي خالتها العانس التي شغفتْ بي وأنا بعدُ طفلٌ يحبو. «لا، إنها لا تحبّك»، تصرّ أمي. فكنتُ أختم بالقول: «لا بأس، صالح (سائق أنطي ميليا السوداني) يحبُّك»، مبدّدًا شيئًا من الوجوم المخيّم.

لم أكن أعرف من أين جاءت أمي بلغتها الإنكليزية، أو أيُّ شيء عن هويتها القومية. وقد استمرتْ تلك الحال الغريبة من الجهل إلى فترة متأخرة نسبيًا من حياتي، عندما بلغتُ المدرسة الثانوية. في القاهرة، وهي أحد الأمكنة التي نشأتُ فيها، كانت عربيّتها المحكية تبدو مصرية طليقة. على أنها، لأذنيّ الأكثرَ رهافةً وللعديد من معارفها من المصريين، بدت لهجة شاميّة صرفة أو على الأقل شديدة التأثر بهذه اللهجة. وحقيقة الأمر أنّ أمي كانت متمكّنة على نحو ممتاز من العربية الفصحى، كما من المحكية، وكانت في ذلك أفضل بكثيرٍ من أبي الذي تبدو مؤهّلاته اللغوية بدائيةً إذا ما قورنت بمؤهلاتها. على أنها لم تكن تملك من المحكية ما يكفي لكي تُقْنع بأنها مصرية. وهي لم تكن مصرية أصلاً. فقد وُلدتْ في الناصرة ثم أُرسِلتْ إلى مدرسة داخلية ومنها إلى «الجونيور كوليج» في بيروت، أي أنها فلسطينية مع أنّ أمها منيرة لبنانية. لم أعرف أباها قطّ، ولكني اكتشفتُ أنه كان القسيس المعمدانيّ في الناصرة، بعد أن أقام فترةً في تكساس، وهو أصلاً من صفد.

ولم يقتصر الأمر على عجزي عن استيعاب كل مراوحات ومقاطعات تلك التفاصيل، ناهيك عن التحكم بها، التي تبتر سياقًا سلاليًا بسيطًا، واستعصى عليّ أيضًا إدراكُ لماذا لم تكن أمي أمًا إنكليزية بكل بساطة. ولقد امتلكني هذا الشعورُ المقلق بتعدّد الهويات – ومعظمُها متضارب – طوال حياتي، ورافقته ذاكرةٌ حادة أني كنت أتمنى بشكلٍ محموم لو أننا جميعًا عرب كاملون أو أوروبيون أو أميركيون

كاملون أو مسيحيون أرثوذكسيون كاملون أو مسلمون كاملون أو مصريون كاملون وما إلى ذلك. واكتشفتُ أني أمام خيارين أُجابهُ بهما اسئلةً أو ملاحظات شكّلتْ بالفعل سياقَ تحدٍّ واعترافٍ وهتكٍ، من نوع «ما أنت؟»؛ «لكن سعيد اسم عربي...»؛ «هل أنت أميركي؟»؛ «تقول إنك أميركي مع أنّ اسمك ليس أميركيًا وأنت لم تزر أميركا قط»؛ «لا يبدو شكلك أميركيًا!»؛ «كيف يُعقل أن تكون ولدتَ في القدس وأنت تعيش هنا؟»؛ «أنت عربيّ، في نهاية المطاف، ولكنْ مِنْ أيّ نوع؟ هل أنت بروتسطانتي؟»

لا أذكر أنّ أيًا من الأجوبة التي جاهرتُ بها ردًا على تلك الاستجوابات كانت مقنعة أو حتى جديرةً بأن تَعْلق في الذاكرة. وكان عليّ أن ابتكر خياراتي بمفردي: فأحدها قد يصلح في المدرسة مثلاً، ولا يَصْلح في الكنيسة أو في الشارع مع الأصدقاء. الخيار الأول كان أن أتبنّى نبرة أبي التوكيدية الوقحة فأقول لنفسي «أنا مواطن أميركي»، وهذا كل ما في الأمر. وقد اكتسب أبي المواطنية الأميركية لأنه عاش في الولايات المتحدة الأميركية وخدم في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى. ولكنْ لمّا كان مثل ذلك الخيار سيجعل مني كائنًا خرافيًا، فقد ألفيتُه الخيارَ الأقلّ إقناعًا. فالإعلان عن نفسي بـ«أنّي مواطن أميركيّ» في مدرسة إنكليزية في القاهرة زمنَ الحرب، [وهي عاصمةٌ] يسيطر عليها الجنود البريطانيون ويعيش فيها مصريون بَدَوا لي شديدي التجانس، كان مغامرةً خرقاء لم أجازف بها علنًا إلا جوابًا على التحدي الرسميّ بأن أعرّف بمواطنيتي. أمّا في الجلسات الخاصة فلم أستطع التمسك بذلك الجواب طويلاً، لسرعة تهافُتِ التوكيد أمام التمحيص الوجوديّ.

على أنّ خياري الثاني كان أقل توفيقًا من الأول. ويتلخص في أن أنكبّ على فوضى تاريخي الحقيقيّ وأصولي، منتقيًا عناصرها نتفةً نتفةً لأحاول من ثم إعادة تركيبها بشيء من الانتظام. غير أني كنت بعيدًا جدًا عن امتلاك ما يكفي من المعلومات، ولم أعثر على ما يكفي من الوشائج الفعالة لوصل الأجزاء التي أعرفها أو التي توصّلتُ إلى نبشها. لم تكن الصورة الكاملة واضحة تمامًا. وبدا لي أنّ الإشكال يبدأ مع ماضي والديّ واسميْهما. فوالدي وديع ما لبث أن تكنّى بوليام (وهي مفارقة مبكرة افترضتُ لمدة طويلة أنها مجرد ترجمة إنكليزية لاسمه العربيّ،

ولكني سرعان ما توجسّتُ من أنها أشبه بانتحال شخصيّة، إذ أسقطَ اسم وديع، واقتصر استخدامه على زوجته وشقيقته، لأسباب ليست مشرِّفة تماماً).

وُلد أبي في القدس عام ١٨٩٥ - وترجّح أمي أنّ ذلك كان في العام ١٨٩٣- ولم يَبُحْ لي بأكثر من دزينة من الأشياء عن ماضيه، هي سلسلة من العبارات المدروسة التي لا تكاد تعني شيئًا. وكان قد جاوز الأربعين عند ولادتي.

كان يكره القدس. وعلى الرغم من أني ولدتُ فيها وأمضينا فيها فترات طويلة من الوقت، فقد كان كل ما يقوله عنها أنها تذكّره بالموت. عمل والده لفترة ترجمانًا، ولأنه كان يجيد اللغة الألمانية فقد رافق القيصر وليام خلال زيارته لفلسطين، أو هكذا قيل. وكان جدّي من آل ابراهيم. ولم يكن أحد يَذْكره بالاسم باستثناء أمي، التي لم تعرفه أصلاً لكنها كانت تسمّيه «ابو أسعد»، ومن هنا عُرِف أبي في المدرسة باسم وديع ابراهيم. لم أكتشف إلى الآن من أين جاء اسم «سعيد» ولم يستطع أحد أن يحلّ لي هذا اللغز. أما التفصيل الوحيد الذي ارتأى أبي إعلامي به عن أبيه فهو أنّ جَلْدات سَوط أبي أسعد له كانت أقسى من جَلداته هو لي. وقد سألتُه: «وكيف كنتَ تتحملها؟»، فأجاب بضحكةٍ مكبوتة: «كنتُ أهرب معظم الأوقات». وهذا ما لم أحاوله مرةً، بل إنّ الفكرة لم تخطر لي على بال.

تُخَيِّمُ الظلالُ نفسُها على أصل جدتي لأبي. اسمها حنّة، وهي من عائلة الشمّاس. ويروي أبي أنها أَقْنعتْه - وقد غادر فلسطين العام ١٩١١ - بالعودة من الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ لأنها تريده أن يبقى إلى جانبها. وكان أبي يعلن باستمرار أسفه للعودة إلى الوطن، على أنه يستطرد قائلاً، بدرجة مماثلة من التوكيد، إنّ سرّ نجاحه المدهش في الأعمال يعود إلى أنه «كان يعتني» بوالدته. وهي في المقابل كانت تصلّي باستمرار لكي تنفرش الطرقاتُ ذهبًا تحت قدميْه. لم أشاهد ملامحها في أيّ صورة فوتوغرافية، غير أنّها - في النظام التربويّ الذي طبّقه أبي عليّ - كانت تمثّل أمثولتيْن متناقضتيْن لم أنجح مرّةً في المصالحة بينهما. فهو يقول لي إنه يتوجّب علينا أن نحبّ أمهاتنا ونعتني بهنّ دون قيدٍ أو شرطٍ، ولكنْ لما كان حبُّهنّ لنا أنانيًا فذلك قد يَحْرف الأبناء عن خياراتهم المهنية (كان والدي يؤْثر البقاء في الولايات المتحدة وممارسةَ المحاماة)؛ وعليه لا ينبغي السماحُ للأمهات بأن يتدخلن أكثر مما يجب في حياة الأبناء. وكان ذلك كلّ ما أعرفه عن جدتي لأبي.

افترضتُ وجود تاريخ عريق لعائلتي في القدس. وبنيتُ افتراضي على الطريقة التي كانت عمتي نبيهة وأولادُها يحتلون فيها المكان، كأنهم، وبخاصّة هي، يجسّدون روحَ المدينة المميّز، كي لا أقول المتقشف والمضغوط. بعد ذلك، سمعتُ أبي يتحدث عنا بصفتنا من «الخليفاوية»، وقيل لي إنّ هذا هو أصلُ حمولتنا. على أنّ الخليفاوية أصلهم من الناصرة. وقد تلقيتُ في منتصف الثمانينيّات تاريخًا منشورًا للناصرة عثرتُ فيه على شجرة عائلة لأحد الخليفاويين لعله جدّي الأكبر. ولما كان ذلك النبأ الفجائيّ المدهش – الذي منحني مجموعةً جديدةً من أبناء العمومة – لا يقابِل تجربةً معيشةً ولا ما يوحي بها ولو إيحاءً، فإنّي لم أُعِرْه كبيرَ اهتمام.

عن أبي أَعْلم أنه دَرَسَ في مدرسة سان جورج في القدس وبَرَعَ في كرة القدم والكريكت، فكان لاعبًا في فريق الدرجة الأولى في الرياضتيْن خلال سنوات، بوصفه لاعبَ وسط متقدّمًا وحارسَ مرمى على التوالي. لم يَذْكر مرةً ما الذي تعلّمه في سان جورج، كما لم يفصح الكثير عن المكان ذاته. كل ما أفصح عنه أنّ صيته ذاع لأنه كان يستولي على الكرة من طرف الملعب ويظلّ يلاعبها إلى أن يبلغ الطرفَ الآخر ويسجّلَ الهدفَ. ويبدو أنّ والده حثّه على مغادرة فلسطين للهرب من التجنيد الإجباري في الجيش العثمانيّ. ثم قرأتُ في مكانٍ ما نبأ اندلاع حرب في بلغاريا حوالى العام ١٩١١، وقد استدعت تلك الحرب إرسالَ قواتٍ عثمانيةٍ إليها، فتخيّلتُ أبي وقد نَجَحَ في أن يُفلت من مصيرٍ مخيف يصبح فيه حشوةَ مدفعٍ فلسطينيةً مُكرِبةً للجيش العثمانيّ في بلغاريا.

غير أنّ أيًا مما تقدّم لم يعطَ لي وفق سياقه الزمنيّ. فكأنما أبي آثر التعتيم على سنواته قبل الأميركية معتبرًا إياها نافلةً، قياسًا إلى هويته الحالية بوصفه أبي وزوجَ هيلدا ومواطنًا أميركيًا. ومن بين القصص المفخّمة والمعلّبة التي رُوِيَتْ لي المرةَ تلوَ الأخرى خلال نشأتي قصةُ مجيئه إلى الولايات المتحدة. كانت هذه أشبه برواية رسمية، على طريقة قصص هوراشيو آلجر، الغرضُ منها إعلامُ المستمعين وتربيتُهم، والمستمعون هم في الغالب أولادُه وزوجتُه. لكنها – أي الرواية الرسمية – كانت تَجْمع وتكرّس ما كان والدي يَرْغب في أن يُعرَف عنه قبل زواجه من أمّي، وما هو مسموحٌ الجهرُ به لاحقًا للملإ. ولا أزال معجبًا بكيفية تمسّكه بالقصة ذات الحقبات المختصرة والتفاصيل الشحيحة خلال السنوات الست والثلاثين التي كان فيها أبًا

لي، إلى حين وفاته عام ١٩٧١، ومدى نجاحه في استبعاد كافة الجوانب الأخرى المنسية أو الممنوع تداولها من القصة. وبعد عشرين سنة على وفاته، أدركتُ أننا كنا في السنّ ذاتها تَقريبًا عند قدومنا إلى الولايات المتحدة، مع فارق أربعين سنةً بالضبط بين الواحد والآخر. ولكنّه جاء ليشقّ طريقه في الحياة، وجئتُ أنا لألعب الدورَ الذي رَسَمَه لي، إلى أنْ تحررتُ من الدور المرسوم وبدأتُ أحاول أن أعيش الدور الذي رسمتُه لنفسي.

غادر أبي وصديقٌ له يدعى بالوُرا (لم نعطَ اسمُه الأول) مرفأ حيفا إلى بور سعيد عام ١٩١١، حيث استقلا باخرةَ شحنٍ إنكليزيةً إلى ليڤربول. وقد أمضيا على ظهرها ستة أشهر قبل أن يجدا عملاً كخادمين على باخرة ركاب متجهة إلى نيويورك. كانت أول مهمة كُلّفا بها هي تنظيفُ القمرات. ولما لم يكونا يعرفان ما هي القمرة، على رغم ادعائهما «باعًا طويلةً في حياة البحر» ليحصلا على الوظيفة، فقد قاما بتنظيف كل شيء على الباخرة إلا القَمَرات. «توتُّر» الوكيل (والتوتُّرُ هي الكلمة التي يستخدمها أبي باستمرارٍ للدلالة على الغضب أو الانزعاج بشكلٍ عام) وطَرَحَ سطلَ الماء أرضًا وكلّفهما مسحَ أرضية الباخرة. ثم عيّن وديع نادلاً في المطعم، والأمرُ الوحيدُ الذي يَذْكره بهذا الخصوص أنه كان يقدِّم الوجبةَ الأولى ثم يهرع خارجًا ليتقيأ، فيما الباخرةُ تتقاذفها الأنواء، ثم يعود متعثِّرَ الخطى ليقدِّم الوجبة التالية، وهكذا دواليك. وقد وصل وديع وبالورا الغامض إلى نيويورك من دون أوراق شرعية، فكان عليهما الانتظار على الباخرة، فتذرّعا لمغادرتها بالرغبة في ارتياد إحدى الحانات القريبة واستقلا حافلة عامة «ذاهبةً إلى حيث لا ندري» وبقيا فيها إلى آخر الخط.

القصة الأخرى التي كان أبي يكررها باستمرار تتعلق بسباق سباحة نظّمته «جمعيةُ الشبان المسيحيين» في بحيرة في ظاهر ولاية نيويورك. وقد زَوّدتْه تلك التجربةُ بحكمة مثيرة: إذْ كان آخرَ مَنْ وصل من المتسابقين، إلا أنّه أصرّ على الاستمرار إلى نهاية الشوط (وشعارُه هنا «لا تستسلمْ أبدًا»)، بل استمرّ في السباحة إلى حين بداية السباق التالي. لم أضع مرةً الأمثولةَ المعلّبة – «لا تستسلم أبدًا» – موضعَ تساؤل، وإنما رضختُ لها كما ينبغي. ولكنْ عندما بلغتُ مطلع الثلاثينيّات لاح لي فجأةً أنّ وديعًا كان من البطء والعناد بحيث أخّر سائر

النشاطات، وهذا أمر لا يستحق الثناء. فقلتُ لأبي، بعجرفةِ مواطنٍ تحرّر حديثًا لكنه لا يزال ضعيفَ القدرات: «إنّ شعار "لا تستسلم أبدًا" قد يعني أيضًا أنك "آفة اجتماعية" تعرقل نشاطَ الاخرين وتؤخّر البرنامج وربما تبيح للمشاهدين النافدي الصبر فرصةَ التهويش على السبّاح المؤذي في بطئه والمستهتر في عناده»، فحدجني بنظرة مفاجئة لا تخفي انزعاجه كأنني حشرتُه في الزاوية أخيرًا، وإنْ بطريقة وضيعة، ثم أشاح بنظره من دون أن ينبس ببنتِ شفة. وكانت تلك آخر مرة رُوِيتْ فيها تلك القصة.

عمل أبي بائعًا عند «آركو»، وهي شركةُ دهاناتٍ في كليڤلاند، ودرس في جامعة «وسترن ريزورڤ». ولما سمع ذاتَ مرةٍ أنّ الكَنَديّين عازمون على إرسال فوجٍ «لمقاتلة الأتراك في فلسطين»، عَبَر الحدود وتطوّع في الجيش الكَنَديّ. لكنه سرعانَ ما اكتشف أنْ ليس ثمة نيةٌ لإنشاء الفوج العتيد، ففرّ من الجيش الكنديّ بكل بساطة. ثم انضم إلى «قوة التدخل الأميركية» وأُرسِل ليعاني الأمرّيْن في كامپ غوردون في جورجيا حيث كانت ردة فعله على وابل اللقاحات الذي انهمر عليه أنه أمضى القسم الأكبر من تدريبه مريضًا طريحَ الفراش. ثم ينتقل المشهدُ إلى فرنسا حيث قاتل فترةً في الخنادق. وكانت أمّي تحتفظ بصورتين له مرتديًا البزةَ العسكريةَ لذلك الزمن، ويتدلى من عنقه «صليبُ اللورين» برهانًا على خدمته العسكرية في فرنسا. وروى أنه تعرّض لهجوم بالغازات السامة فأصيب، فوُضِعَ في الحَجْر الصحّي، ثم نُقِل إلى مستشفى في مانتوني (كان دومًا يستخدم اللفظة الإيطالية لاسم البلدة الفرنسية). وذات مرةٍ سألتُه كيف كانت تجربةُ الحرب، فروى لي قصةً عن إقدامه على قتل جنديّ ألماني من مسافة قريبة وكان «رافعًا يديه، وأَطْلق صرخة عظيمة قبل أن أُطلق عليه النار». وقد ظلت الكوابيس عن تلك الحادثة تراوده وتقضّ مضجعه خلال سنوات عدة. وبعد وفاته، عندما اضطُررنا لسببٍ ما إلى سحب أوراق تسريحه من الجيش (وقد ظلّت مفقودةً طوال خمسين سنة)، ذُهلتُ لاكتشافي أنه، كعضو في فريق التموين، لم تسجَّل له أيةُ مشاركةٍ في حملةٍ عسكريةٍ معروفة. ولعل في الأمر خطأً ما لأني ما أزال أصدّق رواية أبي.

عاد إلى كليڤلاند بعد الحرب وأنشأ فيها مصنعًا للدهانات خاصًا به. وكان أخوه الأكبر، أسعد («آل») يعمل آنذاك بحّارًا على «البُحيرات الكبرى». وحتى في

ذلك الوقت المبكّر، كان الأخ الأصغر – وقد غيّر اسمَه في الجيش إلى «بيل» – يزوّد أخاه الأكبر بالمال ويرسل نصف أَجْره إلى والديه. وذات مرة هدّده أسعد بسكين لأنه كان بحاجة إلى مال أخيه الأصغر الميسور ليتزوج من امرأة يهودية. وقد خمّن أبي أنه هجرها من دون أن يطلّقها عندما عاد فجأةً إلى فلسطين في العشرينيّات.

والغريب في الأمر أنه لم يبقَ من السنوات العشر التي أمضاها أبي في أميركا غيرُ رواياته المكرورة العجفاء عنها، ونتفٍ غريبة عن ولعه بالـ«آبل پاي آلا مُود»، وعباراتٍ كان يحلو له ترديدُها مثل «هانكي–دوري» و«بيغ بوي». ومع الوقت، تبيّن لي أنّ إقامته في الولايات المتحدة كانت، قياسًا إلى حياته اللاحقة، بمثابة عملية تحقيقٍ هادفٍ للذات، مالبث أن استغلّها في كل ما أنجزه وفي ما كان يَدْفع الآخرين من حوله إلى إنجازه، ولاسيّما أنا. وكان يعلن دومًا أنّ أميركا هي وطنه، وعندما يحتدم الخلافُ بيننا بصدد حرب فيتنام، يلجأ إلى الشعار المُريح «وطني، أمحقًّا كان أم مخطئًا». على أني لم ألتقِ أحدًا من أصدقائه أو معارفه من تلك الفترة ولا سمعتُ بأحدٍ منهم. كلُّ ما عثرتُ عليه صورةٌ صغيرةٌ لوديع في مخيم لـ«جمعية الشبّان المسيحيين»، ونبذاتٌ مقتضبة لا تنبئ بالكثير مدوّنةٌ سنةَ الحرب ١٩١٧–١٩١٨ في دفتر يومياته حين كان مجنّدًا. وهذا كل ما في الأمر. بعد وفاته، تساءلتُ ما إذا كانت له، مثل أخيه أسعد، هو أيضًا، زوجةٌ أو ربما عائلةٌ بأكملها خلّفها وراءه في أميركا. ومهما يكن، فقد كان لقصته دورٌ تعليميٌّ في تكويني كيافع في ظل قيادته، وهي قصة بلغتْ درجةً من التماسك بحيث لا أَذْكر أني وَجّهتُ إليه مرةً أيَّ شيء يشبه السؤال النقديّ.

بعد أميركا، تكتسب القصة وتيرةً متسارعة وتبتعد كليًا عن التشبّه بروايات هوراشيو آلجر الرومانسية. فكأنّ وليام أ. سعيد (وديع إبراهيم سابقًا)، حين عاد إلى فلسطين عام ١٩٢٠ متسلّحًا بالجنسية الأميركية، تحوّل فجأةً إلى رجل أعمالٍ رائد وعاقل وعظيم النشاط وبروتستانتيّ من سكان القدس ثم القاهرة. ذلك هو الرجل الذي عرفتُه. لم أَسْبر أغوار طبيعة علاقته المبكرة بابن عمه البكر بولس سعيد – الذي كان أيضًا زوج شقيقته نبيهة – مع أنه تأكد لي أنّ بولس هو مؤسس «شركة فلسطين للتعليم» التي مالبث أن انضم إليها وديع ووَظّف فيها بعضَ المال عند عودته إلى البلاد. فصار الرجلان شريكين متساويين، مع أنّ وديعًا هو الذي

تولى تفريع الشركة عام ١٩٢٩ من القدس إلى مصر، حيث تمكّن، في أقل من ثلاث سنوات، من تأسيس «شركة الراية للقرطاسيات»، وهي شركةٌ تملك محلّيْن لبيع التجزئة في القاهرة وواحدًا في الإسكندرية ووكالاتٍ عدة ووكالاتٍ فرعية في منطقة قناة السويس.

وكان في القاهرة جاليةٌ شاميةٌ متكاثرة، ولكنْ يبدو أنه ابتعد عنها مؤْثرًا العملَ لساعات طويلة ولعبَ كرةِ المضرب مع صديقه وليام أبو فاضل. وقد أبلغني أنهما كانا يلعبان في الثانية بعد الظهر، عندما تكون حرارةُ الشمسِ في ذروتها، فخلصتُ إلى أنّ الانضباط الحديديّ الاقتصاصيّ في قساوته كان دأبَه في كلِّ ما فعله، بما في ذلك الرياضة.

نادرًا ما كان أبي يشير إلى السنوات التي سبقتْ زواجَه عام ١٩٣٢، ولكنْ يبدو أنّ تجارب الجسد – حياة القاهرة الليلية المبهرجة ومواخيرها واستعراضاتها الجنسية وفُرَص البذخ العام التي كانت توفرها للأثرياء من الأجانب – لم تُثِرْ أيَّ اهتمامٍ لديه. كانت عزوبيته عفيفة وخلوًا من أيّ أثرٍ للفسق. وروت لي أمّي – التي لم تكن تعرفه آنذاك طبعًا – أنه كان يأوي إلى شقته المتواضعة في باب اللوق ويتناول وجبة طعام بمفرده ثم يقضي ليله في الاستماع إلى الأسطوانات الكلاسيكية ومطالعة الأعمال الخالدة التي تنشرها دارا «هوم لايبراري» و«إفريمانز لايبراري»، بما فيها العديد من روايات ويڤرلي، إضافة إلى «أخلاقيات» جي. إي. مور وأرسطو (على أنه، زمنَ مراهقتي وما تلاها، اقتصرتْ قراءاته على مؤلَّفات في الحرب والسياسة والديبلوماسية).

عام ١٩٣٢، بلغ أبي مستوى من اليُسر مكّنه من أن يتزوج وأن يصطحب زوجته الأصغر منه بكثير – كانت في الثامنة عشرة وهو في السابعة والثلاثين – لقضاء «شهر عسل» استغرق ثلاثة أشهر في أوروبا. تمّ الزواجُ بتدبير من عمتي نبيهة من خلال علاقاتها في الناصرة، وأسهمتْ في التدبير، ولو بدرجةٍ أدنى، خالةُ أمّي في القاهرة، ميليا بدر، العانسُ المذهلةُ التي لعبتْ، وسائقَها الودودَ «صالح»، دورًا هامًا في مشهد طفولتي. وكانت أمّي هي التي زوّدتني بهذه التفاصيل كافةً، وقد استمعتْ إليها كنوعٍ من التمهيد لدخولها القفصَ الذهبيَّ مع رجلٍ يكبرها سنًّا لم تشاهده من قبل ويعيش في مكانٍ لا تعرف عمليًا عنه شيئًا. والحال أنّ ذلك

الرجل تحوّل زوجًا نموذجيًا وأبًا أسهمتْ أفكاره وقيمُه، ناهيك عن أساليبه، في تكوين شخصيتي.

مهما تكن الوقائع التاريخية الفعلية، يبقى أنّ أبي كان مزيجًا طاغيًا من القوة والسلطان ومن الانضباط العقلانيّ والعواطف المكتومة. وقد أدركتُ لاحقًا أنّ هذه جميعًا قد طبعتْ حياتي ببعض الآثار الإيجابية، ولكنها لم تعفني من الكوابح والمعوّقات. ومع تقدمي في العمر، توصلتُ إلى تحقيق التوازن بينها، على أني عشتُ محكومًا بها من الطفولة حتى سن العشرين. فقد بنى لنا أبي، بمساعدة أمّي، عالمًا كان أشبه بشرنقة جبارة أُدخِلتُ إليها وحُبِسْتُ فيها بكلفة باهظة، أو هكذا أرى الآن إلى تلك التجربة إذ أستعيدُها بعد نصف قرن. وما يثير دهشتي الآن، إضافة إلى صمودي، هو نجاحي، بطريقةٍ ما، خلال أداء عقوبتي داخل ذلك النظام، في أنْ أَرْبط بين مصادر القوة الكامنة في تعاليم أبي الأساسية وبين قدراتي الشخصية التي عجز هو عن التأثير فيها وربما عجز أيضًا عن إدراكها. ولسوء الحظ، فقد أورثني أيضًا إصرارَه الذي لا يكلّ على أداء العمل المفيد وإنجازِ ما يجب إنجازُه «دون أن يستسلم أبدًا» وذلك على نحو دائم تقريبًا. فأنا لا أعرف معنًى للترفيه أو الاسترخاء، وأفتقر على التخصيص إلى أيٍّ شعور بالإنجاز التراكميّ. فكل يوم عندي أشبهُ ببداية فصل جديد في المدرسة يأتي بعد صيفٍ طويلٍ مملٍّ وينتظره غدٌ مجهول. ومع الوقت، صار «ادوارد» وكيلَ أعمال متطلبًا، يسجّل لوائحَ من النواقص والإخفاقات، بمثل الزخم الذي يسجّل فيه الواجبات المتراكمة والالتزامات، فتتوازن اللائحتان وتلغي إحداهما الأخرى. ولا يزال «إدوارد» يبدأ يومه كأنه اليوم الأول من عمره، ولا يجد أية غضاضةٍ في أن يَشْعر في نهايته أنّ النَّزْر القليل مما حققه خلاله كان يستحق العناء.

المؤكد أنّ أمّي كانت الرفيق الأقرب إليّ والأكثرَ حميميةً خلال ربع قرن من حياتي. وإني أشعر أني مطبوعٌ بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيّر حياتي: من قلقٍ يشلّ إرادتها إزاء تعدد احتمالات التصرّف، إلى أرقٍ مزمنٍ، معظمُه فرضتْه على نفسها فرضًا، وعدمِ استقرارٍ عميقِ الجذور يضارعه مخزونٌ لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية، واهتمامٍ عميقٍ بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب والشكل، وربما أيضًا من ميلٍ متضخّم إلى الحياة الاجتماعية

بتياراتها وملذّاتها وما تَحْمله من طاقة على السعادة والحزن، ونزوع لا يرتوي – ومتعددِ الأساليب إلى حدٍّ لا يصدّق – إلى تنمية الوحدة بما هي شكلٌ من أشكال الحرية والعذاب في آن معًا. ولو أنّ أمّي كانت مجرد ملجإ، أو مأوى أمنٍ، أفيء إليه بين حين وآخر هربًا من مرور الأيّام، لما استطعتُ التكهنَ بالنتائج. إلا أنها كانت تحمل أعمقَ الالتباسات التي عرفتُها وأكثرَها إشكالاً تجاه العالم وتجاهي أنا شخصيًا. فعلى الرغم من الأُلفة بيننا، كانت تطالبني بالحب والتفاني وتعيدهما إليّ أضعافًا مضاعفة. على أنها قد تصدّ مشاعري فجأةً، باعثة رعبًا ميتافيزيقيًا في أوصالي لا أزال أتمثله بانزعاجٍ شديد، بل برهبةٍ قوية. فبين ابتسامة أمّي المقوّية وعبوسِها الباردِ أو تكشيرتها المتعالية المديدة، وُجِدتُ طفلاً سعيدًا وعظيمَ اليأس في آن معًا؛ فلم أكن هذا أو ذاك على نحوٍ كاملٍ.

تراءتْ لي أمي امرأةً في مقتبل العمر، غيرَ معقّدة، موهوبةً، محبّة، جميلةً. وإلى حين بلوغي سنّي العشرين، وقد بلغتْ هي الأربعين، كنتُ أراها في تلك الصورة، فلا ألومن إلاّ نفسي إنْ هي انقلبتْ شخصًا آخر. بعد ذلك، ارتسمتْ ظلالٌ داكنة على علاقتنا. ولكنّي، وأنا في مقتبل العمر، غمرتني حالٌ من الحبور بسبب التناغم الهش والموقت جدًا القائم بيني وبين أمّي، إلى درجة أنّه لم يكن لي فعلاً أصدقاء من عمري. وكانت علاقاتي بشقيقاتي الأصغر مني سنًا – روزماري وجين وجويس وغريس – علاقاتٍ واهنةً، بل إنها لم تكن مُرضِية كثيرًا، بالنسبة إليّ على الأقل. إلى أمّي حصرًا كنتُ أتوجه للرفقة الفكرية والعاطفية. وهي تقول إنها مذ فقدتْ طفلَها الأول في المستشفى بُعيد ولادته، أخذتْ تُغْدق عليّ جرعاتٍ زائدة من العناية والاهتمام. على أنّ هذه المبالغة لم تكن لتحجب تشاؤمها الداخليّ الشديد الذي كان يموِّه غالبًا إعلاناتها الإيجابيةَ عني.

خلال نشأتي لم تفصحْ أمي إلاّ القليل عن أصلها وماضيها، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ أبي ولكنْ مع اختلاف كلّيّ في الدوافع. ولدتْ عام ١٩١٤، وكانت البنت الوسطى في أسرة من خمسة أولاد، والباقون هم أخوالي الأربعة الذين كانت لي علاقاتٌ إشكاليةٌ معهم جميعًا. وكلُّ مَنْ عرف أمي في الناصرة يصادِق على زعمها أنها كانت الأثيرة لدى أبيها. ومع أنها تصفه بأنّه رجل «طيّب»، فقد بدا لي قسيسًا معمدانيًا عديمَ الجاذبية وبطريركًا قاسيًا وزوجًا قامعًا. أُرسلتْ هيلدا، وهذا اسمُ

والدتي، إلى مدرسة داخلية في بيروت، هي المدرسة الأميركية للبنات، وهي مؤسسةٌ إرسالية أحكمتْ صلتها بالعاصمة اللبنانية أولاً وأخيرًا، فأضحتِ القاهرةُ مجردَ استراحة مطوّلة بين إقامتين فيها. في المدرسة الداخلية، كما في الـ«جونيور كوليدج» (الجامعة اللبنانية الأميركية حاليًا)، سطع نجمها، فكانت متفوّقة - بل الأولى في صفها - في معظم الأمور وتتمتّع بشعبية كبيرة. ومع ذلك، لم يكن من رجال في حياتها لشدّة عذرية وجودها في المدرستين الدينيتين. وعلى عكس أبي، الذي بدا متحررًا من كافة ارتباطاته الأولى عدا العائلية، حافظتْ أمي على صداقات وثيقة مع زميلاتها في الصف ومجايلاتِها في الكلّية إلى حين وفاتها. وكانت السنواتُ الخمس من حياتها كطالبةٍ في بيروت أسعد فترات حياتها قاطبةً، وقد وَسَمَتْ كلَّ مَنْ عرفته وكلَّ ما فعلته خلالها بشعور من المتعة الدائمة. فتجدها تتحدث بخيبةٍ، وتقول لي بغضبٍ، عن شخص استمتعتْ بصحبته بعد ترمّلها: «وداد ليست صديقتي حقًا، لأنها لم تكن في المدرسة معي».

عام ١٩٣٢، اقتُلِعَتْ أمي من حياة بيروت الرائعة ونجاحاتها، أو هكذا جرى تجميلُ تلك الحياة لاحقًا، وأعيدتْ إلى الناصرة الصارمة لتُزَفَّ إلى أبي في زواجٍ مُعَدٍّ سلفًا. لن يستطيع أحد الآن أن يحيط تمامًا بما كانه ذلك الزواج أو إلامَ أفضى. ولكنْ جرى تدريبي من طرفها - وكان أبي يلتزم الصمتَ عمومًا حول هذه النقطة - على أن أرى أنّ الزواج المذكور بدأ صعبًا إلا أنها ما لبثتْ أن تكيّفتْ معه تدريجيًا على مدى أربعين سنةً محوّلةً إياه إلى الحدث الأهم في حياتها. لم تعمل ولم تواصل دراستها بعد زواجها، باستثناء أخذِها دروسًا في اللغة الفرنسية في القاهرة وحضورِها، بعد ذلك بسنوات، أحدَ دروس الإنسانيات في كليتها البيروتية السابقة. وكانت تروي حكاياتٍ عن إصابتها بفقر الدم ودوار البحر خلال رحلة شهر العسل، تتخللها تعليقاتٌ عن صبر أبي وحدبه على الزوجة العذراء الشابة البالغة الهشاشة والسذاجة. وهي لم تكن تأتي على ذكر الجنس إلا مُرْفَقًا برعدةِ نفورٍ وانزعاج، على الرغم من أنّ إشارات أبي المتكررة إلى أنّ الرجل خَيّالٌ ماهر والمرأة فرسٌ مروَّضة تشير إلى شراكةٍ جنسيةٍ مترددةٍ أساسًا، وإنْ تكُ شديدةَ الخصوبة مادامت قد أنجبتْ ستةَ أطفالٍ (عاش منهم خمسةٌ).

على أني لم أشكَّ لحظةً في أنها أصيبتْ بصدمة كبيرة عند اقترانها من ذلك الأربعينيّ الصامت والجبّار. فقد انتُزعَتْ من حياة سعيدة في بيروت وسُلِّمَتْ إلى زوج يَكْبرها بكثير - ربما لقاءَ مبلغٍ معين من المال دفعه إلى أمها - زوجٍ ما لبث أن أخذها فورًا إلى ديار غريبة ثم استقرّ بها في القاهرة، الحاضرة الضخمة الحجم والمربكة، وفي بلدٍ عربيٍّ غيرِ مألوف، مع خالتها العانس إميليا بدر («ميليا»). وكانت ميليا قد حطّت رحالها في مصر مطلعَ القرن، وشَقّتْ طريقها في أرض غريبة، مثلما ستفعل أمّي بأسلوبها الخاص في ما بعد. وكان والد ميليا (أيْ جدّ أمي) يوسف بدر هو أول قسيس إنجيليّ مقيم في لبنان، ولعله توسُّطَ لإيجاد عمل لميليا كمدرّسة محلية للغة العربية في الكلية الأميركية للبنات في القاهرة، وهي مؤسسةٌ إرساليةٌ أساسًا.

كانت ميليا امرأة منمنمة، ولكنّها تتمتع بإرادة أقوى من إرادة أيّ شخصٍ آخر عرفتُه في حياتي. فقد أَجبرتِ الأميركيين على مناداتها «مسّ بدر» (في مقابل اللقب الاستعلائيّ المخصّص للمدرِّسين المحليينَ، وهو «المعلّمة بدر») وانتزعتِ استقلالها الناجز منذ وقت مبكر إذ قاطعت الخدمة الكنسيّة وهي جزء عضويّ من حياة المدرسة والإرسالية. سألتُها عام ١٩٥٦ قبل فترة وجيزة من وفاتها: «هل الله موجود؟»، فأجابتني: «أشكّ في ذلك كثيرًا»، صارفةً إيايّ بسأم وبنبرةٍ قاطعةٍ غريبة كانت تلجأ إليها عندما لا ترغب في إعمال فكرها طويلاً في موضوع من الموضوعات.

كان حضورُ ميليا في حياة آل سعيد، قبل ولادتي وبعدها، مركزيّ الأهمية. لم نجاور أيًا من أنسبائنا ولا شاركناهم السكنَ. كنا نعيش وحيدين في القاهرة، باستثناء رفقة ميليا، ورفقة شقيقتها، جدتي منيرة، بعد ذلك، حين انتقلتْ جدتي للإقامة عندنا في الأربعينيّات. وكانت ميليا تساعد أمّي على اكتناه نظام القاهرة الاجتماعيّ المعقد، الذي كان مختلفًا في فورانه عن أيّ شيء آخر سبق لهيلدا اختبارُه بما هي فتاة مصون في الناصرة وبيروت. وقد قدّمتْ ميليا الزوجيْن إلى عدد من أصدقائها، ومعظمهم من الأقباط و«الشوام» من أهالي تلميذاتها. لم تفصحْ ميليا عن اهتمامٍ زائد بشقيقاتي، بل شغفتْ بي، لكنّها لم تكن تطلق العنان لعواطفها كما هي عادة نساء العائلة الأخريات: فلا إسراف في التعبير ولا عناقات مطولة أو

إعلانات عاطفية مبالَغٌ فيها ذات وظيفة طقوسية. وقد أُعطي لي الحقُّ فقط في أن أسألها أسئلةً من مثل: «هل أنتِ متزوجة من صالح؟»، وهو السائق السودانيّ الذي كان يبدو أنه يساكنها، أو أن أنقّب بين الحين والآخر في حقيبة يدها الصغيرة المعقدة.

بين سنتيْ ١٩٤٥ و١٩٥٠، تسنّى لي أن أشاهدها خلال العمل مرات عدة في الكلية: إنها امرأة نحيلة لا تتجاوز الأقدام الخمس طولاً، متدثرة بالأسود دائمًا، تلفّ عمامة سوداء حول رأسها، ولا تنتعل غير حذاء أسود عاديّ منخفضِ الكعب. وكانت شديدة الاقتضاب في حركاتها، خفيضة الصوت، ولا تنمّ عن أدنى تردّد أو أيّ مظهرٍ من مظاهر ضعف الثقة بالنفس. لها أساليبها الخاصة في التعامل مع أفراد كل طبقة من الطبقات الاجتماعية المختلفة أو مع أفراد كل شريحة من تلك الطبقات، وينطوي كلُّ أسلوب على جملة لياقات غير قابلة للخَرق وعلى بُعاد تتشبث به في صرامةٍ وبرود، فلا تسمح لأيٍّ كان أن يتجاوز حدًا معينًا من الألفة بل تظل وحدَها ممسكةً بزمام المبادرة. كانت تُرْهب الخدم والتلميذات إرهابًا، وتُجْبر أولياء التلميذات المرموقين أنفسهم – وبينهم رئيسا وزراء على الأقل – على الرضوخ لقيودها وأحكامها المبرمة والنهائية. وبسبب مثابرتها وأقدميتها وهالةِ العصمة التي تحيط بها، كانت تُجْبر المدرِّسات الأميركيات (وهنّ عوانسُ مثلها) على الانصياع لطريقتها بدلاً من أن تنصاع هي لطريقتهنّ. وخلال نصف قرن أمضته في الكلية – وتتسلطن على الطابق الذي تسكن فيه من المبنى– لم يستطع أحد أن يتغلّب عليها. ثم توقفتْ عن التدريس قبل ولادتي وعُيِّنتْ «مديرةً» للكلية، وهي وظيفةٌ أُنشئتْ تقديرًا لمقدرتها على حُكم التلميذات المصريات والمدرِّسات على حد سواء كما لم تستطعه أية مديرة أميركية.

أخذتْ آنطي ميليا أمّي هيلدا من يدها وأَرْشدتْها أين تتسوّق وإلى أين ترسل أولادها وإلى مَنْ تلجأ عند الحاجة. وأمدّتها بالخادمات ومدرِّسي البيانو ومعلّمي الدروس الخصوصية وبأسماء مدارس الباليه والخياطين، ناهيك عن تزويدها – بطبيعة الحال – بنصائح لامتناهية تدلِّسها لها تدليسًا. وكانت تأتي لتناول الغذاء معنا كلَّ يوم ثلاثاء، وهي عادةٌ درَجتْ عليها قبل ولادتي وواظبتْ عليها إلى أن غادرتِ القاهرة عام ١٩٥٣ لإقامةٍ قصيرة في لبنان حيث توفيتْ عام ١٩٥٦. وكنتُ

مبهورًا بأمرين فيها. الأول، طريقتها في تناول الطعام. فربما بسببٍ من عطبٍ في أضراسها، كانت نتفٌ من الطعام تَعْلق بين لثتها وأسنانها الأمامية فلا تجد طريقها إلى حيث تُهرَس هرسًا ثم تُبلع. وبدلَ ذلك كانت تلوك الطعام في مقدم الفم، ضاغطةً إياه إلى أسفل بلسانها، ثم تمتصّ منه مقدارًا زهيدًا من العصير، أو ربما حبة أرزّ أو نتفة لحم تلتقمها فجأةً وبطريقة غيرِ مرئية. ثم تستعمل الشوكةَ لاقتلاع ما بقي من طعامٍ في فمها – وكان يبدو لي دومًا كأنه لم يُذَقْ إطلاقًا – لتضعه بدقةٍ على حافة الصحن. وفي نهاية الوجبة، وكانت دومًا آخرَ مَنْ ينتهي من الأكل، كنتَ تجد صحنها مزيَّنًا بسبع كومات من الطعام أو ثمانٍ، تتحلق حوله بعناية، كأنّ يد طبّاخٍ حاذق وضعتْها هناك.

أما الأمر الثاني الذي كان يذهلني فيها فهو يداها المكسوّتان دومًا بكفَّيْنِ مخرّمين، سوداوين أو بيضاوين، بحسب المواسم. وكانت تضع الأساور حولهما، ولكنّها لا تزيّن أصابعها بالخواتم. وكانت تمسك يدها اليسرى على الدوام بمنديلٍ يلتفّ حول كفّها من جهة الإبهام، تُحلِّه ثم تعيد عَقْدَه طوال النهار. وكانت كلما قدّمتْ لي قطعة من الحلوى – تسميها «پاستيليا» – تُخْرجها من المنديل مضمَّخَةً دائمًا بعطر الخزامى، ملفوفةً دائمًا بورق «السيلوفان»، ولها دائمًا طعم مخفّفٌ ومتواضعٌ كطعم السفرجل أو الثمر الهنديّ. أما يدها اليمنى فممسكة بالحقيبة أو متكئة عليها.

كانت العلاقة بين أنطي ميليا وأبي لائقةً إلى أبعد حد وتتسم بالاحترام، بل إنها كانت وديّةً أحيانًا، ولكنها مختلفةٌ عن موقفه من شقيقتها منيرة، اللطيفة والصبورة والمحبّة إلى أبعد الحدود، والتي كان يناديها «امرأةَ عمي» ويعاملها بنوعٍ من الاستعلاء اللعوب. أما بالنسبة إلى أبناء عمه الأربعة، فقد كان يكنّ لهم عاطفةً مشروطةً والكثيرَ من النقد. كان أشقاء هيلدا – منير وأليف ورائق وإميل – يعيشون جميعًا في فلسطين، نزورهم هناك بشيء من الانتظام. وبعد العام ١٩٤٨ أخذوا يتوافدون إلى القاهرة ويغادرونها ومعظمُهم لاجئ و«في وضع صعب» يحتاج إلى مساعدة، على حد تعبير أبي. كانوا أوفر عددًا من أنسباء أبي، ولاسيّما إذا أضفنا إلى العديد الفلسطينيّ جوقَة أنسباء هيلدا من اللبنانيين. ومع أنّ أبي كان يرفض الخوض في شؤونِ آل سعيد رفضًا قاطعًا – وهذه قاعدة من القواعد الحديدية التي

التزم بها، مؤكدًا لي مراراتٍ عديدة أنّ عائلة الرجل هي شرفه – فإنّه لم يتردد إطلاقًا في التدخل في شؤون عائلة زوجته وبخاصّةٍ أنه كان دائنهم الدائم، حسبما اعترف لي (ولا بد أنّ ذلك شكّل مصدرَ إحراجٍ كبيرٍ لأمي). كان أبي ثريًا باستمرار، في حين لم يكن أشقاءُ هيلدا من ذوي اليسار: فقد اقترض أحدهم المالَ منه ليتزوج، واستلف الآخرون مبالغ من المال لتمويل شتى المشاريع التجارية التي ما لبثتْ أن باءت بالفشل – وأفهمني أنّ تلك الديون لم يسدَّد أيٌّ منها أبدًا. وقد ساق إليّ أبي كل هذه المعلومات بشيءٍ من القرف، ولا شك أنها أثارت لديّ شعورًا غيرَ واعٍ بالانزعاج والنفور الخفيف جعلاني أتعامل معهم، خلال مراهقتي، بطريقةٍ تعوزها اللباقة والدماثة.

على أنّ اعتراضه الاساسيّ عليهم، عبر السنين، بدأ بكيفية زواجه من هيلدا. وأنا لا أملك كافة التفاصيل عن هذا الأمر، ولكنه يتصل بكون شقيق والدتي الأكبر، وهو المحظيّ عند منيرة، باع قطعة أرض للعائلة ليتزوج، فأَوقع منيرة المترمّلة، ومعها هيلدا والأشقاءُ الثلاثة، في ضائقةٍ مالية. ولقد افترضتُ طويلاً، وربما عن غير وجه حق، أنّ ترتيبات الزواج التي أَجْرتها عائلةُ هيلدا مع أبي تضمّنَتْ شروطًا ماليةً لتأمين معيشة منيرة. وانتهى الأمر أَنْ أَمْضَتْ منيرة سنواتٍ طويلة معنا، فاعتدنا على سماع القصص عن سوء معاملتها في منزل ابنها البكر أو عن عجز أبنائها الآخرين – بل عدم رغبتهم، حسبما كان يقول أبي دائمًا – عن الإسهام في إعالتها. وقد اعتبر أبي أنه أَنْجَزَ إنجازًا فاضلاً إذ أَقنع أحد أبنائها أن يصطحب جدّتي لتناول «البوظة» عند «غرويي» مرةً في الأسبوع.

كان ذلك كله في عين أبي مثالاً تقليديًا، كي لا نقول حاسمًا، على الطريقة السلبية لمعاملة الأبناء لأمهم، مضيفًا أنه أيضًا مثالٌ سلبيّ على معاملة الأشقاء لـ«شقيقتهم»، بعد العام ١٩٤٨. وقد طغى هذا النوع من الحديث، المعبَّر عنه بأسلوب أبي المقتضب، على المناخ العائليّ عمومًا، وطغى عليّ أنا شخصيًا بحدةٍ أكبر. ولم تكن نتيجةُ ذلك وضعَ عائلة أمّي في خانة الاستنكار والحُكْم المبرم عليها بعدم الأهلية فحسب، وإنما أورثتني أيضًا، كشقيقٍ وابنٍ، حالاً من الإحراج الحاد. فالمعادَلة الضمنية التي نشأتُ في ظلها هي أنّ «إدوارد» يشبه أخواله («طالعْ مِخْوِل»، بحسب التعبير المحكيّ، وهو ما يوحي أيضًا أني كلّما تقدمتُ في السن

ازددتُ شبهًا بهم). ولما كان أخوالُ «إدوارد» أبناء وأشقّاء عاقين، فالأرجح أنّه سوف ينتهي مثلهم، وهو ما يستوجب بترَ هذا المسار وإعادةَ تربيةِ الولد وإصلاحه إلى أن يصير أقلَّ شبهًا بهم.

طبعًا، كان لذلك وقعٌ مروِّع على أمي. ذلك أنّ وصم ابنها وأمها (التي كانت تعاملها في حضوري بما يشبه الكُرهَ الباردَ المتعالي) وأشقائها بمثل هذا المصير الداروينيّ المحتوم حوّلها إلى مزيج من وكيلٍ ومُدافعٍ عن عائلتها الأصلية، ومن منفِّذٍ لأوامر أبي في عائلتها الجديدة، ومدّعٍ عام ومحاميٍ دفاع عني في آن معًا. فكانت كل تصرفاتها تنتظم في تلك الفئاتِ الثلاث من الأحكام التي لا تلبث أن تنتهي معقودةً جميعُها في داخلها، مع ما يستتبعه ذلك من عواقب محيّرةٍ بالنسبة إليّ، أنا ابنَها المثيرَ لإعجابها والعائرَ في آن معًا، الذي يكرّس مع الأسف أسوأ ما في ذريتها. فكان حبُّها لي جميلاً ومكبوتًا في الوقت نفسه، لكنه صبورٌ إلى أقصى حدود الصبر أيضاً.

هكذا نشأتُ متأرجحًا بين أن أكون ابنًا جانحًا – في عين والدي – أو ابن أخت أخوالي الكلّي الطاعة. وقد ظللتُ أنادي أبي «دادي» Daddy إلى حين وفاته، على أني كنتُ أشعر دائمًا أنها تسمية عَرَضية وأتساءل ما إذا كان يجوز أصلاً أن أَعتبر نفسي ابنه. فأنا لم أطلب منه طلبًا دون توجس كبير وساعاتٍ من الإعداد المحموم. وأبشعُ ما قاله لي إطلاقًا – وكنتُ في الثانية عشرة – هو: «إنك لن تَرِث مني شيئًا. أنتَ لستَ ابن رجل ثريٍّ»، مع أني كنتُ فعلاً ابنَ رجلٍ ثريّ. وعند وفاته، تبيّن أنه أوصى أمي بكل ثروته. ومنذ أن بدأ وعيي بذاتي وأنا بَعدُ طفلٌ، استحال عليّ التفكيرُ بذاتي إلا بوصفي طفلاً يملك ماضيًا مشينًا ويتوعده غدٌ لاأخلاقيٌّ. فكان أن اختبرتُ كلَّ وعيي الذاتيّ خلال السنوات التكوينية بصيغة الحاضر، مجاهِدًا كي لا أنقلب إلى الوراء فأقعَ في قالبٍ معدٍّ سلفًا أو أن أتهاوى إلى أمام فأسقطَ في هاوية الضياع المؤكّد. أن اكون أنا ذاتي كان يعني أن لا أكون تمامًا في موقعي الصحيح، ولكنّ الأمر لم يقتصر على ذلك، وإنما كان يعني أيضًا أني لم أنعم مرةً براحةِ بالٍ، بل أتوقع باستمرار أن يأتي مَن يقاطعني أو يصوِّب لي أفعالي أو يجتاح حميميتي أو يعتدي على شخصي الضعيفِ الثقةِ بالنفس. كنتُ دومًا في غير مكاني. لم يَتْرك لي نظامُ الضبطِ والتربيةِ المنزلية الجامدِ الصارمِ، الذي حبسني

فيه أبي منذ سن التاسعة، أيٌّ متنفَّسٍ أو أيّ مجالٍ للإحساس بالذات في ما يتجاوز قواعده وترسيماته.

هكذا أصبحتُ «إدوارد»، مخلوقَ والديّ، تراقِبُه في عذاباته اليومية ذاتٌ داخليةٌ مختلفةٌ كليًا عنه لكنها على درجةٍ من فتور الهمّة بحيث تعجز، في معظم الأحيان، عن مساعدته. وكان «إدوارد»، أساسًا، هو الابنَ ثم الشقيقَ وأخيرًا الصبيَّ الذي يرتاد المدرسةَ ويفشل في محاولاته التقيُّدَ بالأصول (أو يتجاهلها ويتحايل عليها). وقد كانت عمليةُ خلقه واجبةَ الوجوب لأنّ والديه كانا هما أيضًا نتاجَ عملية خلقٍ للذات بالذات، فلسطينييْن ينتميان إلى بيئتيْن مختلفتيْن ومزاجيْن متغايريْن جذريًا، يعيشان في القاهرة الكولونيالية ابنَيْ أقليةٍ مسيحيةٍ تعيش هي نفسها ضمن حومة من الأقليات ليس لأيٍّ منهما سندٌ سوى الآخر، وهما يفتقدان، فوق ذلك كله، إلى أية أعرافٍ يهتديان بها في سلوكهما، باستثناء مزيج غريب: من عادات فلسطينية من فترةٍ ما قبل الحرب، وحِكَمٍ أميركيةٍ مجمّعةٍ على نحو انتقائيّ من الكتب والمجلات ومن السنوات العشر الذي أمضاها أبي في الولايات المتحدة (التي لم تزرها أمّي إلا العام ١٩٤٨)، ومن تأثيرِ الإرساليات والتعليم المدرسيّ المتقطع ومن ثَمّ الهامشيّ، ومن مواقف بريطانيةٍ كولونيالية تمثِّل الأسيادَ وسوادَ «البشرية» التي يحكمها هؤلاء الأسيادُ في آن معًا، وأخيرًا، من نمط حياةٍ عاينه والداي حولهما في القاهرة وحاولا تكييفه مع ظروفهما الخاصة. فهل يمكن لـ«إدوارد»، والحالُ هذه، أن يكون إلا في غير مكانه؟

الفصل الثاني

مع أنَّ والديّ كانا يعيشان في القاهرة عام ١٩٣٥، فقد خَطَّطا لكي أُولد في القدس لأسبابٍ تكررتْ على مسامعي خلال الطفولة. كانت هيلدا قد وَلدتْ، في أحد مستشفيات القاهرة، طفلاً ذكرًا، تقرّرتْ تسميتُه «جيرالد»، إلاَّ أنَّه أصيب بالتهابٍ قضى من جرّائه بعيْد ولادته. وكبديلٍ جذريّ من كارثةٍ استشفائيّةٍ أخرى، سافر والداي إلى القدس خلال الصيف. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر وُلِدتُ في المنزل على يد قابلةٍ يهودية، السيدة باير. وهي امرأة ألمانية الأصل، كبيرة، تَجْمع بين صراحةٍ حدَّ الفظاظة وطيبةِ قلبٍ، لا تتكلّم الإنكليزيّة بل تَرْطن بالعربيّة بلهجةٍ أجنبية ثقيلة ومعجمةٍ إلى درجةٍ مثيرةٍ للضحك. كانت تزورنا بانتظام لتراقِبَ نموّي، وتُكْثر من العناقات والقرصات والصفعات الحُبِّيّة. وهذا هو كلُّ ما أذكره عنها.

إلى العام ١٩٤٧، كانت إقاماتُنا المتقطِّعة في فلسطين ذاتَ طبيعةٍ عائليّةٍ صرفة، أيْ أنَّنا لم نكن نأتي أيَّ نشاطٍ كعائلة مصغّرة وإنَّما يلازمنا دائمًا سائرُ أفراد العشيرة... وذلك على العكس تمامًا ممّا كان يحدث في القاهرة، حيث كنا متوحِّدين في بيئةٍ نَفْتقد فيها العلاقاتِ الفعليةَ، الأمرُ الذي زاد إحساسَنا بالتماسك الداخليّ. ذكرياتي الأولى عن فلسطين ذكرياتٌ عادية، والغريب أنَّها غير لافتة، قياسًا إلى عميق انشغالي اللاحق بالشؤون الفلسطينيّة. كانت فلسطين مكانًا أُسَلِّم به تسليمًا، بما هو الوطنُ الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباءُ وأصدقاءُ بطمأنينةٍ لا تحتاج إلى تفكّر (أو هكذا يبدو الأمرُ اليومَ في نظرةٍ استرجاعيّة).

يقع منزلُنا العائليُّ في الطالبيّة، وهو حيّ من القدس الغربية قليلُ السكّان، بناه وسَكَن فيه حصرًا فلسطينيُّون مسيحيُّون من أمثالنا. والمنزل كنايةٌ عن ڤيللا حَجَريّة مهيبة من طبقتيْن، كثيرةِ الغرف، تُحْدِق بها حديقةٌ جميلةٌ نَلْعب فيها أنا وابنا عمّي الأصغران وشقيقاتي. ويَصْعب الحديثُ عن جيرة فعلية، مع أنّنا كنّا نَعْرف جميع ساكني الحيّ الذي لم تكن معالمُه قد تبلورتْ بعدُ. أمام المنزل بورةٌ مستطيلة خالية، كنت أَلعبُ فيها أو أَرْكب درّاجتي. ولم يكن لنا جيرانٌ مباشِرون، مع أنّك تَلْقى على مسافة خمسمئة ذراع تقريبًا صفًا من الڤيللات المشابهة يَسْكنها أصدقاءُ أبناء عمّي. اليوم، أَضحتِ البورةُ حديقةً عامةً، والمنطقةُ المجاورة للبيت حيًا فخمًا يَسْكنه أغنياءُ اليهود.

عندما كنا نقطن مع عمتي نبيهة المترمِّلة، وأبنائها الخمسةِ البالغين، كنتُ دائمًا ألْهث لحاقًا بالتوأمَيْن روبرت وألبرت اللذيْن يكبرانني بنحو سبع سنوات؛ فلا استقلالَ لي ولا دورٌ ألعبه، إلا دورَ ابنِ العم الأصغر، يستخدمانني بين الحين والآخر مكبِّرًا للصوت، عديمَ التفكير، كاملَ الطاعة، يُطْلِق الشتائمَ والكلماتِ البذيئةَ على أصدقائهما والأعداءِ من خلف الجدار، أو مستمِعًا مستكينًا إلى حكاياتهم التي لا نهاية لها. وكان ألبرت، بسحنته الفاسقة وفكاهته اللاهية، أقربَ مقاربةٍ عرفتُها لأخٍ أكبرَ أو صديقٍ حميم.

وكنّا غالبًا ما نذهب إلى صَفَد نقضي الأسبوع بطوله مع الخال منير، الطبيب، وزوجتِه لطيفة، ولهما ابنان وابنةٌ في عمري تقريبًا. كانت صَفَد تنتمي إلى عالم آخر أقلَّ تطورًا: فلا كهرباء داخل البيوت، وكانت الطرقاتُ الخاليةُ من السيارات والمنحدراتُ السحيقةُ تَصْلح ملاعبَ رائعةً نَرْتع فيها. أما طبخُ امرأة خالي فلذيذُ المذاق إلى أبعد الحدود. بعد الحرب العالميّة الثانية، شكّلتْ زياراتُنا إلى القدس، وإلى صَفَد خصوصًا، فرصةً للإفلات من النظام الآخذِ بالإطباق عليّ في القاهرة بفضل تعزيزات يوميّة. ففي صفد أمضيتُ في الغالب أوقاتًا هانئةً تَقْطعها المدرسةُ أحيانًا أو أحدُ الدروس الخصوصيّة، ولكنْ ليس لفترة طويلة.

وإذ استطالتِ الفتراتُ التي نقضيها في القاهرة، اكتسبتْ فلسطين طابعًا ناعِسًا بل حُلُميًا. هناك كنتُ أتحرّر من ذلك الشعور الحادّ بالوحدة الذي أخذ يَقضّ مضجعي فيما بعد، حين بلغتُ الثامنةَ أو التاسعة. وعلى الرغم من أنّي كنتُ أشعر

بانحسار وطأةِ التنظيم المُحْكَم للمكان والزمان، وهو تنظيمٌ كان محورَ حياتي في مصر، فإنّي لم أستطع الاستمتاع كليًا بذلك التحرر النسبيّ منه الذي عشتُه في القدس. كنتُ أرى إقامتي المقدسيّة سارّةً، لكنْ يعذّبني فيها أنّها طليقةٌ ومؤقّتةٌ بل وزائلة. وقد تبيّن لاحقًا أنّها فعلاً كذلك.

أما جغرافية القاهرة وبيئتُها الأغنى دلالةً والأشدُّ كثافةً فكانتا تتركّزان بالنسبة إلينا في الزمالك، وهي الجزيرة التي تتوسّط النيلَ بين المدينة القديمة إلى الشرق والجيزةِ جهةَ الغرب، يَسْكنها الأجانبُ والأغنياءُ المحليون. وقد انتقل أهلي إلى الزمالك سنة ١٩٣٧ عندما كنتُ لا أزال في الثانية. وخلافًا للطالبية المتجانسةِ السكّان من تجّارٍ ومهنيّين ميسورين، لم تكن الزمالكُ تشكّل جماعةً موحّدةً وإنّما كانت أشبهَ بالمركز الكولونياليّ الأماميّ يتحكّم فيه الأوروبيُّون الذين لم يكن لنا ـ أو لم يكد يكون لنا ـ اتصالٌ بهم. وقد أنشأْنا عالَمنا الخاصَّ داخل الزمالك. وكان بيتُنا شقةً فسيحةً في الطبقة الخامسة من ١، شارع عزيز عثمان، تُطلّ على ما يسمّى «حديقة الأسماك» وهي منتَزَهٌ صغيرٌ مسوَّرٌ ذو تلة اصطناعيّة (الـ «جبليّة») وحوضٍ صغيرٍ ومغارةٍ، تخترقه مرجاتٌ خضراءُ ومسالكُ متعرِّجةٌ وتحفّ به أشجارٌ كبيرة. وفي «الجبليّة» تشكيلاتٌ صخريّة ومنحدراتٌ، اصطناعيّةٌ هي أيضًا، نعدو عليها صعودًا أو نزولاً بلا انقطاع. وكنتُ أقضي جُلَّ أوقات اللعب في «الحديقة»، كما كنا نسمّيها، خلا أيامَ الآحاد والأعياد، دائمًا قيدَ المراقبة، تحت مرمى صوتِ أمي يترامى إلينا، أنا وشقيقاتي، دائمَ الوضوح في غنائيّته.

هناك أمثّل أدوار «روبنسون كروزو» أو «طرزان» وألعب «الاستغمّاية»، عندما تنضمّ أمي إليّ، فأختفي عنها ثم أعود إليها. وكانت أمي تلازمنا باستمرارٍ تقريبًا في أركان عالمنا الصغير، جزيرةً صغيرةً تُحْدِق بها جزيرةٌ أخرى. في تلك السنوات الأولى، كنتُ أرتاد مدرسةً تَبْعد بضعةَ صفوف من البنايات عن منزلنا، هي «مدرسة الجزيرة الإعداديّة». وللرياضة، كنّا نقصد «نادي الجزيرة الرياضيّ»، وفي عطل نهاية الأسبوع، «نادي المعادي الرياضيّ» حيث تعلّمتُ السباحة. ولسنواتٍ، كان يومُ الأحد يعني لنا «مدرسةَ الأحد»، تلك المحنةَ العبثيةَ الواقعةَ بين التاسعة والعاشرة صباحًا في «إعداديّة الجزيرة» يليها القدّاسُ الصباحيُّ في «كاتدرائيّة جميع القدّيسين». أما في أماسيِّ الآحاد، فكنتَ تجدنا في كنيسة الإرساليّة الأميركيّة في

الأزبكيّة، نَتْلو ـ كلٌّ أحديْن من ثلاثة آحاد ـ صلاةَ المساء في الكاتدرائيّة ذاتها. المدرسة، الكنيسة، النادي، الحديقة، البيت ـ كان هذا الحيّزُ المحصورُ والمحدَّدُ بدقةٍ من هذه المدينة الجبارة يختصر عالمي كلَّه حتى سنواتٍ متأخِّرةٍ من مراهقتي. وإذْ أضحى جدولُ أعمال حياتي أكثر تطلبًا، فقد كانت الانحرافاتُ المؤقتةُ عنه بمثابة استراحاتٍ تَخْضع لإجازاتٍ صارمةٍ تعزِّز من سطوته عليّ.

من الطقوس الترفيهيّة الأساسيّة لسنواتي القاهريّة «مشوارُ السيارة»، حَسبَ تعبير أبي، تمييزًا له عن السُّوْق اليوميّ بالسيارة إلى العمل. خلال أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، كان أبي يملك مجموعةً من السيارات الأميركيّة السوداء، كلٌّ واحدةٍ منها أكبرُ من سابقاتها: سيارة فورد، وسيارة پليموث «سيدان» ممتازة، ثم اقتنى عامَ ١٩٤٨ سيارة كرايزلر «ليموزين» ضخمة. وكان دائمَ الاستخدام للسَّائقين، وقد أجاز لي التحدُّثَ مع اثنيْن منهم، فارس وعزيز، حين لا يكون معنا في السيارة. أما خلال رواحه إلى العمل وإيابه منه، فيصرّ على الصمت الكامل. وعندما أرافقه، يبدأ الرحلةَ من البيت في مزاجٍ بيتيٍّ، إذا جاز التعبير، مستجيبًا لحديثي، إلى حدٍّ ما، بل قد يتكرَّم عليَّ بابتسامة، إلى أن نبلغ «جسر البولاق» الذي يَصِلُ الزمالكَ باليابسة؛ وإذّاك ينكمش تدريجيًا ويَصْمت، ثم يتناول أوراقًا من حقيبته ويأخذ يراجعها. ومع وصولنا إلى تقاطع «الإسعاف» و«المحاكم المختلطة»، على تخوم المركز التجاريّ الأوروبيّ، يكون قد انغلق دوني كليًا، فلا يجيب على أسئلتي بل لا يكاد يَعْترف بوجودي. هكذا يتحوّل أبي إلى ربّ عملٍ مهيب، أيْ إلى شخصيةٍ ما لبثتُ أن كرهتُها وخشيتُها، لأنّه كان يبدو فيها مثلَ نسخةٍ أضخمَ وأقلَّ آدميَّةً عن الرجل الذي يُشْرِف على حياتي.

في الأماسيِّ والأعياد، كان يستغني عن السائق ويأخذنا في «مشاوير سيارة» يقضيها هذا البطريركُ المضيافُ في الثرثرة والنكات، فأُدرك بطريقةٍ نصفِ واعيةٍ أنّ تلك المشاوير هي بمثابة انعتاقٍ له قبل أيّ شيء آخر. كان يَنْزع عنه السترةَ وربطةَ العنق، مقتصِرًا على القمصان ذاتِ الأكمام القصيرة أو ستراتِ الشتاء الرياضية، ويتّجه إلى واحدٍ من أمكنة ترفيهٍ معيَّنةٍ سلَفًا: الـ «مينا هاوس»، بعد ظهر الأحد، لاحتساء الشاي والاستماع إلى حفلةٍ موسيقيّة متواضعة؛ وإلى «السدود» بعد ظهر أيام السبت، وهو كناية عن سدٍّ منمنمٍ بناه البريطانيون على دلتا

النيل، تُحْدِق به المتنزهاتُ الخضراء وتخترقه سكّةٌ للعربات كانت وظيفتُها الغامضةُ تثير استيهاماتِ الهربِ لديّ (واستحالتَه كذلك)، نتجوّل فيها كما يحلو لنا، نأكل السندويتش هنا أو نَقْضم تفاحةً هناك، على مدى ساعتيْن أو ثلاث ساعات. أيامَ الأعياد كان محتومًا أن نعرِّج على الأهرام في طريقنا إلى الصحراء الغربية، حيث نتوقّف عند نقطةٍ غير معيّنة، فنَفْرش بطانياتنا أرضًا ونُخْرج وجبةَ طعامٍ سخيةً، ثم نتسلّى بقذف حجارةٍ على أهدافٍ ما، والقفزِ على الحبل، واللعبِ بالكرة. وحدنا كنا، خمسةً أو ستةً أو سبعةً، بحسبِ درجة نموّ العائلة. لم نَرْتَدْ مرةً مكانًا عامًا كمقهى أو مطعم، باستثناء الـ «مينا هاوس»، ولم نذهبْ مرةً برفقة أحد. ولم نقصدْ مرةً مكانًا معروفًا، بل نتوقّف عشوائيًا في بقعةٍ ما متفرعةٍ من الطريق الصحراوية. وفي أماسيِّ الأعياد، كنا نتجوّل جنوبيَّ «باب اللوق» حيث الأبنية الحكوميّة تتلألأ بألوف الأنوار الكهربائيّة ذاتِ الألوان الصفراء الرمليّة وبأضواء الـ «نيون» الخضراء الفاقعة. وكانت تلك الأبنية تشكّل «الإنارات»، كما يسمّيها أبي، نزورها بمناسبة عيد ميلاد الملك أو افتتاح دورات البرلمان.

لِشِدّةِ ما كنتُ محميًا ومحْتَجَزًا داخِلَ ذلك العالَم الصغيرِ الذي بناه أهلي، لازمني شعورٌ بأنّ وراء حدود العادات والرحلات المبرمَجَةِ بدقةٍ متناهية، عالمًا كاملاً يتأهّب لاختراق السدود ليغمرَنا بلْ ليجرفَنا جرفًا تحت لُجَجِه. مطلعَ الأربعينيّات، كانت القاهرةُ مدينةً مكتظّةً بالسكّان إلى حدٍّ كبير، تمركَزَ فيها الوفُ الجنود من جيوش الحلفاء خلال الحرب العالميّة الثانيّة، أَضِفْ إليهم عدةَ جالياتٍ أجنبيّة كبيرة من إيطاليين وفرنسيين وإنكليز، ناهيك عن الأقليات القاطنة فيها أصلاً مثل اليهود والأرمن والسوريين ـ اللبنانيّين (الشوام) واليونانيِّين. وقد تُطالِعك بالمصادفة في القاهرة مسيرةٌ للجنود هنا، أو استعراضٌ عسكريٌّ هناك. ومع أنّ أبي وعدني مرارًا بأن يأخذني إلى أحد المهرجانات العسكريّة الترفيهيّة، فقد أَخْلَف بوعوده في كل مرة. في القدس، كما في القاهرة، شاهدتُ مسيرات الجنود البريطانيين وجنود الـ «أنزاك»[1] يَنْفخون في الأبواق ويَقْرعون الطبول، على أنّي لم أَفْهم لِمَ كان يتمّ ذلك ولأجل مَنْ؟ فافترضتُ أنّ هدف أولئك الجنود في الحياة أسمى من هدفي أنا، وأنّه ـ مِن ثَمَّ ـ أعمقُ من أنْ أدركه.

---

١ ـ «القوات الأوسترالية النيوزيلاندية المشتركة». (المترجم)

ومن عاداتي في ذلك الزمان المعاينةُ الدائمةُ لواجهات المطاعم والملاهي المحظورة عليّ، تزيّنها يافطاتٌ تعلن: «نرحِّب بكافة الرُتب»، فلم أفقه معناها هي أيضًا. وصَدَفَ أنّ أحد هذه الأمكنة المحظورة ـ مطعم «سولدز» ـ يقع في بناية «إيموبيليا» قُرْبَ «شركة السَّهم للقرطاسية» Arrow Stationary Company لصاحبها عمي أسعد (وهي هِبَةٌ له من أبي) وكان كثيرًا ما يأخذني إليه. «أَطعِم الصبيَّ»، يَنْهر عمي الموظَّفَ الناعسَ القابعَ وراء المنضدة المستطيلة، فأروح أَلْتَهِمُ سندويتشات الجبن واللفت المخلَّل حتى أُتْخَم. في البدء، ظننتُ أنّ عبارة «كافة الرتب» تعني أنّ المدنيِّين من أمثالي مسموحٌ لهم بالدخول، على أنّي سُرعان ما أدركتُ أني لا أملك أيّ رتبة. وكان مطعم «سولدز» والعم «آل»، كما كنا نسمّيه، يرمزان إلى برهةٍ حريةٍ، مؤقتةٍ، قصيرةٍ جدًا، بل زائلةٍ، نظرًا إلى قوانين الغذاء الصارمة التي كانت تَفْرضها عليَّ أمي.

بحلول العام ١٩٤٣، بدأ والداي يَفْرضان عليّ نظامَهما الانضباطيَّ بصرامةٍ كاملة، بحيث أنّ عبارة العم «آل» الصادرةَ من القلب ـ «أَطْعِم الصبيَّ» ـ قد اكتسبتْ عندي، حين مغادرتي مصر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، عذوبةَ حنينٍ سخيفٍ وسعيدٍ معًا هيهاتَ أن تُستعاد. وعندما توفي العم «آل» في يافا بعد ذلك بأربع سنوات، كان مطعم «سولدز» قد أَغلق أبوابه هو أيضًا.

خلال النصف الأول من الحرب أَخَذْنا نقضي أوقاتًا أطول من المعتاد في فلسطين. عام ١٩٤٢ استأجَرْنا منزلاً لقضاء عطلة الصيف في رام الله، شمال القدس، ولم نعدْ إلى القاهرة إلا في تشرين الثاني/نوفمبر. ذلك الصيفُ غيّر مجرى حياة عائلتنا على نحوٍ دراماتيكيّ، إذْ طرأ تحوّلٌ على تحركاتنا بين القاهرة والقدس، وقد كانت قَبْلاً فجائيةً ومرتبكةً. كنا نسافر عادةً في القطار من القاهرة إلى اللِدّ مع اثنيْن من طاقم الخدم على الأقل، وكميةٍ كبيرةٍ من الأمتعة، ويُخيِّم علينا جوٌّ محموم، في حين أنّ العودة كانت دائمًا أيسرَ وأقلَّ هياجًا. ولكنّنا في ذلك العام ١٩٤٢ لم نستقلَّ القطارَ، أنا وأمي وشقيقتاي روز ماري وجين وأبي، بل ارتحلنا بالسيارة. وبدلاً من ركوب قطار «الحافلات السريريّة» الفخم من محطة «باب الحديد» القاهريّة، للقيام برحلة الساعات الاثنتيْ عشرة إلى القدس، اضطررنا في أيار/مايو من ذلك العام إلى الفرار أمام زحف الجيش الألمانيّ المداهِم في سيارة أبي البليموث

السوداء، وقد طُلِيَتْ مصابيحُها باللون الأزرق للتعتيم، وتكدَّستْ حقائبُنا الجلدية التي وضّبناها على عجلٍ فوق رفّ الأمتعة وداخل صندوق السيارة. استغرقتِ الرحلةُ إلى قناة السويس ساعاتٍ عديدةً التقيْنا خلالها عدة قوافل عسكريةٍ بريطانيّةٍ تتّجه صوب القاهرة، وهو ما اضطرنا إلى مجانبة الطريق والانتظار ريثما تمرّ الدباباتُ والشاحناتُ وناقلاتُ الجنود من أمامنا متجهةً إلى معركةٍ أسفرتْ عن هزيمةٍ لقوات الحلفاء سوف يَعْقبها هجومٌ بريطانيٌّ مضادّ تُوِّج بمعركة «العلمَيْن» في تشرين الثاني/نوفمبر.

اجتزنا الرحلة الطويلة ليلاً وفي صمت مُطْبق. وكان أبي يتعامل مع طرقات سيناء غيرِ المحددةِ المعالم، بعد أن عَبَرْنا قناةَ السويس عند جسر القنطرة دون احتفالٍ ولا جلبة، إذ ألفيْنا مركزَ الجمارك مهجورًا عندما بلغناه بُعيْدَ منتصف الليل. هناك التقينا السيارةَ المدنيةَ الوحيدةَ السائرةَ في الاتجاه نفسه، وكانت سيارةً مكشوفةً يقودها رجل أعمالٍ يهوديٌّ من القاهرة لا يصطحب معه أيَّ راكبٍ ولا يَحمل من الحوائج غيرَ زجاجاتِ المياه المثلجة ومسدَّسٍ. تَعَرَّفَ الرجلُ إلى أبي، واقترح أن نخفِّف عن الپليموث بعضًا من حمولتها ـ فنقلنا عدةَ حقائبَ ضخمةٍ إلى سيارته ـ وطَلَبَ، في المقابل، أن نَسْمح له بأن يسير في أعقابنا. أَذْكر جيدًا التعبيرَ الذاهلَ المتْعَبَ على وجه أبي وهو يوافِقُ على هذا الترتيب الأعرج. وهكذا مضينا بصمتٍ خلال الليل، السيارةُ الثانية تحثّ السيرَ وراء الأولى، ووالدي يتولّى بمفرده رفعَ الرمال عن الطريق الضيّقة الملتوية في تلك الليلة الليلاء ويتحمّل، فوق ذلك، ضغطَ عائلته الصغيرة داخل السيارة، فيما رجلُ الأعمال اليهوديُّ المصريُّ في الخارج يستعجله من الخلف، موقنًا أنّه يفرّ إنقاذًا لحياته.

في مَطْلع ذلك الشتاء سمعتُ صفّارات الإنذار تَزْعق إنذاراتِ الـ «الخطر» ثم تعود لتُطْلق إعلاناتِ الـ «أمان». وخلال غارةٍ ألمانيةٍ ليلية، بينما كنتُ فوق ذراعيْ أبي، مُلْتحفًا ببطانية، يحملني إلى المرأب ـ الملجإ، دَهَمَني شعورٌ استباقيٌّ غامضٌ بـ «أننا» في خطر. ومن الطبيعي أنّ المغزى السياسيّ، ناهيك عن العسكريّ، لِوَضْعنا، كان يتعدّى مداركَ الطفل ذي السنوات الست ونصف السنة الذي كنتُه. على أنّ أبي، بصفته مواطنًا أميركيًا في مصر، التي تنتظر إنزالاً للقوات الألمانيّة بقيادة رومل على الإسكندريّةِ فالقاهرةِ، لا بد أنّه فكر بأنّه مستهدَفٌ بمصيرٍ لا يُحسَد عليه.

وكان قد غطّى جدارًا كاملاً من مدخل المنزل بخرائط ضخمةٍ لآسيا وإفريقيا الشمالية وأوروبا. وكان كلٌ يوم يحرّك الدبابيسَ الحمراء (قواتِ الحلفاء) والسوداءَ (قوات دول المحور) من موقع إلى آخر لقياس التقدم والتراجع الذي يحقّقه كلٌ من المعسكريْن المتنازعيْن. بَدَتْ لي الخرائطُ مثيرةً للقلق أكثرَ منها غزيرةَ المعلومات، فكنتُ أطالبه، بين وقتٍ وآخر، بأنْ يَشْرح لي مجريات الأمور، فيُعْضِله الأمرُ؛ وقد كان مشتَّتَ الذهن ومهمومًا وشاردًا. ثم غادَرْنا فجأةً إلى القدس في تلك الرحلة الليليّة الصعبة. يومَ تقرَّرَ الرحيلُ، جاء إلى البيت لتناول الغداء وطلب من أمّي ببساطةٍ أن توضِّب الأمتعة وتتهيَّأ للسفر، وانطلقنا عند الخامسة من بعد الظهر، تتهادى بنا السيارةُ في شوارع القاهرة شبهِ الخاوية. كان زمنًا موحشًا ومحيِّرًا، نَهْجر فيه عالمي الأليفَ دون سبب، متّجهين نحو الغسق الكئيب.

ظلّت صُوَر أبي في انغلاقه وصمته، وهي صُوَرٌ توالت خلال ذلك الصيف الطويل والمربكِ والغريبِ في رام الله، تراودني مدى سنوات: جالسًا على الشرفة، محدِّقًا إلى البعيد، يدخّن بلا انقطاع. «بلا ضجة، يا ادوارد»، تَنْهَرني أمي، «ألا ترى أنّ أباك يحاول أخذَ قسطٍ من الراحة؟». ثم نذهب في نزهةٍ في البلدة الوَريقة الأنيسة ذاتِ الأكثريّة المسيحيّة، شمالَ القدس، وأنا متشبِّثٌ بتلابيبها بعصبيةٍ بالغة. لم يَرُقْني منزلُ رام الله، مع أنّه شكّلَ الإطارَ المثاليَّ لذهول أبي وكآبته في محنته الغامضة. وكان هناك درجٌ خارجيٌّ شديدُ الانحدار، يَصْعد مواربًا من حديقةٍ يَفْصل بين أرجائها ممرٌّ حجريٌّ على جانبيْه أثلامٌ من التراب البُنّي لا يَنْبت فيها غيرُ بعضِ العلّيق، وثمة شجرتا سفرجلٍ هزيلتان تَحْرسان البيتَ بمحاذاة شرفة الطبقة الأولى حيث يقضي أبي جلَّ وقته. أما الطبقة الأرضيّة فمقفلة وخالية. ولما كنتُ قد مُنعتُ من الدُّوْس على الأثلام، فإنّه لم يبقَ لي من ملعبٍ غيرُ الممرّ الحجريّ الضيّق بين البوّابة والدَّرَج.

لم أَفقهْ ما الخطب، لكنّ رام اللّه كانت المكانَ الأوّلَ الذي سمعتُ فيه عبارةَ «انهيار عصبيّ» مصحوبةً بضرورة الحرص على «راحة بال» أبي، وهي عبارةٌ اقتَبَسَها من كتاب بالعنوان نفسه كان موضوعَ أحاديث عديدةٍ له مع أصدقائه. حَرَمَتْني صيفيّةُ رام الله، بكسلها المضني، مما أحتاج إليه بداهةً من تمحيصٍ وتفسيرٍ، أنا الطفلَ اللامعَ ذا السنوات الستّ والنصف. هل كان أبي يخشى شيئًا

ما ـ أول سؤال وددتُ طرحه ـ: لماذا يَجْلس هنا تلك الفتراتِ المطوّلةَ ولا يتفوّه بكلمة؟ وجوابًا على سؤالي، كانوا يَصْرفونني إلى نشاطٍ مفيدٍ، أو يَفْرضون عليّ عقوبةً ما، أو يرمونني بإشاراتٍ ملغزةٍ وناقصةٍ لا تَشْفي الغليل. سمعتُهم يُعْربون عن قلقهم المتزايد من الارتفاع المباغت في ضغط دمه. وقيل أيضًا إنّه أرسل ابنَيْ عمي أسعد، آبي (إبراهيم) وشارلي، إلى أَسْمَرا، فانشغل بالُه ـ حتى المرض ـ من أن يتعرّضا للقتل هناك. وقيل أيضًا إنّ رجل أعمالٍ قاهريًا مشبوهًا حاول عَبَثًا إغراءَ أبي بصفقةٍ تجاريةٍ من صفقات الانتفاع من الحرب (وعرفتُ أنّ أبي رَفَضَ العرض). ولكنْ، هل تشكّل تلك الأحداثُ سببًا كافيًا لانهيارٍ عصبيّ؟

مهما يكن السبب، فما إنْ عدتُ إلى القاهرة، حتى بدأ مسارُ تحوّلٍ في حياتي، بل شجّعتني أمي خصوصًا على الاعتقاد أنّ المرحلة الأَوْفر سعادةً والأقلّ إشكالاً من حياتنا قد ولّتْ إلى غير رجعة. فانتكستُ أكثرَ فأكثرَ في حالة عمومية من التسيُّب. «أنت شاطر جدًا»، كانت تقول المرّةَ تلو الأخرى، «لكنّكَ بلا شخصيّة وكسول وشيطان»، الخ. وقد حَدَّثَتْني أيضًا عن إدواردٍ سابقٍ، يسمُّونه أحيانًا «إدواردو بيانكو»، وَرَوَتْ لي مآثره ومواهبَه وإنجازاتِه بما هي إرهاصاتُ وَعْدٍ مبكّرٍ لفترةِ ما قبلَ ١٩٤٢ ما لبثتُ أن خُنْتُه. ومنها علمتُ أنّ إدوارد ذاك حَفظَ عن ظهرِ قلبٍ ٣٨ أغنيةً وترنيمةً لتنويم الأطفال، يغنّيها أو يلقيها إلقاءً ببراعة كاملة، وهو لم يتجاوز السنةَ والنصفَ من العمر. وقصّت عليّ أيضًا أنّ ابن عمي آبي، عازفَ الـ «هارمونيكا» الماهر، دَسَّ، عن قصدٍ، نوطةً نشازًا في أدائه لأغنية «جون پيل»، فأَطْبق إدوارد قبضتَيْه وأَغْمَضَ عينيْه وزَعق انزعاجَه من النشاز ثم غنّى الجملةَ الموسيقيةَ الصحيحة... وأنّ إدوارد كان يَنْطق بجُملٍ كاملةٍ في الإنكليزية والعربية وهو لم يتجاوز خمسة عشر شهرًا، باستثناء استخدامه الهجينِ لـ «أنتَ»، بدلاً من «أنا»... وأنّ مَقْدرته على قراءة البسيط من النثر كانت نامية جدًا وهو بعدُ في الثانية والنصف أو الثالثة... وأنّه أجاد الحسابَ والموسيقى في الثالثة أو الرابعة بمثلِ ما يجيدها ابنُ ثماني سنوات أو تسع. وقالت إنّ هذا الإدوارد السابق، المتقدِّم على عمره، كان وسيمًا، لعوبًا، سريعَ الخاطر، حاذقًا، يستمتع باللعب الصاخب مع أبيه السعيد. لم أستذكر أيًا من كل ذلك بنفسي، لكنّ نسْجَ أمي الدائمَ على هذا المنوال، معزّزًا ببضعة «ألبومات» من الصور الفوتوغرافية

لتلك السنوات ـ بما فيها صورٌ عن صيفٍ رومانسيّ في الإسكندريّة ـ أكدّتْ مزاعمها.

غير أنّ كُلّ تلك الذكريات، خلا الأَسفَ على ما مضى، تبدَّدتْ بعد أيام ١٩٤٢ الكئيبة. فقد عُدْنا إلى القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر بعد «معركة العَلَمَيْن»، وَعُدْتُ أنا إلى «إعداديّة الجزيرة» صبيًا كثيرَ المشاكل يَبْتَكرون له علاجًا مزعِجًا تلوَ الآخر. فإذا أنا، من سنّ التاسعة إلى حين عيد ميلادي الخامس عشر، منشغلٌ أبدًا بممارسة علاجاتٍ شفائيّةٍ شخصيّةٍ، بعد انتهاء الدروس وخلال عطل نهايات الأسبوع: من عزفٍ على البيانو، إلى القيام بالتمارين الرياضيّة، فالذهابِ إلى مدرسة الأحد، وركوبِ الخيل، والملاكمةِ... أضفْ إليها معاناةَ عُطَلِ الصيف في ضهور الشوير، المخدِّرةِ للعقل والمُحْكَمَةِ البرْمَجة. فبعد العام ١٩٤٣، أَخَذْنا نقضي كلَّ صيف في تلك القرية المُمِلّةِ من قرى جبل لبنان التي تعلَّقَ بها أبي أكثرَ من أيّ مكانٍ آخر على وجه الأرض. وكان والداي محورَ نظامٍ إداريٍّ متكاملٍ يتحكّم بوقتي دقيقةً بدقيقة ويحدِّد، بناءً عليه، موقفُ أبي حتى نهاية أيامه؛ وهو نظامٌ لم يَتْرك غيرَ فسحاتِ انفراجٍ نادرةٍ أَسْتمتع بها وتَمْنحني الإحساسَ بأني منفلتٌ من قبضته.

مَزَجَ أبي في شخصه القسوةَ والصمتَ المُطْبق والعاطفةَ العجيبة، يَرْبط بينها جميعِها كَرَمٌ مفاجئٌ لم يُشْفِ غليلي، لسببٍ ما، وظللتُ، إلى فترةٍ جدّ متأخّرة، عاجزًا عن صرفِ النظر عنها (كأنّ خطرها زال عنّي) أو عن فَهْمِها فهمًا كليًا. ولكنْ، لمّا كانت قاعدةُ تلك البنيةِ الانضباطيّةِ المصمَّمةِ لتسيير حياتي قد انبثقتْ من مصائب العام ١٩٤٢، فإنّ خطر عدم الالتزام بوصفاتها المختلفة أَوْرثني فزعًا من الانتكاس إلى حالة رهيبة من الفوضى الكاملة والضياع، وهو فزعٌ لا يزال يلازمني.

وسُرعانَ ما تجسَّدتْ تلك الحالةُ الخَطِرَةُ في إغراءات القاهرة، الجسديةِ منها والمعنوية، تناديني من خلف أسوار ذلك الروتين الحياتيّ المبرمَج بعناية والمُدارِ بصرامةٍ شديدة. فلم أخرجْ مرةً مع فتاةٍ، بل لم يُسمَحْ لي بأن أزورَ أماكنَ اللهو العامة أو المطاعم، ناهيك عن ارتيادها. وكان والداي يتناوبان على تحذيري دائمًا من الاقتراب منَ الناس في الباص أو الحافلة، ومِنْ تناول المشروبات أو الأطعمة من محلٍ أو بسطة، والأهم أنّهما صوَّرا لي بيتَنا والعائلةَ على أنّهما الملجأُ الوحيدُ في زريبة الرذائلِ المحيطةِ بنا تلك.

أنْ أُنقِذ نفسي مما كان يحدث آنذاك: تلك هي المفارقةُ التي عشتُها. وتصوّرتُ أن الأسوأ منها هو الانهيارُ الكامل، ربّما كذاكَ الذي عاناه أبي في صيف العام ١٩٤٢. والواقع أنّ أبي انكبّ بعدَها جدّيًا على إعادة بناء تجارته وتنظيم أوقات لَهْوه، مركّزًا تركيزًا مستجدًا على هذا الأخير مع تنامي ثروته المتسارع. وبحلول العام ١٩٥١، أقْلع عن الذهاب إلى مكتبه بعد الغداء، وبدأ يلعب «البريدج»، وقد تحوّلَ هذا إلى هَوَسه الأكبر، سبعةَ أيامٍ في الأسبوع، كلَّ أسبوعٍ من أسابيع السنة، إلاّ حين يكون على سفر. كان يأتي إلى البيت لتناول الغَدَاء في الواحدة والنصف، ثم يستسلم لقيلولةٍ تستمرّ حتى الرابعة، يَأْخذه بَعْدَها السائقُ إلى النادي ليَلعب الورقَ حتى السابعة والنصف أو الثامنة. وقد يعود إلى لعب الورق بعد العشاء.

بعد عطلتنا الصيفيّة في رام الله، ظهرتْ مؤلّفاتٌ عديدةٌ لـ «إيلي كولبرتون» في أماكن مختلفة من شقتنا القاهريّة، ومعها أدواتُ لعب «البريدج» للاّعبين المنفردين[1]. كما ظَهَرَ غطاءٌ جديدٌ من اللبّاد الأخضر لطاولتَيْ لعب الورق القابلتيْن للطيّ اللتيْن كانتا عندنا. وكان أبي في أماسيّ الثلاثاء يَقْصد منزلَ فيليب سُوقي قربَ الأهرام للعب «البريدج». وعندما بَدَأْنا نقضي عُطلَ الصيف في ضهور الشوير، أخذ يلعب «البريدج» صباحًا في أحد المقاهي، ويُثنّي بعد الظهر، وأخيرًا، يترأس، مساءً، طاولةَ اللعب في منزلنا أو عند أحدِ الأصدقاء. وقد ازدادتِ الهوةُ اتساعًا بيني وبينه بعد أن اكتشفتُ، واكتشفَ هو مع الأسف، أني مُفْتَقِر إلى أية موهبةٍ في لعبة «البريدج». كان ذا طاقةٍ خارقةٍ على الألعاب التي تمارَس داخل البيوت، في حين لم أكن أُجيد أيًا منها. حاولَ أن يعلّمني لعب «الطاولة»، وكانت النتائجُ كارثيّةً. فبعد أن كان يراقبني وأنا أَعُدّ الخاناتِ بعناءٍ، يَنْتزع حجرَ «الطاولة» من تحت إصبعي بنزقٍ وينقله بسرعة إلى الخانة الصحيحة قائلاً: «لماذا تَعُدّ الخاناتِ هكذا» ـ وهنا يأخذ بتقليدِ طريقةِ عَدّي للخانات، راسمًا تكشيرةً بلهاءَ على وجهه، فكأنّني متخلّف عقليًا يسعى يائسًا للانتقال من الخانةِ الثالثةِ إلى الخانة الرابعة ـ «عندما تكون هذه هي الطريقةَ الصحيحةَ للعدّ»؟. ثم يدعوني إلى اللّعِبِ مجددًا، إلا أنّه ينتهي إلى لعب

---

١ ـ إيلي كولبرتون هو أحدُ كبارِ معلّمي «البريدج» في تلك الفترة. والمعلوم أنّ لعبة «البريدج» مباراة بين زوجَيْن من اللاعبين. (م)

المباراة كلِّها بمفرده قائلاً: «إنَّها أسرعُ هكذا!» ـ وأنا قابع قبالته لا أحرّك ساكنًا: فقد لعب دوري ودوره معًا!

ما من لعبةِ ورقٍ لم يَعْرفها، أو طقسٍ من طقوس ملاهي الميْسر لم يسعَ لتعليمي إياه، ولكنْ بلا جدوى. ورغم أنَّه شَرَحَ لي أكثر من ثلاثين مرةً كيفيةَ لعب البوكر والباكاراه، فإنِّي لم أنجحْ في لعب هذا ولا ذاك.

خلال صيف ١٩٥٣، أيْ بعد عامٍ على تعلُّمي لعبَ الـ «پُول» في المدرسة الأميركية الداخليّة، ظننتُني قادرًا على استدراجه بخبثٍ للعبِ مباراةِ «الكرة رقم ٨» في مقهى صغيرٍ في ضهور الشوير، قبالةَ «مقهى السيرك»[1]. نَسَبْتُ تردُّدَه إلى تخوّفه من الهزيمة، لكنّ ذلك كان مجردَ حيلة. فقد أدركتُ لاحقًا أنَّه اصْطَنع التردُّدَ، وربما بعضَ الإعجابَ بي، لكي يشجِّعني على المضيّ في الأمر حتى النهاية. «هكذا نَلْعب البلياردَ في الولايات المتحدّة»، صِحْتُ صيحتي المظفَّرة شأنَ محترفٍ يتحدّث إلى مبتدئ، «أمّا إذا ضربتَ الكرةَ جانبيًا، فتلك هي الطريقةُ الإنكليزيّة». أَسْقطتُ كرتيْن في الجيْب وأخطأتُ الثالثة. فتناوَلَ أبي عصا البلياردِ، وقد تحوَّل فجأةً من هاوٍ متواضعٍ ومُحابٍ إلى لاعب محترفٍ مرهوبِ الجانب. لم تكن مباراتُنا تلك بالمباراة على الإطلاق، حتى عندما انتقلنا إلى طاولة البلياردِ ذي الكرات الثلاث حيث ظننتُ أني سأكون أوفَرَ حظًا. فقد رماني في حالة من الارتباكِ الكليّ والعجزِ دفعاني إلى التأتأة، فأخذتُ أُلقي باللائمة على العصا حينًا وعلى النادل الساخر حينًا آخر وعلى قلّة التمارين أحيانًا. «إذًا، يسمونها الطريقةَ الإنكليزيّةَ!»، قال في طريقِ العودة إلى البيت، بلهجةٍ لاذعةٍ صادرةٍ عن لاعبٍ يسيطر سيطرةً مُحْكمةً على كل ضربةٍ ولفّة.

لقد أَعْفته الألعابُ من هَذَرِ الكلام، ومن بَذْلِ ما يتعدّى الحدُّ الأدنى من المشاعر. وربما لهذيْن السببيْن أدمنَ لعبَ الورق وقد بات عنده مبرِّرَ وجود. بل كان وسيلةً لتحرّره من الهواجس الرازحة عليه في قطاعٍ من الحياة رُسِمَتْ فيه القواعدُ

---

١ ـ «البول»: لعبة بليارد ذي ستة جيوب، و١٥ كرةً مرقّمةً، وكرة واحدة غير مرقّمة. يستخدم اللاعبُ عصاه لضرب سائر الكرات، بواسطة الكرة غير المرقّمة، مستهدِفاً إنزالَها في الجيوب. في لعبة الـ «كرة رقم ٨»، كرةٌ سوداء تحمل الرقم ٨ يجب أن تكون آخرَ كرةٍ يُسقطها اللاعبُ في الجيْب. (م)

سَلَفًا ويسيطر عليه نظامٌ روتينيٌّ، ومَهْربًا من مواجهة البشر أو الأعمال أو المشكلات.

كان «البريدج» وألعابُ الورق عمومًا جزءًا من استعادته لعافيته بعد أزمة العام ١٩٤٢. «إنَّها وسيلةٌ للاسترخاء»، على نحوِ ما قال مرةً أو مرتين، واصفًا تسليةً تَشْغله ما لا يقلّ عن اثنتيْ عشرة ساعةً يوميًا خلال عطل الصيف، وأربعِ ساعاتٍ يوميًا خلال أيام العمل. ولستُ أَذْكر فراغًا باعثًا على اليأس كتلك الأوقاتِ التي أُضطرُّ فيها، وأنا بَعْدُ صبيٌّ، إلى مراقبته وهو يلعب الورق. حين أكون جالسًا إلى جانبه، كانت كلُّ ورقةٍ يَنْقفها على الطاولة، وكلُّ رهان، وكلُّ تشريحٍ مقتضبٍ يمارسه للدورة المنقضية، تُكرِّس خضوعي العقليَّ والمعنويَّ له وتُفاقم من إحساسي بسطوته عليّ. كان لا يوجِّه إليَّ كلمةً واحدة، ولا يَلفت نظري إلى ما قد يكون مثيرًا في الأوراق التي بيده؛ لا شيء غيرُ الرتابة اللامتناهية لمباراة لعب الورق، ورغبتِهِ الواضحةِ في أن أَحْضرها لأسبابٍ لم أتبيَّنْها بعدُ.

كان الوقوفُ أو الجلوسُ قربه خلال السنوات الأولى بعد حادثة العام ١٩٤٢ بمثابة عقوبةٍ لي على إساءة التصرُّف، وفكرةٍ بدائيَّة تفتَّق عنها ذهنُ والديَّ لإبعادي عن المشاكل عندما لا أكون في المدرسة أَوْ (وهو أمر أسوأ) خلال عطل الصيف في لبنان. وكان إجباري على مشاهدته يلعب الطاولةَ أو البريدج لساعاتٍ متواليةٍ تجربةً مخدِّرةً للذهن. بل إنَّ تلك الفترات من الملل الإلزاميّ كانت مطالعَ خطةٍ أشمَلَ للحدِّ من طاقتي على الشيطنة: «وديع، أرجوك، خُذِ الصبيَّ معك»، تقول أمي يائسةً، «إنَّه يسبِّب لي مشاكلَ كثيرةً». وحين لا تكون خدماتُ وديع متوافرةً، تُرْسلني أمي في مهمّةٍ طويلةٍ وعبثيةٍ، أو تأمرني: «اِخْلَعْ ثيابَك واذْهبْ فورًا إلى السرير». ومعلومٌ أنّ الكتب والموسيقى وسائرَ أنواع التسلية ممنوعةٌ في السرير، ومثلُها الطعامُ والشراب. وممنوعٌ أيضًا إقفالُ باب غرفة نومي، وهو ما يَسْمح لأمي باقتحامها دون معوّقات ودون سابقِ إنذارٍ لتتأكد من أنّي متقيِّد بالتعليمات. أما الفائدة الوحيدة من تلك العقوبات القاتلة فهي أنّي اكتشفتُ ثلاثة أحجار شطرنج في مؤخرة أحد الأدراج، فأخذتُ أتمرّن على رميها والتقاطها، حتى تعلّمتُ بمفردي فنَّ التلاعب البهلوانيّ بالكرات الثلاث.

ظننتُ أول الأمر أنّ ممارسات والديّ التأديبية ترتبط بالعُطَل المديدة، عندما تُغري فتراتُ الفراغ المطوّلة شخصي الفضوليَّ والمتشيطِنَ بأن يَخْرق المحرّمات. على أنها مالبثت أنِ امتدت إلى حياتي في القاهرة أيضًا. والحال أني كنت أملك مَعِينًا لا ينضب من الفضول نحو البشر والأشياء على حدٍ سواء. فتنزل بي العقوبات لقراءتي الكتبَ الممنوعة، والأدهى عندما يُلقى القبضُ عليّ مطالعًا في ألبُومات التواقيع ودفاتر الملاحظات والكرّاسات والأشرطة المصوّرة والعجالات والمدوّنات العائدة لشقيقاتي وزميلاتهن ووالديّ. وكان الحُكْم الصادرُ عليّ باستمرار هو «الفضول قتّال»، على أنّي كنتُ بذلك أسعى للانعتاق من الأقفاص المختلفة التي حُبِستُ فيها، وهو ما أورثني شعورًا دائمًا بالتذمر، إلى أن صِرتُ أجدني كريهًا إلى حد كبير. ولما كنتُ مجبرًا على أداء فروضي المدرسية وممارسةِ الألعاب الرياضيةِ ككرة القدم مثلاً – وقد سجلتُ فيها إخفاقات مدوّية – ومجبرًا على أن أكون في الآن ذاته الابنَ والشقيقَ المطيع والمتمِّمَ لواجباته الدينية، فقد بدأتُ أستمدّ لذةً سرية من ممارسةِ (أو قول) كلِّ ما من شأنه مخالفةُ القواعد او تجاوُزُ الحدود التي يَفْرضها أهلي. كنتُ دائمًا أتناوص من خلف الأبواب المشقوقة، وأطالع الكتبَ باحثًا عما أُخْفِيَ عني، وأُنقِّبُ في الأدراج والخزائن ورفوف الكتب والأظرف البريدية وقصاصات الورق علّني أجد شخصياتٍ تتلاءم خلاعتُها الآثمةُ مع شهواتي.

وسرعان ما شُغفتُ بفعل الاستكشاف الذي توفِّره القراءةُ. وقد كان نصفُ نشاط العائلة التجاريّ في فلسطين – «شركة التعليم الفلسطينية» – يتعلق ببيع الكتب، وقسمٌ صغيرٌ منه يتعلق بنشرها. على أنّ أبي أدار في مصر، بالشراكة مع ابن عمه بولس وأولاده، شركة مكرّسة كليًا للتجهيزات المكتبية والقرطاسيات، يبيعون قسمًا منها في القدس وحيفا أيضًا. وفي كل زيارة يقوم بها أحدُ أفراد عائلتنا إلى القدس، كنتُ أتلقّى هدايا من الكتب المناسِبة مستلّةً مباشرةً من على الرفوف، وهي لا تزال تحمل ملصق الأسعار وبطاقات التعريف. وقد انقسمتْ تلك الكتب المناسِبة إلى فئتين عامتين: كتب الأطفال من نمطِ ما هو صادرٌ عن أ. أ. ميلنه وإنيد بلايتون، وكتب معلومات مفيدة مثل **كتاب كولِنز لمعارف الشباب** الذي أُهدي إلي وأنا بين التاسعة والعاشرة. وقد وفّر لي ساعات طويلة من التسلية وأنا أحاول هتك أسرار تلك المسمّاة «كاليتا»، وهي «فقيرة» هندية تجترح المعجزات من حيث استعراضُ

القوة ومعاقبةُ الذات في «سيرك برترام ميلز». لم أكن قد زرت السيرك بعد – إذْ لم يظهر «سيرك تونيي» في القاهرة إلا بعد أربع سنوات – ولا كنتُ أدري كيف تكون الحياةُ في سِيركٍ أوروبيّ، باستثناء ما ورد عنه من إشارات مقتضبة في مؤلفات السيد غاليانو، الصادرة عن دار بلايتون. كان حسبي أنّ «كاليتا» غامضة الأصل وأنها – في الصور المنمنمة والمحبحبةِ السطح والمشوّشة التي ترافق النص – ترتدي ما بدا أنه ثوبٌ من قطعتين لم أشاهدْ مثيله من قبل، وهي قادرة على تطويع جسدها للقيام بحركاتٍ مذهلةٍ تفوق الخيال.

شكّل كل ذلك خرقًا أكيدًا لقواعد الأدب والحشمة الصارمة التي كنتُ أَرْزح تحتها. ثم إنّ التواءات جسدها كانت متفارقةً مع قوانين الطبيعة؛ وهذا ما زادها إثارةً. فالكتاب يصفها مستلقيةً على ظهرها تحمل كتلةً حجرية ضخمةً على بطنها العاري، ويقف خلفها رجلٌ نصف عارٍ يعتمر عمامةً ويحمل مطرقةً جبارة يهوي بها على الحجر. وإذا بصورةٍ كاملةٍ للمشهد، مع المطرقة متوقفةً في منتصف الطريق إلى بطنها، تؤكد المأثرة. وكانت «كاليتا» قادرة أيضًا على السير حافية على الزجاج المكسور، والاستلقاءِ على سرير من المسامير. على أنّ مغامرتها الكبرى كانت أن تُدْفن تحت الأرض دقائقَ عدة. وها هي صورةٌ أخرى تمثّلها مرتديةً ثوبَ السباحة، ترتسم على وجهها ابتسامةُ الارتواء الشهوانيّ، فيما هي تحمل تمساحًا ضخم الجثة ومخيفًا إلى أبعد حد.

قرأتُ وأعدتُ قراءة الصفحات الثلاث المطبوعة على ورق محبحب عن «كاليتا»، وتفحصتُ وأعدتُ تفحصَ الصورتين اللتيَن كانتا تنتزعان إعجابي كلما فتحتُ الكتاب. والمفارقة أنّ نواقص الصورتين – حجمَهما المنمنم، واستحالةَ تمييز جسد المرأة فيهما بوضوح، والبُعادَ المنفِّر بينهما وبيني– سيطرتْ عليّ، بل فتنتني لأسابيع وأسابيع. فحلمتُ بأني عرفتُ «كاليتا»، وأنها أخذتني الى مقطورتها وأَرتني مزيدًا من مآثرها المروّعة (مناعتها تجاه أشكالٍ أخرى من الألم الحادّ، وأنماطٍ مجهولة من اللذة، بل ربما استمتاعها بالألم واللذة معًا، واحتقارها الحياةَ المنزليّةَ، ومقدرتها على الغوص إلى أعماق غير مألوفة، والتهامها الحيوانات الحيّة وامتصاصها الفواكه بطريقة مستنكَرة أخلاقيًا)، وأنها كلّمتني عن تحررها من الأحاديث المجامِلة ومن مسؤوليات الحياة اليومية. ومن خلال تجاربي مع كاليتا،

نَمَتْ عندي عادةُ التطويل الذهنيّ للحكايات الموجودة في الكتب، موسِّعًا حدودَها بحيث أصير داخلها، فأدركتُ تدريجيًا أني بذلك أستطيع أن أكون مؤلِّف ملذاتي، ولاسيّما تلك التي تنأى بي أبعدَ ما يمكن عن تسلّط العائلة والمدرسة الخانقتَيْن. فأصبحتْ قابليتي لأن أتظاهر بأني أدرس أو أقرأ أو أتمرن على البيانو فيما أنا، في الوقت ذاته، أفكر في أشياء مغايرة تمامًا وحميمية جدًا، مثل «كاليتا»، من مميّزات حياتي، وتزعج أساتذتي وأهلي، ولكنها تثير فيّ الإعجابَ بالنفس.

كان ثمة مصدران للحكايات التي أمكنني الشطحُ فيها: الكتُب والأفلام. حكايات الجنّ والقصص التوراتيّ، قرأتْها لي أمي وجدتي، لكني تلقيتُ، هديةً لعيد ميلادي السابع، كتابًا عن الأساطير الإغريقية فَتَحَ أمامي عالمًا بأكمله. ولم يقتصر الأمر على الحكايات ذاتها، وإنما تعدّاها إلى العلاقات التي يمكن إقامتها بينها. «جيسون» و«الارغونوط»، «پيرسيوس» و«عقدة الغورغون»، «ميدوزا» و«هرقل» ومغامراته الاثنتا عشرة[1]: هؤلاء كانوا أصدقائي وشركائي وأنسبائي وأبناء عمومتي وأبناء خؤولتي وأساتذتي («شيرون» مثلاً[2]). عشتُ برفقتهم، وتخيّلتُ بدقةٍ متناهيةٍ قصورَهم وعرباتهم والسفنَ ذوات صفوف المجاذيف الثلاثة. وتصوّرتُهم وقد فرغوا من قتل الأسُود والمُسوخ. حَرَّرتُهم ليعيشوا في نعمةٍ وفيرة منعتقين من الأساتذة البغيضين والأهل المستبدين، فإذا «پيرسيوس» و«جيسون»، يتحادثان في رواق خيالي: «پيرسيوس» يعبّر لـ«جيسون» عن مشاعره إزاء مشاهدة «ميدوزا» على درعه، و«جيسون» يخبره عن ملذّات «كولشيس» وكلاهما يَعْجب كيف قَتَلَ هرقل الأفاعي وهو بعدُ في المهد.

أما المصدر الثاني للحكايات فكان الأفلام، ولاسيّما مغامراتُ ألف ليلة وليلة التي يمثِّل فيها بانتظام جون هول وماريا مونتيز وطورهان بيك وسابو، ومسلسلُ

---

١ ـ **الغورغون**، ثلاث شتيتات لهن أفاع بدلاً من شَعر الرأس، الناظر اليمن يتحوّل إلى حجر. **ميدُوزا** إحدى تلك الشقيقات التي صرعها **پيرسيوس**. وهذا الأخير هو ابن زَفْس ودانيا، تزوّج من اندرومادا بعد أن انقذها من الوحش البحري. **جيسون** أمير قاد بحّارة **الأرغونوط** بمساعدة ميديا، للعثور على **النَعْجة الذهبية** التي كانت معلّقة في مغارة مقدّسة يحرسها تنّين في بلاد **كولشيس** الواقعة في جبال القفقاس على البحر الأحمر. **وهرقل** هو ابن زَفْس والِكْمان المشهور بقوّته الجسديّة. (م)

٢ ـ **شيرون** هو الأوفر حكمة بين **الصانطورات**، وهي كائنات أسطورية نصفها الأعلى آدمي ونصفها الأسفل حصان. اشتهر ببراعته في الطب وكان معلّم هرقل وأخيل. (م)

«طرزان» لجوني ويسمولر. عندما يرضى عني الأهل، تشتمل متعُ يوم السبت على حضور حفلة سينما بعد الظهر، ... شرط أن تتولى أمي المتطلّبةُ اختيارَ الفيلم، طبعًا. الأفلام الفرنسية والإيطالية محظورة، بطبيعة الحال، وأما المسموحُ من أفلام هوليوود فهو ما تُفتي أمي أنه «مناسِب للأطفال». وهذا يشمل أفلامَ لوريل وهاردي، والعديدَ من أفلام آبوت وكوستيللو وبيتي غرابل وجين كلي ولوريتا يونغ، وغيرَها من الأفلام الموسيقية والكوميديات العائلية، التي يمثّل فيها كليفتون وِبّ وكلوديت كلوبير وجينيفر جونز (ذاتُ الأداء المقبول في «أغنية برناديت» والرديء جدًا في «الخارج عن القانون»)، وتخييلاتِ والت ديزني، وأفلامَ ألف ليلة وليلة التي كانت تحوز الرضى إذا مثّل فيها جون هول وسابو (وتثير العبوسَ إذا كانت من تمثيل ماريا مونتيز)، ناهيك عن أفلام الحرب وبعض أفلام رعاة البقر. وكان الجلوسُ في مقاعد السينما الوثيرة أكثر منه مشاهدة أفلام هوليوود بذاتها - التي أجدها لونًا هجينًا من قصص الخيال العلميّ لا يقابلها شيءٌ في الحياة الحقيقية - هو مصدر استمتاعي المترف بحريتي المكرّسة في أن أرى الناس من دون أن يراني أحد. لاحقًا، شغفتُ بكل عالم طرزان كما جسّده جوني ويسمولر، ولكني شغفتُ بنوعٍ خاصٍ بزوجته جين، بشهوانيتها العذرية، في فيلم «طرزان وزوجته» على الأقل، وهما يَثِبان مرحًا في عشّهما الحميم المبنيّ على أغصان الشجر، حيث تبدو أسبابُ الراحة الحِرفية فيه كأنها تقطيرٌ مبسّطٌ وصافٍ لحياتنا كعائلة متوحدة في مصر. وما إنْ تظهر كلمة «النهاية» على الشاشة، في «ابن طرزان» أو «كنز طرزان السرّي»، حتى يشطح بي الخيالُ، فأروح أروي ما تلا ذلك من أحداث للعائلة الصغيرة في عشّها على الأشجار وكيف تولوا تربية «السكان المحليين» وصادقوهم، ومَن زارهم من أقارب جين والحيَل التي علّمها طرزان للصبيّ «بوي»، وهلمّ جرًا. ومنتهى الغرابة في الأمر، أنه لم يخطر في بالي قط أنّ علاء الدين وعلي بابا وسندباد السينمائيين - الذين حاكيتُ محاكاةً كاملةً الجنُّ الذي يراودهم وأصدقاءهم من أهل بغداد إضافةً إلى السلاطين في الاستيهامات التي الجأ إليها هربًا من دروسي- لم يكونوا يجيدون العربية بل يتكلمون الإنكليزية بلكنةٍ أميركية ويتناولون أطعمة غامضة، ولعلها من صنف الـ«سويت ميتس»... أم تراها أشبه بيخنات الأرزّ وشرائح لحم الضأن؟ هذا ما لم أستطع أن أتبيّنه قط.

اختبرتُ خلال السنة الأولى من دراستي في «مدرسة الأطفال الأميركيين» في القاهرة، وأنا بعدُ في العاشرة والنصف، إحدى برهات الحبور النادرة قبل بلوغي الثامنة عشرة: كنتُ أقف عند أول محطة على السلّم الكبير، مشْرفًا على غرفة مليئة بالوجوه، أروي بمهارة فائقة حكايات «جيسون» و«پيرسيوس» مستمتعًا بتفاصيلها النيِّقة اللامتناهية - هوية «الأرغونوط» و«النعجة الذهبية» وأسباب المصيبة التي حلّت بـ«ميدوزا» وتكملة قصة «پيرسيوس» و«آندرومادا» - متنعمًا لأول مرة بأفراح الإبداع الأدبيّ والانعتاق وقد حُرِمتُهما في دروس الفرنسية والانكليزية والتاريخ وأنا الضعيف فيها جميعًا إلى أبعد حدٍّ. وكان لي من الطلاقة والتركيز في رواية تلك الحكايات والتفكّر فيها ما منحني لذّة فريدة لم أكن لأعثر عليها في أيّ مكانٍ آخر في القاهرة.

وكنتُ قد بدأت أيضًا في تذوّق الموسيقى الكلاسيكيّة بجدية كبيرة. على أنّه في تعلّمي دروسَ البيانو، وقد بدأتُها في السادسة، اختُزِلَتْ مَلَكَتَا الذاكرة والميلوديا عندي إلى التدرّب على السلالم الموسيقية وممارسة تمارين «سزيرني»[1]، وأمي حادبة عليّ أو جالسة إلى جانبي. فكانت النتيجة شعوري المتزايد أنّ ثمة ما يعوق تنمية شخصيتي الموسيقية. لم أشترِ الأسطوانات، ولم أستمتع بحفلات أوبرا أختارها بنفسي قبل بلوغي الثامنة عشرة. ولما كان موسمُ القاهرة الموسيقيّ للأوبرا والباليه محظورًا عليّ، فقد لجأتُ إلى ما تقدمه الـ«بي بي سي» والإذاعةُ الحكومية المصرية من برامج، وكانت متعتي الكبرى الاستماع إلى برنامج للإذاعة البريطانية من خمس وأربعين دقيقة يذاع بعد ظهر يوم الأحد بعنوان «ليالٍ في الأوبرا». وقد اكتشفتُ باكرًا جدًا، من خلال **الكامل في الأوبرا** لغوستاف كوبيه، أني أكره ڤيردي وپوتشيني، لكني أهوى القليل مما أعرفه عن شتراوس وڤاغنر اللذيْن لم أشاهد أعمالهما الأوبرالية إلا حين شارفتُ على نهاية المراهقة.

---

١ - كارل سزيرني (١٧٨١ - ١٨٥٨) موسيقيّ نمساويّ. (م)

الفصل الثالث

يُفترض بالأساتذة أن يكونوا إنكليزًا، أو ذلك ما كنتُ أظنه. وقد يكون التلامذة إنكليزًا هم أيضًا إنْ كانوا محظوظين؛ وإنْ لم يكونوا محظوظين، كما هو حالي، فلن يكونوا من الإنكليز. درستُ في «مدرسة الجزيرة الإعدادية» من خريف ١٩٤١ إلى حين مغادرتنا القاهرة في أيار ١٩٤٢، وعدتُ إليها مجددًا من أوائل ١٩٤٣ إلى ١٩٤٦ وبينهما فترة أو فترتا انقطاع طويلتان بعضَ الشيء في فلسطين. في تلك الأيام، لم يكن في المدرسة أيّ أستاذ مصريّ، كما لم أَعِ أيّ حضورٍ عربيٍّ مُسلم: فالتلامذة أرمن ويونانيون ويهود مصريون وأقباط، إضافة إلى عدد غير قليل من أولاد الإنكليز، بمن فيهم كثرةٌ من أبناء الأسرة التعليمية. ومن أبرز المعلِّمين اثنان: مِسِز بولين، رئيسة المدرسة، ومِسِز ولِسون، كبيرةُ المعلمات، المتعددةُ المهمات والكليةُ الحضور. والمدرسة كناية عن ڤيللا كبيرة من ڤيللات الزمالك، كانت معدّةً سابقًا للسكن الرخيّ، فحُوِّلتْ طبقتُها الرئيسية إلى قاعات عدة للدراسة، ندخلها كلُّها من بهوٍ مركزيّ يفضي إلى منصةٍ في أحد طرفيه، وإلى بوابةِ دخولٍ مهيبةٍ في الطرف الآخر. يرتفع البهو الزجاجيُّ علوَّ طابقيْن، وهو مزنّرٌ بدرابزون تحيط به مجموعةُ غرفٍ تقع مباشرةً فوق قاعات الدرس المخصصة لنا. لم أغامر بالدخول إلى تلك الغرف إلا مرةً واحدة، ولم تكن النتيجة سعيدة. فقد صدمتني الغرفُ العلوية لكونها أماكن سرية تنعقد فيها اجتماعاتٌ إنكليزية غامضة. هناك تجد المِستر بولين المرهوبَ الجانبِ، وهو رجل أحمر الوجه، وقلما تصادفه في الطبقة الأرضية.

لم يكن لي أن أعرف آنذاك أنّ الرئيسة مسز بولين، التي كانت ابنتُها في الصف الذي يعلو صفّي مباشرةً، لم تكن في مصر بصفتها مربّية وإنما بصفتها صاحبةَ امتيازٍ مدرسيّ وتَمْلك رخصةً لإدارة «مدرسة الجزيرة الإعدادية» لحساب «المجلس الثقافيّ البريطانيّ». وبعد ثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢، فقدتِ المدرسةُ تدريجيًا طابعها الأوروبيّ. وعندما انفجرتْ أزمة السويس عام ١٩٥٦ كانت قد تحولتْ إلى شيء آخر تمامًا. وهي اليوم مَدْرَسةُ تدريبٍ مهنية تعلِّم اللغات للبالغين وقد زال كل أثر لماضيها الإنكليزيّ. بعد ذلك، ظهرتْ مسز بولين وابنتها في بيروت رئيستيْ مدرسة إنكليزية أخرى، ولكنْ يبدو أنهما أصابتا نجاحًا أقل من نجاحها في القاهرة، فصُرِفتا من العمل لانعدام الكفاية وصُرِف مستر بولين بدوره لإدمانه الكحول.

كان لـ«إعدادية الجزيرة» موقعٌ مناسبٌ في شارع عزيز عثمان، شارعِنا القصير نسبيًا في الزمالك، الذي لا يتعدى مسيرةَ ثلاثة صفوف من الأبنية تحديدًا. وكان الزمن الذي يستغرقني للذهاب إليها والعودة إلى البيت منها يثير دومًا إشكالاً مع أساتذتي وأهلي، وهو إشكالٌ ارتبط في ذهني ارتباطًا لا ينفصم بكلمتين هما: «التسكُّع» و«الكذب»، وقد أدركتُ معناهما لارتباطهما باجتيازي المتعرج والمليء بالتخييل لتلك المسافة القصيرة. جزء من تلكُّئي كان بسبب تأخير وصولي إلى أيّ من طرفي الشارع. وجزؤه الآخر كان بسبب افتتاني بالبشر الذين قد ألتقيهم على الطريق، أو بلمحاتٍ من الحياة يتكشف عنها بابٌ مفتوح هنا وسيارةٌ مارّة هناك أو مشهدٌ قصير على شرفة هنالك. ولمّا كان يومي يبدأ في السابعة والنصف، فقد كانت مشاهداتي موسومةً لا محالةَ بنهاية الليل ومطلع النهار: الغَفَر المتدثِّرون بزيّهم الأسود وهم ينزعون عنهم ببطء الأغطيةَ والمعاطف الثقيلة، والسُفْرَجيّة الناعسون يحثّون إلى السوق لشراء الخبز والحليب، والسوّاقون يجهّزون السيارات العائلية. نادرًا ما شاهدتُ بالغِين من نوع آخر في تلك الساعة، خلا والدًا يواكب طفله، بين حين وآخر، إلى «إعدادية الجزيرة» مرتديًا الزيّ المكوّن من قبعة وسروال وسترة رياضية كلُّها رماديةُ اللون مع حواشٍ مزيّنةٍ بطيّات زرقاء فاهية. وأكثر ما كان يستهويني في تسكعي أنه يمكّنني من تطوير تلك المادة الشحيحة من المشاهدات الماثلة أمامي. فثمة امرأة صهباء، شاهدتُها بعد

ظهر أحد الأيام، أَقْنَعتني، بمجرد عبورها إلى جانبي، بأنها قاتلةٌ بواسطة السُمّ ومطلّقة (وكنتُ قد سمعتُ الكلمة مؤخّرًا من دون أن أفقه معناها تمامًا). والرجلان اللذان التقيتهما يمشيان الهوينى ذاتَ صباح لا شك أنهما من جهاز التحرّي. وتخيّلتُ أنّ الزوجين الواقفين على الشرفة فوقي ويتكلمان الفرنسية قد انتهيا للتوّ من تناول فطور سخيّ مع الشامبانيا. وكان تخييلي عن حيوات الآخرين وخصوصًا بيوتهم مبعثُه انحباسي الضيّقُ في حياتي وبيتي. فأنا أستطيع أن أعدّ على أصابع اليد الواحدة عددَ المرات التي دخلتُ فيها شقة زميل أو بيتَه فترةَ نشأتي. ولا أتذكر مناسبةً واحدة زارني فيها في بيتي صديقٌ من المدرسة أو النادي، ولعلّ كلمة «صديق» مبالغٌ فيها لوصف الأطفال الأرباب الذين عاشرتُهم. ومن هنا كان شغفي المبكر والأكثر استغراقًا يتجسّد في رغبةٍ لا تقاوَم لتخيّلِ ما قد يكون في داخل بيوت الآخرين: هل تشبه غرفُهم غرفَنا؟ وهل تعمل مطابخهم بالطريقة التي يعمل بها مطبخنا؟ وماذا تحتويه خزائنُهم وأمتعتُهم وكيف هي مرتّبة؟ وما إلى ذلك، وصولاً إلى أدق التفاصيل – مناضد الليل، الراديو، المصابيح، رفوف الكتب، البُسُط، إلخ... وإلى حين مغادرتي مصرَ عام ١٩٥١، ظللتُ أفترضُ أنّ ارتهاني البيتيّ هذا كان «لصالحي» وإنْ بطريقة مبهمة جدًا. ثم أدركتُ أنّ نمط الانضباط الذي فرضه أهلي عليّ كان يستوجب أن أرى إلى حياتنا وبيتنا بوصفهما القاعدةَ، بمعنى ما، لا كما كانا فعلاً: حياةً وبيتًا معزولَيْن على نحوٍ لا يصدّق، بل يكادان أن يكونا اختباريَيْن.

ومن المهارب النادرة التي سنحتْ لي أحيانًا الذهابُ إلى التزلج صباحَ السبت في حلبة تدعى الـ«ريالتو» قرب «الفرع ب»، وهو محل صغير يديره أبي في شارع فؤاد الأول مخصّصٌ أساسًا لبيع أقلام الحبر والهدايا الجلدية الثمينة. وكانت تلك منطقة مكتظة تعجّ بالمحالّ والمخازن الكبرى: هنا «شملا» و«شيكوريل» عبر الشارع، وهناك «پول فابر»، محل بيع الأحذية الكبير، محاذيًا «الفرع ب»، حيث نشتري أحذيتنا الصيفية (صنادل وأخفافًا) والشتوية (أحذيةً مزرّرة أو ذاتَ أربطةٍ، سَوْداءَ أو بُنّيةً غامقة) من موظفٍ أرمنيّ في منتصف العمر، متعبٍ ومشورَبٍ يرتدي صدرةً ويتكحّل بالكحل الأخضر. أما أحذية التنِس و«الموكاسان» فكانت «سيئة»، ومن ثم محظورةً على الدوام.

تبدأ المدرسة دائمًا في البهو الكبير بإنشاد التراتيل – وكان الترتيلان الأكثر شيوعًا بينها هما «كل الأشياء المشرقة والجميلة» و«من أعالي جبال غرينلاند المجلّدة» – ترافقنا على البيانو مِسزّ ولسن، الكليّةُ الكفايات، بإشراف مِسزّ بولين، ذاتِ العِظات اليومية المتعالية والمتخمة، أسنانُها البريطانية المسوّسة وشفتاها المزمومتان تكوِّن الكلماتِ بنفورٍ أكيد وتلقيها على مجموعة هجينة من الأطفال الشاخصين أمامها. ثم نسير في أرتال إلى قاعات الدرس لتلقّي دروس الصباح الطويلة. أُولى معلماتي في «إعدادية الجزيرة» مسزّ ويتفيلد، التي كنت أشك في أنها إنكليزية مع أنها كانت بارعةً في تمثيل ذلك الدور. ثم إني حسدتها على اسمها. ابنها روني، مثله مثل أبناء ولسن، كان مسجّلاً في الإعدادية (لمسزّ ولسن ابن، هو ديكي، وابنة، هي اليزابيث، ولمسز بولين ابنتها آن طبعًا)، وجميعهم أكبر مني سنًّا، وهذا ما عزّز من امتيازات الأنَفَة والتعالي لديهم. الدروس والكتب إنكليزية على نحو ملغز، نتعلّم فيها عن المروج الخضر والقصور وعن الملوك جون وألفرد وكانوت، بالجلال الذي يستحقونه، حسبما يذكّرنا معلمونا بلا انقطاع. لم يكن عالمهم يعني لي الشيء الكثير عدا إعجابي بإنتاجهم اللغةَ التي يستخدمونها، وقد بدأتُ أنا العربيُّ الصغير أتعلّم عنها بعضَ الأشياء. تجدهم يولون أهميةً مبالغًا فيها لمعركة هايستنغز ولشروح مستفيضة عن الأنْغِلْز والساكسون والنورمان. وإنْ انسَ لن أنسى إدوارد المعترِف، ذلك الشيخَ النبيلَ الملتحي المستلقي على ظهره ملتحِفاً عباءةً بيضاء، ربما لأنه اعترف بما لم يكن يجدر الاعترافُ به. ورغم تماثل الاسميْن، لم تنشأ صلةٌ منظورة من أيّ نوعٍ بيني وبينه.

تخللتْ دروسَ الأمجاد الإنكليزية تلك تمارينُ متكررة في الكتابة والحساب والإلقاء. ولأني كنتُ، آنذاك كما أنا الآن، منجذِبًا على نحوٍ متهوّرٍ إلى الكتابة بقلم حبرٍ يُنتج خربشة بشعة إضافةً إلى إحداثه العديدَ من اللطخات والبُقع، فقد كنتُ متّسخ الأنامل على الدوام. وكانت مسز ويتفيلد خصوصًا تنبّهني بنبرةٍ حادّةٍ إلى تجاوزاتي اللامتناهية: «اِجلسْ مستقيمًا وقمْ بواجبك على نحو صحيح»، «لا تتململ»، ثم تضيف فورًا «واصِلْ عملك». ومن ملاحظاتها الحاسمة المألوفة :«لا تتكاسل». فإلى يساري تجلس التلميذة النموذجية آرليت، وإلى اليمين ناكي ريغوبولوس المطيع النجيب. وحولي أبناء غرينفيل وكوبر وپيلليه، وهم صبيان وبنات

إنكليز مهفهفون ذوو أسماء يُحْسَدون عليها وعيونٌ زرق ولَكْنات فطنة بتّارة. لا أذْكر كيف كانت لكنتي في تلك الأيام، لكن الأكيد أنها لم تكن إنكليزية. والغريب في الأمر أنهم كانوا يعاملوننا جميعًا على اعتبار أنه يجب أن نكون - أو أننا نرغب في أن نكون - إنكليزًا، وهو برنامج لم يُثِرْ أيّ اعتراضٍ من ريك ورالف وديريك، وبدرجة أقل من المحليين من أمثال ميشلين ليندل وديڤيد عدس وناديا الجندي والداعي.

وكنا نقضي جلّ وقتنا خارج الصفوف في باحة مسوَّرة صغيرة منعزلةٍ عزلةً تامةً عن شارع فؤاد الأول، وهو الشارعُ الرئيسيّ الضاجّ الذي يصبّ فيه شارع عزيز عثمان، حيث يقع بيتُنا في الأسفل إلى اليسار. وكان شارع فؤاد الأول مرصوفًا بالمحال التجارية وبسطات الخُضَر ويعجّ بحركةِ سيرٍ قويةٍ، يخترقه خطُّ ترامواي ضاجّ وتَعْبره حافلاتُ النقل العام بين حين وآخر. ولم يكن ذلك الشارع مدينيًا صرفًا ومزدحمًا وحسب بل كان ينطلق أيضًا من أحياء القاهرة القديمة ويَعْبر إلى الزمالك من البولاق، ثم يجتاز الـ«جزيرة» الأنيقة، الهانئةَ في ثرائها، حيث نَسْكن، ليختفي أخيرًا عبر النيل في إمبابا، وهي نقيض مزدحم آخر للزمالك ذاتِ السكان الأجانب والشوارع الهادئة المرصوفة بالأشجار والمصمّمة بعناية والخالية من المحلات التجارية، من مثل شارع عزيز عثمان. في «إعدادية الجزيرة»، كان «الملعب»، كما يسمونه، يشكّل الحدَّ الفاصل بين العالم المدينيّ المحليّ وبين الضاحية الكولونيالية المصطنعة حيث نعيش وندرس ونلعب. وقبل بدء الدروس، ننتظم في طوابير في الباحة، كلٌّ بحسب صفّه، ثم نعود إلى الاصطفاف عند الاستراحات والغداء والانصراف. والدليل على عمق الانطباع الذي خلّفتْه تلك التمارينُ في نفسي أني لا أزال أذكر إلى الآن أنّ اليسار هو الجهة الأقرب إلى مبنى المدرسة، وأنّ اليمين هو جهة شارع فؤاد الأول.

نصطف في «الملعب» بانتظار أن يتم عدُّنا واستقبالُنا ثم صَرْفُنا: «صباح الخير، يا أولاد» أو «مع السلامة، يا أولاد». على أنّ ذلك الطقس المهذّب كان يخفي مشقّات الوقوف في الطابور، حيث تجري كافةُ الأمور الكريهة. ومع أننا كنا ممنوعين من التفوّه بكلمة في الطابور، اللهم إلا جوابًا عن أسئلة المعلّمة، فقد كان أشبه ببازار ومزاد علنيّ ومَحكمة يجري فيها تبادلُ أصناف العروض والوعود الأكثر تهوّرًا حيث يتنمّر الكبارُ على الصغار ويتهددونهم بأقسى العقوبات. وكان

مُعَذِّبي بنوعٍ خاصٍ هو دايڤيد عدس، وهو صبيٌّ أسمر مفتول العضلات، يَكْبرني بسنتين أو ثلاث سنوات، ويستهدف بشراسةٍ أقلامي الحبرَ ومقلمتي وسندويتشاتي والحلوياتِ التي يريدها لنفسه، ويتحدى على نحوٍ مخيفٍ كلَّ شيء يخصني وكلَّ ما أفعله. فكنزاتي لا تروق له، وجواربي أقصرُ مما يجب، وهو يكره سحنتي ويعترض على طريقتي في الحكي. وهكذا كان الرواحُ إلى المدرسة والإيابُ منها بمثابة تحدٍّ يوميّ لي كي أُفلت من قبضة دايڤيد أو من الكمائن التي يَنْصبها لي، وقد نجحتُ في المهمتين كلتيهما طوال سنوات دراستي في «إعدادية الجزيرة». على أني لم أستطع التملّص منه في الطابور، حيث يُغَضّ النظرُ عن السلوك الفظّ، على رغم حضور الناظرة، فيَهْمس عدس ويغمغم تهديداتِهِ لي وتبرُّمَهُ العامَّ مني عبر صفٍّ من الأولاد المتململين يَفْصل بيننا لحسن حظي.

استبقيتُ عبارتين من عدس في ذاكرتي: واحدةً ظللتُ أرددها ببغائيًا سنواتٍ في ما بعد – «إني أعِدُكَ» –، والثانيةَ لم أنسها لأنها كانت تثير فيّ خوفًا عظيمًا عندما يتفوّه بها: «سوف أهشّم وجهك بعد المدرسة». وكان يَلْفظ العبارتين، منفردتيْن أو مجتمعتيْن، بحماسٍ صادقٍ، كي لا أقول بلهجة الوعيد، مع أنه مضى شهرٌ على الأقل على أول مرة رماني بهما قبل أن ألاحظ فراغَ العبارتين وعدمَ قابليتهما للتحقيق. والحال أنّ «المدرسة» التي هدّد عدس أن يهشّم وجهي «بعدها» قد حَمَتْني منه، على رغم مناخها الطبقيّ الناعس والقمعيّ أحيانًا. وكان لدايڤيد أخ أكبر منه هو ڤيكتور، السبّاح والغطّاس المشهور الذي يرتاد «الكلية الإرسالية الإنكليزية» في مصر الجديدة؛ وكنتُ معجبًا أشدَّ الإعجاب بإنجازاته خلال المباريات المنعقدة في أماكن مختلفة من القاهرة كانت «إعداديةُ الجزيرة» تأخذنا إليها. ولكنْ لم يَرُقْ لي شكلُه مثلما لم يهفّ قلبي لأخيه دايڤيد الذي كان يَعْرض عليّ بين الحين والآخر أن ألعب معه بـ«الكِلِل».

جرّبتُ العبارتين في البيت – جرّبتُ عبارة «إني أعِدُكِ» على شقيقاتي، وأما عبارة «سوف أهشّم وجهكَ بعد المدرسة» فقد جرّبتها أمام المرآة لأني جبنتُ من تجربتها على كائنٍ حقيقيّ. في المناوشات بيني وبين شقيقتيَّ الكبْريين، كان «الوعد» يعني محاولةَ استقراضِ شيءٍ ما منهما («أعدك بأني سوف أعيده») أو بَذْلَ مجهودٍ لإقناعهما بـ«كذبة» مستحيلة التصديق أرويها لهما («أُقْسِم لكما بأني شاهدتُ اليومَ

المرأة الصهباء المجنونة التي تَقْتل بواسطة السمّ »!) . على أن أنطي ميليا منعتني من التلفظ بتلك العبارة قدرَ ما أرغب في ذلك، قائلةً إني يجب أن أتجاوز رتابتَها والنفاقَ الأبله الذي تنطوي عليه وأن أستعيض عنها بعبارة «أنّي أؤكد لك».

عندما كنتُ في الثامنة، طردتني إحدى المعلمات من الصفّ (لم يكن هناك معلِّمون ذكور في المدرسة) بسبب مخالفةٍ ما، وهي لم تكن تلجأ إلى العقاب الجسديّ عدا بعض القرعات الخفيفة بواسطة المسطرة على سلاميات اليد. تركتني المعلمةُ خارج الباب ثم استدعت مِسَزّ بولين، التي جرّتني جرًا، وهي متجهمةُ الوجه، نحو السلّم المؤدي إلى البهو الرئيسيّ. «إمشِ، إدوارد، عليكَ أن تقابل مستر بولين في الطبقة العليا!». مشت أمامي ثم توقفتْ عند أعلى السلّم وأمسكتني من كتفي اليسرى وقادتني إلى الباب المغلق قائلةً: «انتظِرْ هنا» ثم دخلتْ. ولم تمضِ برهة حتى عادت مؤشّرةً إليّ بالدخول، ثم أَوصدت البابَ خلفي، وإذا أنا، لأول وآخر مرةٍ في حياتي، في حضرة المِستر بولين.

انتابني فزع مباغت من هذا الإنكليزيّ الضخم، الأحمرِ الوجهِ ذي الشعر الرمليّ اللون، وهو يشير إليّ بأن أتقدم نحوه. لم نتبادل كلمة، فيما رحتُ أقترب ببطء إلى حيث يقف قرب النافذة. أذْكر سترة زرقاء، وقميصًا أبيض، وحذاء من الجلد المزأبر، وخيزرانةً قصيرةً تقع في منزلة وسطى بين مهماز الخيل والعصا القصيرة. كنت متوجسًا، لكني أدركتُ، وقد بلغتُ ذروة الرعب، أنه لا يجوز أن أنهار أو أبكي. جذبني من قذالي ثم دفعني نحو الأسفل بحيث بتّ منحنيًا نصف انحناءة. ثم رفع الخيزرانة باليد الأخرى وهوى بها على مؤخرتي ثلاث مرات، فتعالى صفير الخيزرانة تشقّ الهواء أعقبتْها فرقعةٌ مكتومة حين أصابتني. كان الألم الذي شعرتُ به أقلّ من الغضب الذي سرى في أوصالي مع كل ضربة من الضربات التي سددها لي بولين وهو لا يزال ملتزمًا الصمتَ. مَنْ هو هذا الوحش البشع ليضربني على هذا النحو المهين؟ وكيف أمكنني أن أكون بلا حَيل إلى هذا الحد و«ضعيفًا» كل هذا الضعف – وقد بدأتْ هذه الكلمةُ تكتسب دلالة هامة في حياتي – بحيث تركتُه يعتدي عليّ ويفلت من العقاب؟

كانت تجربة الدقائق الخمس تلك لقائي الوحيد مع بولين. لم أعرف اسمه الأول ولا أيَّ شيء آخر عنه سوى أنه جَسَّد أول تجربة علنية لي في «القصاص»

الموضوعيّ. وعندما أبلغتْ إحدى المعلمات والديّ بالحادثة، قال لي أبي: «أترى، أترى كم أنت شيطان؟ متى تتعلم؟». ولم يبدر في نبرة صوته أو صوت أمي أيُّ اعتراض على بذاءة العقوبة ذاتها. أبي: «ندفع أموالاً طائلة لتذهب إلى أفضل المدارس، فلماذا تضيّع الفرصة على نفسك هكذا؟» فكأنه يتغاضى عن حقيقة أنه يدفع أمواله الطائلة للمستر والمسز بولين لكي يعاملاني على هذا النحو. أمي: «إدوارد، لماذا توقع نفسك في كل هذه المشاكل؟».

هكذا أمسيتُ جانحًا، أنا إدوارد مرتكبَ المخالفات التي تستحق العقاب، من خمول وتسكّع، والذي يتوقّع دائمًا أن يُقبض عليه متلبّسًا بفعل محظور يستدعي الاحتجاز بعد الدروس أو، بعد ذلك حين كبرتُ، صفعةً قويةً من المعلّم. وقد منحتني «إعدادية الجزيرة» اختباري الأول لنظام مُحكَم أنشأه البريطانيون كمهمة كولونيالية. كان الجوّ جوَّ طاعة عمياء يؤطِّرها إذعانٌ بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء. ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم، ولكنّها زوّدتني بأول اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الإنكليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلامذة. ولم تكن لي علاقات متصلة بأولاد الإنكليز خارج المدرسة، ذلك أنّ حَبل سُرّة سُرّيًا كان يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق عليّ. فأدركتُ تمام الإدراك كيف أن أسماءهم صحيحة تمامًا، وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كليًا عن ملابسي ولكنتي ومعاشراتي. ولا أذكر أني سمعتُ أيًا منهم يشير مرة إلى «الوطن»، غير أني ربطتُ فكرة «الوطن» بهم، وإذا «الوطن»، بمعناه العميق، هو ما أنا مستبعد عنه. وعلى الرغم من أني لم أكن أحبّ الإنكليز أساتذةً أو نماذجَ أخلاقيةً، فإني لم أرَ في وجودهم في طرف الشارع أمرًا غريبًا أو باعثًا على القلق. كان ذلك ببساطة سمةً غيرَ مميزة من سمات القاهرة، المدينةِ التي أحببتها على الدوام دون أن أشعر مرةً بانتمائي إليها. ولقد اكتشفتُ أنّ شقّتنا كانت مستأجرة وأنه على الرغم من أنّ بعض أولاد «إعدادية الجزيرة» ظنوا أننا مصريون فقد كان ثمة ما هو «نشاز» وفي غير مكانه في أمرنا (وفي أمري أنا خصوصًا) دون أن أدرك تمامًا ما هو.

ظل بولين ساكنًا ذاكرتي، لا ينمو ولا يتحول، مثلَ الغُول في حكايات الأطفال. وهو بلا شك شخصية من شخصيات طفولتي لا دور له فيها سوى أنه

ضربني بالسوط بتلك البساطة. بعد خمسين سنة تمامًا، وخلال زيارة للقاهرة، كنتُ أتصفح كتابًا لباحث مصريّ عن مئتيْ عام من الاهتمام الثقافيّ البريطانيّ بمصر، فقفز اسمُ بولين في وجهي من إحدى الصفحات. كانت الإشارة إليه هذه المرة بوصفه كيث بولين، العضو في فريق من كتّاب بريطانيين ثانويين سكنوا القاهرة أيامَ الحرب وعُرِفوا باسم «شعراء السمندل». و«السمندل» هو عنوانُ مجلةٍ أدبية استوحت اسمها من ملاحظة تافهة لأناطول فرانس يقول فيها: «يجب أن يكون المرء فيلسوفًا لكي يستطيع رؤية السمندل». وفي مرحلة لاحقة، أرسل لي صديقٌ قاهريّ خَدُومٌ صورةً عن عدد آذار/مارس ١٩٤٣ من المجلة، وهو العدد الذي ظهر في الأسواق في الوقت الذي كان فيه المستر بولين يَجْلدني بالسوط، أو ربما كان يَجْلد صبيًا آخر. ولما تأكدتُ من أنّ مستر بولين الذي أعرف هو نفسُه كيث بولين، الكاتبُ في **السمندل**، فقد أخذتُ أقرأ ترجمته الإنكليزية، بالشعر الحرّ، لقصيدةٍ بعنوان «ساعات الصيف» لشاعرٍ يُدعى ألبرت سامين. وهاك مطلع القصيدة:

هاتِ الكأسَ الذهبية،
البلّور بلون الحُلم،
وحبّنا سوف يتفتّح
مفرِطاً، عنيفَ الأريج ...

وتلك هي الخاتمة:

معصورٌ خمرُ الصيف المذهّب
فليلطّخِ الدراقنُ القرمزيّ المذبوحُ
بهاءَ نهدكِ الأبيض.
داكنةٌ الغاباتُ، خاويةٌ وعبثية ...
وهذا القلب الفارغ الذي لن يجد الراحة
يتوجّع بنشوة الألم.

ما أشد تكلُّف، بل حذلقةَ، هذا الشِعر، بكلامه وتركيبه المزخرفيْن («دراقنٌ قرمزيّ») ومشاعرِه المغالية وغير الواقعية بل والتافهة («يتوجّع بنشوة الألم»). وقد

أوحى إليَّ البيتُ الأول - «هاتِ الكأس الذهبية» - بأنه استعادةٌ كاريكاتورية لتجربةِ جَلْدي بالسوط على يد المستر بولين. فهل يُعقل أن يكون كيث قد باح بالكلمات التالية لزوجته حين كانت تَفْتح البابَ لإدخالي إلى الفَلَقة: «سوف يتفتّح حبُّنا، عنيفَ الأريج»؟. مهما حاولتُ، فلن أستطيع التوفيق بين الخضوع الصامت المرهوب الذي أُجبرتُ جسديًا عليه، وهو يَجْلدني، وبين ذلك الشُوَيعِر المتكلّف الذي أَدّبني في الصباح وراح يَنْظم «ساعات الصيف» المقززة تلك بعدَ الظهر؛ وهو، إلى ذلك، شخصٌ رائعٌ ولا شك، يشنّف أذنيه بمقطوعات موسيقية لـ«شاميناد»[1] ليلاً.

بعد الفَلَقَة بوقت قصير، تعرضتُ لمواجهة كولونيالية أشدَّ حدةً وسفورًا. ففي طريق العودة إلى البيت عند الغسق عَبْر أحد الحقول المترامية الأطراف لنادي الجزيرة، اعترضني إنكليزيٌّ يرتدي بذلةً بنيّةً، ويعتمر خوذةً قماشية، وتتدلى حقيبةٌ صغيرة سوداء من مقود درّاجته. كنتُ أعرف المستر پيلليه بسبب توقيعه «سعادة الأمين العام» للنادي ولأنّه والد رالف، زميلي في المدرسة. «ماذا تفعل هنا، يا ولد؟»، نهرني بصوتٍ بارد هزيل. «أنا راجع إلى البيت»، قلتُ، محاولاً التزامَ الهدوء، فيما أخذ يترجّل من على دراجته ويتقدم باتجاهي. «ألا تعلم أنه ممنوع عليك أن تكون هنا؟» سأل مؤنّبًا. فبدأتُ أُغمغِم شيئًا عن كوني عضوًا في النادي، لكنه قاطعني بلا رحمة: «لا تجاوبْ، يا ولد. غادِرِ المكانَ فقط، وغادرْه بسرعة. ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربيٌ!». وحتى لو لم يسبقْ أن فكرّتُ بنفسي بوصفي عربيًا، فقد أدركتُ مباشرةً آنذاك أنّ معنى النعت مُفْقِدٌ للأهلية حقًا. لم يَقْلق أبي كثيرًا عندما أبلغتُه ما قاله لي المستر پيلليه، واستطردتُ في مرافعتي قائلاً: «لم يقتنع أننا أعضاء [في النادي]». فقد جاء جواب أبي غير المُلْزِم: «سوف أتحدث إلى پيلليه في الأمر». ولم يُطْرَح الموضوعُ على بساط البحث ثانيةً: لقد فعل پيلليه فِعْلَته وأفْلَتَ من الحساب.

وشدَّ ما يحزّ في نفسي الآن، بعد مضيّ خمسين سنةً، أنه على الرغم من أنّ الحادثة لازمتْني مدة طويلة جدًا وكانت مؤلمةً حينها، مثلما هي الآن، فقد بدا وكأنه يوجد عقدٌ استسلاميٌ بيني وبين أبي توافَقْنا فيه على أننا ننتمي بالضرورة إلى

---

١ ـ مؤلفة موسيقية فرنسية من الدرجة الثانية. (م)

مرتبةٍ دنيا. كان هو يعرف ذلك، أما أنا فقد اكتشفته لأول مرة عندما جابهتُ پيلليه. غير أنّ أيًا منا، آنذاك، لم يجد أنّ الأمر يستحق نضالاً من أيّ نوع، ولا يزال ذلك الإدراكُ يُشْعرني بالخجل.

لم تتكشف لي تلك التفارقاتُ في المنظور والواقع إلا بعد عقودٍ من الزمن على مغادرتي «إعدادية الجزيرة». والحقيقة أنّ القليل القليل مما كان يحيط بي في المدرسة – من دروس وأساتذة وتلامذة ومناخ – قد وفّر لي أيَّ دعم أو مساندة. وأجملُ ذكرياتي عن سنوات «إعدادية الجزيرة» هي نهاية اليوم الدراسيّ عندما أجد أمي دائمًا في انتظاري لنتجاذب أطراف الحديث، فيما هي تغلّف ما تبقّى من نهاري بتفسيرٍ لكلِّ ما قد حدث. كانت تفسّر لي سلوك الأساتذة، مثلما تفسّر لي مطالعاتي، بل تفسّرني أنا نفسي لنفسي. كنتُ [بحسبها] تلميذًا شاطرًا، إذا استثنينا دروس الخطّ والرسم، سريعَ الاستيعاب ونافذَ البصيرة، ولكنني متفاوت العطاء. على أنّ أمي كانت تبدو وكأنها تسلبني إنجازاتي، بطريقةٍ لاواعية، بعد أن تمتدحها بقولها «طبعًا، أنتَ شاطر، بل فائق الذكاء، ولكنْ» – هنا توقفني فجأة – «... ولكنْ ليس هذا إنجازًا حقيقيًا من صنعك، ما دام اللهُ هو مَنْ وهبك تلك المواهب». وخلافًا لوالدي، كانت أمي تبثّ فيّ عذوبةً سائغة وشعورًا بالدعم يقوّي من عزيمتي. كنتُ أرى نفسي في عينيها كائنًا مباركًا وكاملاً ورائعًا. إطراءٌ واحد منها عن ذكائي المتفوق أو عن موهبتي الموسيقية أو عن وسامة ملامحي، يشيلني شيلاً، ويمنحني شعورًا، ولو موقتًا، بالانتماء إلى عالمٍ خيّرٍ واسع. على أني، مع الأسف، لا ألبث أن أُدرك مدى قِصَرِ هذا الشعور. فأغتمّ للتوّ متسائلاً ما إذا كان يحق لي أن أكون مستقرًا، وسرعان ما تتزعزع ثقتي مجددًا ويعاودني القلقُ والهواجس القديمة. لم أشك مرةً في أنّ أمي تحبني، وقد كانت تَجْهر بذلك، ولكنْ ما إنْ بلغتُ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، حتى اكتشفتُ كذلك أنها نقدية جذريًا تجاهي وإنْ بطريقة غامضة لا يُفصح عنها الكلام. كانت ذات طاقةٍ مذهلة على استدراجك، تُقْنعك بالتزامها الكلّي تجاهك ثم، دون سابق إنذار، تُشْعرك أنها حاكمتْكَ ووجدتْكَ مقصِّرًا. وعلى الرغم من حميمية العلاقة بيننا، فقد كانت قادرة على الدوام أن تنمّ عن تحفّظٍ غامض وعن موضوعيةٍ لا تفسير كاملاً لها مع أنها تطلق عليّ أحكامًا جائرة تحبطني وتثير غضبي في آن.

عند عودتي إلى البيت بعد الظهر، كان الخطر الذي يتهدّدني دومًا هو وصولُ إبلاغ عبر الهاتف عن أذى ارتكبتُه أو عن درس لم أُعِدَّ له يسممّان الاستراحة التي أصبو إليها بمنأى عن رقابة المدرسة. هكذا فقدتُ تدريجيًا الثقةَ بالنفس، وحلّتْ محلّها هشاشةُ شعوري بالأمان تجاه الذات والمحيط، وهو ما زاد من اتكالي، أكثرَ من أيّ وقت آخر، على رضى أمي وحبّها. كان أبي بعيدًا جدًا عنا خلال أيام الأسبوع، كأنه مستقيل من كافة المسؤوليات المنزلية، خلا شراء الفواكه والخضار بكميات هائلة، يَحْملها إلى البيت خَدَمُ تسليم البضائع، وهو ما كان يثير مَندبةَ أمي الروتينية: «إنك تُغْرقنا بالبرتقال والموز والخِيار والبندورة، يا وديع لماذا اشتريتَ خمسة كيلوات إضافية اليوم؟ أنت مجنون!». وقد يردّ عليها ببرود ثم يعود إلى دفن رأسه في جريدة المساء، إلا إذا كان قد وصل «إبلاغٌ» عني من المدرسة، أو إذا كان دفترُ علاماتي الشهريّ يَحْمل التحفظ المألوف تجاه سوء سلوكي وتسيّبي أو تسكعي أو تململي، فإذّاك كان أبي يجابهني بشراسة لبرهة رهيبة أو اثنتين، ثم ينسحب. وقد ازدادت المجابهاتُ سوءًا في ما بعد، خصوصًا عندما دخلتْ ڤكتوريا كولدج.

والحق أنّي اختبرتُ لحظات سعادة متواصلة وإنْ تكن غير متوقعة في «إعدادية الجزيرة»، أَبْرَزُها تعرّفي إلى المسرح، مطلعَ عام ١٩٤٤. كان أمرًا غريبًا أن أعود إلى المدرسة، أولَ المساء، فإذا قاعاتُ الدرس معتمة وخالية، والبهو المركزيُّ خافتُ الإنارة وقد بدأ يكتظّ بأناس يملأون الكراسي المصفوفة بذوقٍ متطلِّب. وإذا المنصة القليلة الارتفاع التي تطل منها مسز بولين لإعلاناتها الصباحية قد تحولتْ مسرحًا متكاملاً، بما فيه الستارة البيضاء المُغضّنة المنسدلة في مقدّمه، تُعْرَض عليه «مغامرات أليس في بلاد العجائب»، وهي الرواية التي أعطتني إياها أمي في ذلك الوقت تقريبًا، فوجدتُها عتيقةً بشكل متعب وعصيّةً على الفهم إجمالاً... هذا إذا استثنينا ما يزيّنها من رسوم ولاسيّما رسمٌ أثار حيرتي بطريقة مبهمة، وكان كنايةً عن فأرة تسبح عكس التيار في النهر ومنخرُها يطوف فوق سطح الماء بصعوبة. أما توصية أمي الغامضة والمخيّبة حين لم أكن أتقدّم في قراءة الكتاب – «ولكنه للأطفال، يا إدوارد!» – فلم تبدِّل رأيي فيه، مع أنّ ما أثار فضولي هو أنني توقّعتُ أن أكتشف شيئًا مختلفًا في الكتاب بعد أن جرى إخراجُه وتمثيلُه على المسرح. «هل يُشْبه السينما قليلاً؟» – أذكر أني طرحتُ هذا السؤال على أحد الصبية الأكبر سنًا وهو يدفعني إلى أحد الصفوف الأمامية.

ما أزال أستطيع أن أرى وأسمع نتفًا من الإخراج المدرسيّ لـ **أليس**، وبخاصة حفلة تناول الشاي، و«الملكةُ الحمراء» تلعب «الكروكيت» زاعقةً: «اقطعوا رؤوسهم!». ولكنني أذكر أوضحَ ما أذكر أليس وهي تَخْرج من مغامرةٍ لتدخل في مغامرةٍ وجدناها نحن باعثةً على الضحك مع أنها كانت تَبْعث فيها الذعرَ والضياع. لم أستوعب مجريات الأمور كلها سوى أنها حَوّلت الممثلين تحويلاً كليًا وأضفتْ عليهم هالةً من الجاذبية والغرابة الأكيدتيْن، وقد كانوا، خلال النهار، أولادًا مثلي من تلامذة «الإعدادية». ولم يكن هذا الحكْمُ ينطبق على أحدٍ قَدْرَ انطباقه على ميشلين ليندل، وهي الفتاة التي مثّلتْ دور أليس. أما الآخرون – «صانع القبّعات المجنون» و«أرنب المستنقع البرّي»، و«مَلِكَةُ الكُبَّة [القلوب]» – فكانوا تلامذةً أكبر سنًا ولذا لم يكن لي تعاملٌ كبيرٌ معهم: كوليت أَمييل، وهي فتاة ضخمة، نضجتْ قبل الأوان كأنها خُلقتْ لتمثِّل دورَ الملكة، وهي شقيقة جان پيار أَمييل، زميل دايڤيد عدس وجاره، أَعْرفها بالواسطة دون أن يكون بيننا كبيرُ ألفة. أما الباقون من «الأولاد الكبار»، فتيانًا وفتيات، فقد كنتُ ألمحهم فقط في أرجاء المدرسة. وخلافًا لهم، لم تكن ميشلين تكبرني بأكثر من سنة واحدة، وقد جلستْ مرةً أو مرتين على مسافة صفٍّ مقاعد واحدٍ مني في درس اللغة الفرنسية عندما جرى دمجُ الصفوف المختلفة لأسباب مجهولة. لها شامة إلى يسار فمها، وهي في مثل طولي، وذاتُ صوتٍ هو أجمل ما سمعتُ من الأصوات من حيث النقاء، وتتحدث بإنكليزية صحيحة وفرنسية قاهرية.

في دور أليس، ارتدتْ ميشلين ثوبًا أبيض وجواربَ بيضاءَ طويلة وحذاءَ الباليه الأبيض. وكان من المفترض أن توحي بالعفّة، ولكنها لم تبدُ كذلك إطلاقًا. ذلك أنّ رسالتها الإغرائية الضمنية كانت تتفجّر من خلل ثوبها الضيق المحتشم ببراعة فائقة وهي تخاطب مباشرةً صبيًا في التاسعة فتجذبه جذبًا، بل تَخْلبه. لم أشعرْ تجاهها بانجذاب جنسيّ محدّد لأني ببساطة لم أكن أفهم ما هو الجنس، لكنّ النظر إلى ميشلين ولّد عندي إحساسًا أكيدًا بالهياج والإثارة مبعثُهما تحوُّلُها الكليّ. والأكثر إثارةً من ذلك كله هو انتقالها، خلال الأيام الثلاثة من العروض المسرحية، من زميلةٍ لنا عاديةٍ وباهتةٍ ورتيبةٍ، إلى كائن تحيط به هالةٌ مؤكّدةٌ من الغواية والسموّ. خلال النهار، كنتُ أراقب ميشلين تعيش حياتها العادية وأَعْجب كيف أنها

تتكلم مثلَنا وتتحمل نقدَ المعلمة وتعاني الصعوبات في دروسها، دون أن يراعي أحدٌ نجاحَها كممثلة. وإذا هي في الليل الصبيّةُ المميّزةُ الموهوبةُ المتوهجةُ قوةً ومهارةً. شاهدتُ جميع عروض المسرحية، رغم أنّ أهلي كانوا يعاندونني في كل مرة، ثم يستسلمون على اعتبار أنّ ذلك «جزء من تربية الولد»، حسبما شخّص أبي الأمرَ. ثم كان يحلو لي الوقوف صامتًا، دون أن يَشْعر بي أحد، خارج بوّابة المدرسة لأشاهدها تغادر، عيناها تبرقان بإثارةِ مَن استأثر بالأمسية بمفرده، وثوبُها الأبيض نصفُ متوارٍ تحت المعطف الأسود الذي يلفّه والدها على كتفيها. كنت أحسّ بشيء من الذنب لأني «أتلصلص»، ولكنْ ما لبثتْ أن تغلبتْ عليه رعشةُ التخفي ورؤية ميشلين تَخْرج من حياةٍ لتدخل في حياة أخرى.

لم يكن لي أنْ أختبر انتقالاً كمثل هذا الانتقال. كان ثمة بالتأكيد خللٌ ما في حياتي ابتُكرتْ له علاجاتٌ منتظمةٌ تقع كلُّها خارجْ المدرسة، مع أنّ العديد منها مجردُ امتداد لها. عام ١٩٤٦، في سنتي الأخيرة في «إعدادية الجزيرة»، أودعوني بعد ظهر يومين من كل أسبوع منزلَ آل غرينوود، عبر خط سكة الترامواي، لتمارين رياضية إضافية. وكسائر الأولاد الإنكليز في المدرسة الذين لم يكن آباؤهم معلّمين، كان جيريمي غرينوود ابنًا لموظف كبير في إحدى الشركات، تحيط بفيللته في الزمالك، التي لم أدخلها قط، حديقةٌ كبيرةٌ وسورٌ عالٍ. وكان مدرّب مصريّ نحيل، ويرتدي الزيّ الأبيض المهفهف للاعبي الكريكيت، يقود حفنةً من الأولاد لساعة من التمارين السويدية على المرج، يليها الركضُ وتقاذُفُ الكرات واحدنا للآخر. لم أتعلم أية مهارات في الدروس عند آل غرينوود، ولكنني بصفتي الولدَ الوحيدَ غيرَ الإنكليزيّ تعلمتُ شيئًا عن «اللعب حسب الأصول» و«الروح الرياضية» [«الرجولة الرياضية» بالإنكليزية]، وهي كلمةٌ أذكر جيدًا أنّ مدرِّبنا كان يلفظها مشدِّدًا على «رجولة» وهو يلثغ بحرف الراء. وأدركتُ أنّ العبارتين كلتيهما تتعلقان بالمظهر: فـ«اللعب حسب الأصول» يعني أنْ تعترض بصوتٍ مرتفع لدى أحد البالغين بأنّ ما فعله خصمُك لم يكن «حسب الأصول»، و«الروح الرياضية» تعني عدم الإفصاح عن مشاعر الغضب والحقد الحقيقية [التي تَكنّها لخصمك]. ولأني الولد غير الإنكليزيّ الوحيد في حصص بعد الظهر عند آل غرينوود فقد امتلكني شعورٌ عميقٌ بالحرج والهجران.

بعد بضعة أسابيع تعيسة وعديمة الجدوى من التمارين، نُقِلتُ إلى فرقة جراميز كشفية، كانت بقاياها المرّعة بالأوحال - إذْ لم تلتئم الفرقةُ مرةً بكامل أعضائها - تجتمع بقائديها خلف سقيفةٍ في أراضي «نادي الجزيرة». كنا نجلس القرفصاء كثيرًا ونزعق أكثر في وجه الريح «آكي-اي-لا، سوف نبذل جهدنا». وكنتُ فخورًا تحديدًا بطقس الولاء هذا لأنه وضعني علنًا، ولأول مرة، في الصفوف الأمامية مع الأولاد الإنكليز ومع دايڤيد عدس الكريه الذي اكتسبتُ مناعةً ضد تهديداته التي كان يوشوش بها في طوابير الجراميز أيضًا. كنا نجتمع بعد ظهر كل أربعاء وسَبت، وأنا أزهو بالقميص والشُورت الخاكيين، والفولار الأحمر ذي العقدة الجلدية البنّية، والجواربِ الخضراء الأنيقة، ورباطِ الجوارب الأحمرِ. ولَم يَرُق الأمر لأمي إذ رأت فيه عمليةَ عسكرةٍ لشخصيتي؛ ولما كانت قد شاركتني القراءة عن «موغلي» و«كاآ» و«آكيلا» بل عن «ريكي-تيكي- تافي»، فإنها لم تكن راضيةً عما يَفْرضه الإنكليزُ من تراتب وسلطة على ولدها، وكانت تكاد لا تكترث بزيّي. أما شقيقتاي روزميري وجين، ولهما من العمر سبعُ سنوات وأربعُ سنواتٍ على التوالي، فقد روَّعتْهما لحظاتٌ من الفزع خلال هتافاتي والصيحات التحميسية.

لم يقل أبي شيئًا يُذْكر عن هذا الموضوع، إلى أنْ جاء اليومُ الذي سمعني فيه أتدرب على القَسَم، وتحديدًا المقطع المتعلق بالله والملك. «لماذا تقول ذلك؟»، سألني وكأني أنا مؤلِّفُ الكلمات. «أنت أميركيّ، ونحنُ ليس لدينا مَلِكٌ، بل رئيسُ جمهورية. أنت مخلِصٌ للرئيس. لله والرئيس.» صُدِمتُ للحظة (فلم تكن لي فكرةٌ عمّن يكون ذلك الرئيس ولا عن الدور الذي يلعبه في حياتي. أما الملك فكان بالنتيجة آخرَ من درستُ عنهم ضمن سلالة طويلة، من إدوارد المعترِف إلى الپلاتانيني وآل ستيوارت ومَنْ أَعْقبهم) فنأنأتُ ببعض كلمات الاحتجاج الخفيفة: «"الله والرئيس" لا تصلح»، على نحو ما بادرتُ بالقول. ثم رحتُ أنوح شاكيًا: «لا أستطيع أن أقول ذلك، دادي، لا أستطيع». فارتبك لرفضي المثير للشفقة أولَ الأمر، وهو لم يكن يتصوّر ما الذي يعنيه لولدٍ ابنِ تسع سنوات أن يتحدى سلطاتَ جراميز الكشافة في نقطةٍ دقيقةٍ من نقاط التعبير عن الولاء التام. فالتفتَ إلى أمّي وقد كانت على مقربة منا، كما هو الحال دومًا، وقال لها بالعربية «هيلدا، تعالي، شوفي شو بو إبنك».

لأول مرة استوعبتُ معنى تقصيري عن توقعاته عني. ثم كانت حادثة ثانية، ارتبطتْ هي أيضًا بالجراميز. ففي أصيلِ يومِ سبتٍ رائع، أُخِذتْ مجموعةٌ من الجراميز إلى ملعب كرة القدم القريب الواقع على الطرف الآخر، الأكثرِ انكشافًا، من سقيفة نادي الجزيرة. وكانوا قد أعلنوا عن مباراتنا ضد جراميز نادي هليوپوليس قبل ذلك بأسبوع. وبسذاجةٍ، دعوتُ أبي – وكان لاعبَ خط هجوم عظيمًا منذ ثلاثين سنة في القدس – لحضور المباراة ومشاهدتي أواصل التقليد العائليّ. وكان ابنُ عمي ألبرت، عضوُ فريق الدرجة الأولى في مدرسة سان جورج، يُشْبه أبي شَبَهًا كبيرًا من حيث المظهرُ والاهتمامُ بالألعاب الرياضية، رشيقًا وسريع الجري، مثلما كان عمّه وديع. وكنت أتمنى أن أكون مثل ابن عمي. ومهما يكن من أمر، فقد ماهيتُ بين ابن عمي وأبي عندما كان في عمره، وافترضتُ، بتشجيعٍ ليس بالقليل من ابن عمي اللامبالي، أنّ أبي لاعبٌ عظيمٌ سوف يقدّر لعبي. «أرجوك أن تأتي لتشاهدني ألعب»، قلتُ. وهو بدوره، لم يفاجئني سلباً، فأتى.

أغفلتُ التزوّد بحذاء كرة القدم، وأغفل الأمرَ مثلي رئيسُ فريق الجراميز، فإذا أنا اللاعبُ الوحيد في الملعب يركض في حذاء بُنيّ فخم من محلات پول فابر. عُيّنتُ في أحد مواقع نصف المؤخرة، فوجدتُني فجأةً في ضياعٍ كامل حول ما يترتّب عليّ أن أفعله. وكانت مفاجأتي الكبرى عندما أدركتُ، كأنما لِلمرة الاولى، أني لم ألعب ضمن فريق كرة قدم من قبلُ، وأنّ أبي، الواقف ملهوجًا على مسافة خمسين قدمًا تقريبًا مني، يشاهد ابنًا ليس عديم الكفاءة وحسب بل هو أيضًا أخرقُ بطريقة مُهينة، ويَلْعب في موقعٍ لا شأن له به. بدت قدماي ضخمتين وثقيلتين جدًا في آن. رَفَستُ في اتجاه أولِ كرةٍ توجهتْ صوبي فأخطأتُها كليًا. باختصار، كانت تلك بدايةً رائعة للعبٍ يفتقر إلى ميزةٍ على الإطلاق. «سعيد» (لَفَظَها «سايد»)، نَبَر أحدُ المعلّمين، «تحرّكْ أكثر. لا يجوز أن تبقى واقفًا هكذا لا تأتي حراكًا!» ورأيتُه لاحقًا يرمقني بنظرةٍ لائمة لأني أكلتُ ثلاث حصص برتقال أو أربعًا خلال الاستراحة بدلاً من واحدة أو اثنتين. وكنتُ في الشوط الثاني، بمثل ما كنته في الأول، يشلّني الجبْنُ والتردد. وخسرنا.

بعد القدّاس، في اليوم التالي، اعترضني أبي في الممر المؤدي إلى غرفة الطعام وكنا على أهبة تناول الغداء. وكان ذلك من المرات النادرة التي يشاركنا فيها

أناسٌ آخرون، أَيْ أفرادٌ من العائلة، وجبةَ الأحد الرئيسية، وهو ما أضفى بعضَ الحيوية على يوم من التقوى الإجبارية عادةً ما يكون رتيبًا. فخمّنتُ أنّ المواجهة مع أبي لن تكون سارّةً. أمسكني من كتفي بعد أن أدارني أمامه، فإذا كلانا يواجه الممر. وفيما هو يسدّد ضربةً بقدمه تقليدًا لرفسةِ كرةِ القدم، بدأ يقول: «شاهدتُك بالأمس». برهة صمت. «أنت ترفس الكرة ثم تلازم مكانك. يجب أن تَلحق الكرة. أنْ تتحرك، تتحرك، تتحرك. لماذا تلازم مكانك؟ لماذا لا تهجم وراء الكرة؟» وأرفَقَ السؤالَ الأخير بدفعةٍ قوية قذفتْ بي إلى الطرف الآخر من الممر في ملاحقة افتراضية لكرة قدمٍ غيرِ موجودة. فما كان مني إلاّ أن تعثّرتُ بقوةٍ استعدتُ بعدها توازني بطريقة تخلو كليًا من الأناقة. ولم يكن لي ما أقوله على الإطلاق.

لا أدري إنْ كان إحساسي بعدم اللياقة البدنية – الصادرُ عن شعور بأنّ جسمي وشخصي لا يسكنان على نحوٍ طبيعيٍّ الفسحاتِ المعيّنةَ لي في الحياة – قد نَجَمَ عن تلك المصيبة الرهيبة التي رماني بها أبي، ولكني أجدني دائمًا أعزو ذاك الإحساسَ إلى ذلك الحدث. فقد بدأتُ أكتشف أنّ الجسم والشخصية متلازمان في تفحّص أبي لسلوكي. وإذا الموضوع المستدام لتعليقاته، منذ اليفاعة حتى نهاية دراستي الجامعية، هو ميلي إلى عدم الذهاب بعيدًا بما فيه الكفاية، واكتفائي بملامسة السطوح، وعدم «بذل قصارى جهدي». وفي كل تنبيهٍ إلى إحدى تلك النواقص كان يؤدي إشارةً معينة بيديه: القبضة المضمومة المشدودة إلى كتفه للحال الاولى، ورفرفة اليديَن من اليسار إلى اليمين للحال الثانية، وهزّ الإصبع للثالثة. وغالبًا ما يَسْتشهد بمباراة جراميز الكشافة في كرة القدم تدليلاً على ما يعنيه، فأستنتجُ من ذلك أني لا أتمتع بالقوة المعنوية اللازمة لبذل «قصارى جهدي». كنتُ ضعيفًا بكل معاني الكلمة، ولاسيّما بالقياس إليه (وقد اكتشفتُ بنفسي هذه المقارنة غيرَ المفصَح عنها).

بعد فترة وجيزة في ذلك العام (١٩٤٤) الذي أسَرّتني فيه ميشلين ليندل في دور أليس، اختبرتُ تجربةً مسرحيةً استثنائيةً أخرى. فقد أعلنتْ أمي أنّ جون جيلغود سوف يزور القاهرة لتمثيل دور «هاملت» في دار الأوبرا. «يجب أن نحضر»، قالت بتصميم سرعان ما انتقلتْ عدواه إليّ، وسرعان ما اتخذتُ الإجراءات المناسبة، مع أني لم أكنْ أعرف من هو جون جيلغود أصلاً. كنتُ في التاسعة آنذاك وقد بدأتُ

للتو في التعرّف إلى نتف من تلك المسرحية في مجلّد القصص الشكسبيرية من تأليف شارلز وماري لامب، وكنتُ قد تلقيتُه هديةَ عيد الميلاد لبضعة شهور خَلَتْ. وكانت فكرة أمي تتلخّص في أن نقرأ المسرحية تدريجيًا معًا، من أولها إلى آخرها. ولهذا الغرض أُنزِلَ من فوق الرفّ كتابُ **الأعمال الكاملة لشكسبير** المجموعةِ في مجلدٍ واحد. وكان تجليدُه بالجلد المغربيّ الأحمر، والورقُ الرقيق المعرّق الذي طُبع عليه الكتابُ، يجسِّدان بالنسبة إليّ كلَّ ما هو فخمٌ ومثير في أيّ كتاب. وقد زادت من فخامته الرسومُ (بالقلم الرصاص أو الفحم) التي تزيّن المسرحيات، وقد زُيّنتْ مسرحية «هاملت» برسمٍ بالغ التوتر لهنري فوزيلي يبدو فيها أميرُ الدنمارك وهوراشيو والشبح كأنهم يتصارعون في دوّامةِ الوقع المسرحيّ لنبإ الاغتيال وفي ردود فعلهم الهائجة عليه.

جلسنا أنا وأمي في مقدمة غرفة الاستقبال نقرأ في «هاملت» معًا، هي في كرسيّ كبير ذي ذراعين وأنا على متّكإٍ إلى جانبها، وإلى يسارها نارٌ خفيفة يتعالى دخانها في الموقدة. هي مثّلتْ دور جيرترود وأوفيليا، وأنا مثّلتُ إدوار هاملت وهوراشيو وكلاوديوس. ولعلها اختارت أن تمثّل أيضًا دور پولونيوس تضامنًا مع أبي الذي غالبًا ما كان يَسْتشهد واعظًا: «لا تكن مَديناً ولا دائنًا»، تذكيرًا لي بمدى خطورةِ أنْ أُعطَى المال لإنفاقه على هواي. قررنا حذفَ كل مقطع «المسرحية داخل المسرحية» لبالغ تنميقه وتعقيده. ولعلنا عقدنا أربع جلسات على الأقل، أو ربما خمسًا أو ستًا، نتشارَك في كتاب واحد، نقرأ محاولين اكتناه معاني المسرحية، متوحِّدَيْن كليًا خلال أربعة أصائل بعد المدرسة، مستبعديْن القاهرةَ وشقيقاتي وأبي استبعادًا تامًا.

فهمتُ الحوارات بطريقة شبه واعية فقط، مع أني استوعبتُ وضع هاملت الأساسيّ: ثورَته على مقتل والده، وزواجَ أمه من جديد، ومراوحاته الكلامية اللامتناهية. ورغم أنني لم أكن أدري معنى لنكاح المحارم والخيانة الزوجية، فإني لم أجرؤ على أن أسأل أمي عنهما، ذلك أنّ تركيزها الشديد على المسرحية جعلها تنكفئ على نفسها وتنأى عني بعيدًا. وأكثر ما أذكره تغيُّرُ صوتها العادي إلى صوتٍ مسرحيّ جديد عندما كانت تمثّل دور جيرترود: يعلو صوتُها ويرقّ ويتدفق منها الكلامُ على نحوٍ استثنائيّ. والأهم من ذلك أنها تكتسب نبرةً ساحرة، مغريةً

ومهدِّئة: «عزيزي هاملت»، وكانت تخاطبني أنا بالتأكيد لا هاملت: «اِطرحْ عنك اللونَ اللَيليَّ ولتنظرْ عيناك إلى الدانمارك كصديق». فأشعر إذاك أنها تخاطب ذاتي الفضلى، الأقلَّ إعاقةً، ذاتي التي لا تزال نضرةً، ربما على أمل أن تنتشلني من جنوح حياتي المدمن، وقد أثقلتْها الهمومُ والهواجسُ التي بتّ متيقِّنًا من أنها تتهدد مستقبلي.

كانت قراءةُ مسرحية «هاملت» بما هي تأكيد على مكانتي عندها - لا بما أنا كائن فاقد القيمة، كما كنتُ أرى إلى نفسي - واحدًا من أروع أوقات طفولتي. كنا صوتيَن، واحدنا للآخر، روحيْن متحالفتيْن بسعادةٍ من خلال اللغة. لم أكن واعيًا للديناميات الداخلية التي ربطتِ الأميرَ اليائسَ بالملكة الخائنة في متن المسرحية، ولا أنا استوعبتُ الغضب الذي يتملّكهما في المشهد الحواريّ بينهما إثر مقتل پولونيوس عندما تولى هاملت عمليًا سلخَ جلْدِ جيرترود. تجاوزنا معًا، في القراءة، هذه اللحظات كلها؛ فقد كان كلُّ همّي، في طريقةٍ غير هاملتية على نحوٍ غريب، أن أستطيع الاعتماد عليها لتكون كائنًا تجذب مشاعرُه وعواطفُه مشاعريَ وعواطفي دون أن تكون أكثر من أمٍ حنون تهدئ من روعي بعذوبة فاتنة. لقد خلّفتْ ورائي الإحساس بأنها كانت تقصِّر في واجباتها تجاه ابنها، وأخذتُ أشعر أنّ تلك القراءات إنما تؤكِّد عمقَ الأواصر التي تشدنا واحدنا إلى الآخر. ولسنوات احتفظتُ في ذاكرتي بجَرْس صوتها الأعلى من المعتاد، وبالاتزان الواثق في سلوكها، وبحضورها المبلسِمِ والصابرِ على نحو حاسم بوصفها متاعاً يتعيّن عليّ التشبّثُ به مهما كلّف الثمن. غير أنّ تلك الذكريات ما لبثتْ أنْ تقلّصتْ مع تزايد حوادث الجنوح عندي وتعاظُمِ تهديدها لي بطاقاتها على التدمير والتعطيل.

وعندما شاهدتُ المسرحية في دار الأوبرا، كدتُ أقفز من مقعدي عندما أعلن جيلغود: «يا ملائكة النعيم ويا أيها الرسل الإلهية، هُبّوا إلى نجدتنا»، لإحساسي أنه تكريسٌ عجائبيٌّ لما قرأناه قبلاً وحدنا أنا وأمي. رَجْعُ الصدى الراعش لصوته، والمسرحُ المُعتم تَعْصف به الرياحُ، وحضورُ الشبح يلتمع من بعيد، بَدَتْ كلُّها وكأنها قد بَعَثت الحياةَ في رسم فوزيلي الذي درسته مطولاً، وإذا بها تَرْفع مداركي الحسيّة إلى ذروة لا أعتقد أني اختبرتُ واحدةً بمثل كثافتها في ما بعد. على أنّ الذي ثبّط همتي هو المفارقات الجسمانية بيني وبين شخصيات الرجال في

المسرحية، وقد استظهرتْ سراويلُهم المزنّقة، الخضراءُ والقرمزيةُ، سيقانَهم المجدولةَ والتامةَ التقاطيع، فبَدَتْ كأنها تَسْخر من ساقيّ الطويلتين الهزيلتين الفاقدتي الشكل ومن مشيتي العديمة الرشاقةِ وحركاتي الخرقاء. فكل شيء في جيلغود والرجل الأشقر الذي مثّل دورَ لايرتيس يوحي باليُسر والثقة - وهما بطلان إنكليزيان، في نهاية المطاف -، وهذا ما خَفضني إلى موقع دونيّ وعطّل قدراتي على الاستمتاع بالمسرحية. بعد بضعة أيام، عندما لبّيتُ دعوةً زميل الدراسة الانكلو-أميركيّ طوني هاوارد للقاء جيلغود في منزله، كان كلُّ ما استطعته هو أن أمدّ إليه يدًا رخوة في مصافحة صامتة. واكتفى جيلغود، الذي كان يرتدي سترة رمادية، بأن شدّ على يدي الصغيرة مع شبه ابتسامة ملوكية، ولم يتفوّه بكلمة.

لا بد أنّ ذكرى تلك الأصائل التي قرأنا فيها «هاملت» في القاهرة هي التي أثارت حماس أمي مجددًا للذهاب إلى المسرح معي، خلال السنتيْن أو السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها. والحدث الأشدّ انطباعًا في ذاكرتي هو ما جرى عند وصولها إلى لندن من بيروت في طريقها إلى الولايات المتحدة لاستشارة أحد الأخصّائيين، وقد باتت إصابتُها بالسرطان في طورٍ متقدم، فاستقبلتُها على المطار ورافقتُها إلى فندق «براون» لتقضي فيه ليلتها. ومع أنها لم تكن تملك أكثر من ساعتين لتتهيأ وتتناولَ وجبة عشاء مبكرة، فقد وافقتْ بلا تردد على اقتراحي أن نشاهد ڤانيسّا ريدغريف وتيموثي دالتون يمثّلان انطوني وكليوباترا على مسرح هايماركت. كانت المسرحية الطويلة ضعيفةَ الوقع ومتواضعةَ الإنتاج، ومع ذلك فقد سمّرَتْها في مكانها بطريقةٍ أدهشتني. فالحال أنها، بعد أن مرّت عليها سنواتُ الحرب اللبنانية والغزو الإسرائيليّ، أضحت سريعةَ التشتت الذهنيّ، وغالبًا ما كانت مشاغبة ومهمومةً بصحتها ومصيرها. غير أنّ كل ذلك اختفى حين كانت تشاهد وتسمع أبيات شيكسبير ـ «كانت الأبدية في شفتَينا والعينين، والنعيمُ في حواجبنا المقوّسة» -، كأنّ الممثلين كانوا يَلْهَجون بتلك الأبيات بلهجة القاهرة زمنَ الحرب، وقد عُدنا إلى شرنقتنا الحميمة، صامتيْن مركّزَيْن، نتشارك اللغةَ والاتصالَ رغم الفارق في السنّ، ورغم أننا أمٌّ وولدُها لآخر مرة. فبعد ثمانية شهور، بدأتِ انحدارَها النهائيَّ في المرض الذي قتلها. لقد غزا الورمُ السرطانيُّ دماغَها، وقبل أن يُفقِدها النطقَ، قبل شهرين من وفاتها، سبّب لها الهلوسةَ عن مؤامرات تحاك حولها،

ودَفَعَها من ثم إلى أن توجَّه إليّ آخر قول حميم واع : «يا طفلي الصغير المسكين»، وهي عبارة لفظَتْها باستسلام حزين أمٌ تُلْقي تحيةَ الوداع الأخيرة على ابنها.

حين كنت يافعًا تمنيتُ دائمًا لو كانت هي التي تشاهدني ألعب كرة القدم أو التنِس، أو لو كانت هي التي تتكلم إلى أساتذتي، متخلّيةً بذلك عن شراكتها لأبي في برنامجهما المشترك الهادف إلى إصلاحي وتحسيني. وبعد وفاتها، وتوقفي عن كتابة رسالتي الأسبوعية إليها وعن اتصالي الهاتفيّ اليوميّ (عندما كانت في نيويورك تعالج مرضها)، احتفظتُ بها، في كل الأحوالِ، رفيقًا ولو صامتًا. أن تَحْملني في ذراعيها عندما ترغب في هدهدتي وملامستي، أنا الطفلَ الصغيرَ: كان ذلك هو النعيم الحقيقيّ. على أنه لم يكن لي أن أسعى إلى مثل هذا الاهتمام سعيًا ولا أن أطالِبَ به مطالبة؛ فأمزجتُها هي التي كانت تتحكم بأمزجتي. وأَذْكر أنّ أحد الأمزجة الأكثر هجسًا في طفولتي ومراهقتي المبكرة كان يدور حول محاولتي، دونما دليلٍ ولا نجاحٍ على الإطلاق، حَرْفَها عن لعب دور وكيلة الأعمال وتحدِّيها لكي تمنحني التأييدَ والدعم. ومهما يكن، فإنّ عملاً أَجَدْتُه، ومقطعًا عَزَفْتُه عزفًا متقنًا على البيانو، قد يولِّدان تحولاً فجائيًا في ملامحها وارتفاعًا دراميًا في نبرة صوتها، فتفتح ذراعيْها واسعتيْن، فأحبس أنفاسي فيما هي تغمرني قائلة: «براڤو، إدوارد، يا ولدي الحبيب، براڤو، براڤو. دعني أقبِّلك». ولكنها في معظم الأحيان، كان يحدوها الشعورُ بالواجب كأمٍ وربّةِ بيت، بحيث كان صوتُها العادي في تلك السنوات الذي أحتفظُ به في الذاكرة أيضًا هو الصوتَ الآمرَ الناهي: «تمرّنْ على البيانو يا إدوارد!»؛ «عُدْ إلى فَرضك»؛ «كفى مضيعةً للوقت: باشِرْ كتابة موضوع الإنشاء»؛ «هل شربتَ كأس الحليب، وعصيرَ البندورة، وزيتَ السمك؟»؛ «أَنْهِ أكلَ ما في صحنك»؛ «مَنْ أكل الشوكولاته؟ علبة كاملة اختفت. إدوارد!».

الفصل الرابع

هيمنتْ قوةُ أبي المعنوية والجسدية على طفولتي ونشأتي. كان له ظَهرٌ ضخم وصدرٌ برميليٌّ نافر، يوحي بالعصيان، رغم قصر قامته، ويوحي بالثقة الطاغية، بالنسبة إليَّ على الأقل. على أنّ أبرز صفاته الجسدية مشيتُه المتيبّسةُ كقضيب والمنتصبةُ على نحوٍ يكاد أن يكون كاريكاتوريًا. إلى هذا، وبالمقارنة مع جُبني وخجلي الانكماشيّيْن والعصابيّيْن، كان يتمتع بنوع من التيه يناقضني تناقضًا صارخًا، إذ لا يبدو أنه يخشى اقتحام أيّ مكان أو الإقدامَ على أيّ فعل – وهما أكثرُ ما أخشاه. ولم يقتصر الأمر على أني لم أكن مقدامًا، كما كان عليّ أن أكون في لعبة كرة القدم المشؤومة، وإنما كنتُ أتحاشى جدّيًا نظرَ الناس لشدة تحسّسي لنواقصي الجسمانية اللامتناهية وأنا مقتنع تمامَ الاقتناع بأنها جميعًا انعكاسٌ لنواقصي الجوانية. وكان أصعب الصعاب عندي أن يَنظر إليّ الناسُ وأن أقابل نظراتهم بمثلها. وقد ذكرتُ ذلك لأبي وأنا في حوالى العاشرة فقال: «لا تنظرهم عينًا في عين، بل إلى أنوفهم أُنظرْ»، فسلّمني بذلك تقنيةً سرّيةً استخدمتُها عقودًا من الزمن. وعندما بدأتُ التدريس، بُعَيد تخرجي في أواخر الخمسينيّات، وجدتُني مضطرًا إلى خلع نظارتَيَّ لكي يتحوّل الصّفُ كتلةً ضبابيةً يتعذّر عليَّ تمييزُ أيّ شيءٍ فيها. ولا أزال إلى الآن أجد صعوبةً لا تطاق في أن أشاهد ذاتي على شاشة التلفزة، بل حتى أن أقرأ ما يُكتَب عني.

عندما كنتُ في الحادية عشرة حالَ هذا الخوفُ من نظر الناس دون إقدامي على أمرٍ كنتُ أرغب فيه بكل جوارحي. فقد كنتُ أَحْضر حفلتي الثانية أو الثالثة في

دار الأوبرا القاهرية، التي هي نسخةٌ مصغّرةٌ عن العمارة المهيبة التي بناها «غارنييه» في باريس وتكرّستْ فيها أوبرا «عايدة». وقد أثارتني الطقوسيةُ الرسمية للمسرح وللبشر المتهندمين، كما أثارتني الموسيقى ذاتُها من حيث الأداء والانضباط الشكلانيّ. على أنّ ما أثار فضولي بنوع خاصّ هو حلبةُ الفرقة الموسيقية، تتوسطها منصّةُ القائد وعليها دفترُ المقطوعات الموسيقية الكبيرُ المفتوحُ وعصا القائد الطويلة. فأردتُ إلقاء نظرةٍ مقرّبةٍ عليها خلال الاستراحة، نظرةٍ لا تتيحها مقاعدُنا الواقعة في المقصورة الوسطى. استأذنتُ أبي: «هل لي أن ألقي نظرة عليها؟»، فأجاب «هلمّ. انزلْ إلى هناك». فجأةً، دهمتْني فكرةُ أنّ اجتيازي الصالة منفردًا مهمةٌ مستحيلة. كنتُ أشدّ خجلاً من أن أفعل ذلك، فقد كانت هشاشتي الجسمانية إزاء النظرات المتفحّصة، بل الشاجبة، عظيمةً جدًا. «حسنًا» قال، وقد ضاق ذرعًا بي، «أنا ذاهب». وإذا به يقتحم الممرَّ ويختال اختيالاً في طريقه إلى المنصّة التي بلغها ببطء شديد ومتقصّد. ثم، لزيادة إزعاجي، أخذ يتظاهر بأنه يقلّب صفحات دفتر المقطوعات الموسيقية، وتعلو وجهَه علاماتُ الفضول والتحدي. فغُصت أكثرَ فأكثرَ في مقعدي ولم أسمح لنفسي بأكثر من التلصّص من فوق الدرابزون، عاجزًا عن تحمّل الإحراج، بل الخوفِ، المزدوجِ: من استعراضية أبي، ومن خجلي الانكماشيّ.

وفّر لي دفءُ أمي السائغ الفرصةَ النادرةَ لأكون الشخصَ الذي كنتُ أشعر حقيقةً أنني إيّاه، بالمقارنة مع «إدوارد» الفاشلِ في الدرسة والرياضة والعاجزِ عن مجاراة الرجولة التي يجسّدها أبوه. على أنّ علاقتي بها ما لبثت أن ازدادت التباسًا مع الوقت، وصارت إدانتُها لي أشدَّ تدميرًا من الناحية العاطفية من تنمُّر أبي وتأنيبه. ذاتَ أصيل من يومِ صيفٍ في لبنان، وأنا في السادسة عشرة، أيْ في سنٍ كنت أحتاج فيها إلى عطفها أكثر من أيّ سنّ أخرى، أطلقتْ حُكْمًا على جميع أولادها لن أنساه ما حييتُ. كنتُ عائدًا من سنتين تاعستين أمضيتُهما في «ماونت هيرمون» [جبل حرمون]، وهي المدرسةُ الداخلية القمعية في «نيو إنغلاند»، وقد اكتسب ذلك الصيفُ، صيفُ ١٩٥٢، أهميةً استثنائيةً بالنسبة إليّ لأنه سوف يسمح لي بقضاء بعض الوقت برفقتها. وقد اعتدنا الجلوسَ معًا بعد الظهر، نتجاذب أطراف الحديث بحميمية، ونتبادل الأخبار والآراء. وفجأةً قالت: «أولادي خيّبوا أملي جميعًا. كلّهم بلا استثناء». لم أستطع، لسببٍ ما، أن أحَمّل نفسي على القول: «هذا

لا ينطبق عليّ بالتأكيد»، أنا المكرَّسَ بصفتي ابنَها المفضَّلَ إلى درجة أنها خلال السنة الأولى من غيابي عن البيت كانت - على ما أبلغتني شقيقاتي - تترك مكانًا لي إلى المائدة في المناسبات الهامّة، مثلِ عيد الميلاد، ولا تسمح لأحدٍ بأن يستمع إلى سيمفونية بتهوفن التاسعة، قطعتي الموسيقيةِ الأثيرة.

«لماذا؟» سألتُ، «لماذا تَحْملين هذا الشعور تجاهنا؟». فزمّتْ شفتيها وازدادت انكماشًا، جسمًا وروحًا. «رجاءً، قولي لي لماذا»، ألححتُ في السؤال، «ما الذي فعلتُه [لأستحقّ ذلك]؟».

«ربما ستعرف السببَ يومًا ما، ربما بعد مماتي. ولكن من المؤكّد أنكم جميعًا بمثابة خيبة كبيرة». ولسنواتٍ كررتُ السؤال دون جدوى: فقد ظلت أسبابُ خيبتها فينا، ومن ثَمَّ فيَّ أنا شخصيًا، سرًّها الدفينَ، وسلاحًا في ترسانتها تُشْهره للتلاعب بنا وإفقادِنا التوازنَ وبذرِ الشقاق بيني وبين شقيقاتي وبيننا وسائرِ العالم. هل كان الأمرُ دومًا على هذا النحو؟ فما معنى ظني السابق، والحال هذه، بأنّ حميميتنا راسخةٌ إلى حدِ أنها تحتمل بعض الشكوك ولكنها لا يُعقل أن تنسف مكانتي لديها؟ والآن، إذ أستعيد علاقتي الصريحةَ والعميقةَ بأمي، رغم فارق السن، أُدرك أنّ تلك المراوحة النقدية قد لازمتْها على الدوام.

خلال أيام «إعدادية الجزيرة»، نَمَتْ بيني وبين شقيقتيَّ الكبريين، روزي وجين، ببطء، بل بطريقة خفية، علاقةٌ تنافسيةٌ سخّرتْها أمي بمهارة للتحكّم والتلاعب بنا. كنتُ أكنّ شعورًا حانيًا تجاه روزي، الأصغر مني سنًا والأقل لياقةً بدنية، فأساعدها وأدلّلها وأعانقها بانتظام فيما نحن نلعب معًا على الشرفة، وأعرّضها لثرثرتي المتواصلة، التي تردّ عليها بالبسمات والضحكات المكتومة. وكنا نسير معًا إلى «إعدادية الجزيرة»، ثم ننفصل عند الوصول لأنها في صف أدنى من صفي. وكان لروزي العديدُ من الصديقات الصغيرات المقهقهات - شهيرة وناظلي ونانديا وڤِيڤيت - وأنا لي زملائي «المحاربون» أمثال ديكي كوپر أو غي موسيري. غير أنها بسرعةٍ فرضتْ على الآخرين الاعترافَ بها فتاةً «عاقلة»، وأما أنا فَرُحتُ أهيم على وجهي في أرجاء المدرسة حاملاً شعورًا متزايدًا بالغمّ والتمرّد والشرود والتوحّد.

تبدأ الخلافاتُ بيننا بعد العودة من المدرسة، مترافقةً مع انفصالنا الجسمانيّ القسريّ: لا استحمام معًا، ولا معاركة أو معانقة، السكنى في غرف منفصلة، والخضوع لأنظمة متباينة، علمًا أنّ النظام الساري عليّ كان الأشد من حيث الوَقْعُ الجِسمانيُّ والانضباط. وإذ تعود أمي إلى البيت، تأخذ في مناقشة سلوكي بالمقارنة مع سلوك أختي الصغيرة: «أنظر إلى روزي. أساتذتُها مجمِعون على أنها تبلي بلاءً حسنًا». وسرعان ما تحوّلتْ جين نفسُها – الفائقةُ الجمال في ضفائرها الصهباء الكثّة – من نسخة مصغرّة ومستتبعة لروزي إلى فتاة «عاقلة» هي الأخرى، لها حلقتُها الخاصة من الصديقات الشبيهات بها. وقد استحقّتْ هي أيضًا ثناءَ إدارة «إعدادية الجزيرة»، في الوقت الذي واصلتُ فيه انحداري في «التعيير» المستدام، وهو المصطلح الإنكليزيّ الذي لازمني منذ سن السابعة. تقاسمتْ روزي وجين غرفة واحدة، تَفْصل غرفةُ الوالديْن بينها وبين وغرفتي المنزوية في نهاية الممر. وانتقلتْ جويس وغريس (اللتان تصغرانني بثمانية أعوامٍ وأحد عشر عامًا على التوالي) من السكنى في الشرفة المزجّجة إلى إحدى الغرف المستحدثة، بعد أن أُعيد تصميمُ الشقة لتتسع لنموّ الأولاد.

كان الباب المغلق لغرفة روزي وجين يَرْمز إلى الهوة الجسمانية كما العاطفية الآخذةِ في الاتساع تدريجيًا بيننا. حتى إنّ أمرًا جازمًا صدر بمنعي منعًا باتًا من دخول غرفتهما، وأذاعه أبي بحزم، وأخذ يُشْرف على تنفيذه بين الحين والآخر، وقد بات منحازًا انحيازًا سافرًا إلى شقيقاتي، حاميًا وراعيًا، فيما رحتُ أنا أتلبّس تدريجيًا دورَ الأخ ذي النوايا المريبة، وهو دور ورثْتُه من أخوالي، على ما كان الوالدُ يظن. وكان يقال لي دائمًا: «يتوجب عليك حمايتهنّ»، ولكنْ بلا نتيجة تذكر. فأنا في عين روزي خصوصًا وحشٌ مفترس وفريسة في آن، تستدرجني أو تستفزّني لدخول غرفتها لتقذفني هي وجين بالمماحي ولتضرباني على رأسي بالمخدّات ولتصرخا في وجهي برعبٍ واستمتاعٍ خطير. وكانت شقيقتاي شغوفتيْن بالدراسة والمذاكرة، في المدرسة كما في البيت، في حين كنت أؤجل تلك النشاطات باستمرار، لتعذيبهما، أو أهدر الوقتَ إلى أن تعود أمي لتواجه جعجعةً من التُهم والتهم المضادة مدعّمةً بالكشف عن كَمْدات فعليةٍ أو التباكي على عضّات حقيقية.

ومع ذلك لم يقع الانفصالُ بيننا قط، ذلك أننا استمتعنا نحن الثلاثةَ، على مستوًى ما، بالتفاعل المتبادل الناجم عن المزاحمة بين الأشقاء، مزاحمة نادرًا ما

بلغتْ حدّ العداء. فكانت شقيقتاي تستعرضان سرعة الخاطر أو المهارة المميّزة في لعبة «الإكس» فأجاريهما فيها. أما في ألعابٍ لا تُنسى مثل «الغمّيضة» أو «عسكر وحرامية» أو لعبة كرة قدم خرقاء في حيّزٍ ضيّق جدًا، فقد كنتُ أستغلّ فيها طولَ قامتي أو قوتي البدنية النسبية. وبعد أنْ حضرنا معًا «سيركو تونيي»، وقد ترك مروّضُ الأُسُود فيه انطباعًا قويًا لديَّ لسلطويته وتفاحله، رحتُ أقلّد وصلتَه في غرفة الفتيات، صارخًا في وجهيْهما بأوامر من نوع: «إلى مكانِكِ، كاميليا!»، ملوِّحًا بسوطٍ وهميّ، دافعًا الكرسيَّ بقوةٍ في اتجاههما. وقد سُرّتا أشدّ السرور للمزحة التمثيلية، بل صدر عنهما زئيرٌ عذب وهما تتسلقان السرير أو المِزْيَنةَ برشاقةٍ لا كبيرَ صلةٍ لها برشاقة فصيلة السنّوريات.

على أننا لم نتعانق مرةً كما هي عادةُ الأشقاء والشقيقات. فعلى مستوَى ما دون الوعي هذا، كنتُ أشعر بانكماش متبادل، مني تجاههنّ ومنهنّ تجاهي. ولا تزال تلك الهوّة الجسدانية قائمةً بيننا إلى الآن، ولعلها اتسعت عبر السنين بسبب أمي. فقد كانت عند عودتهما بعد الظهر من «نادي القاهرة للنساء»، تتدخل بيننا لا محالة. فيعرّضني جنوحي للتقريع المتزايد: «ألا أستطيع أبدًا أن أتركك مع شقيقاتك دون أن تشاغب؟». تلك هي اللازمة، وعادةً ما يتبعها الملحَقُ المرهوبُ: «انتظرْ حتى يعود أبوك». فبسببٍ من ذلك الحرم الضمنيّ المفروض على أيّ اتصالٍ جسدانيّ بيننا، اتخذ خرقي لذاك الحرم شكلاً عدوانيًا يتضمن اللكمَ وشَدَّ الشعر والقرصةَ الشريرةَ بين الحين والآخر. وكان لا بدّ أن يتبرّع أحدهم بالـ«إبلاغ» عني فيتم من ثم «تعييري» -disgraced بالإنكليزية – وفَرْضُ العقوبات الصارمة عليّ: منعًا إضافيًا من الذهاب إلى السينما، أو تخفيضًا كبيرًا في خَرجِيّتي، أو كان أبي في الحالات القصوى يضربني.

عظّم كلُّ هذا من إحساسنا بمكانة الجسد المميَّزة والإشكالية. كانت ثمة هوةٌ تَفْصل بين الصبيّ والبنت حُرِّم علينا نقاشُها أو سبرُ أغوارها أو حتى الإفصاحُ عنها طوال فترة المراهقة الحرجة. وإلى حين بلوغي الثانية عشرة، لم تكن لديّ فكرةٌ إطلاقًا عما تتضمّنه العملية الجنسية بين الرجل والمرأة ولا كنتُ أعرف الكثير عن تكوين جسدِ هذا أو تلك. ولكنْ فجأةً نفرتْ عباراتٌ مثل «سروالكَ الداخليّ» و«سروالكِ الداخليّ». «نستطيع أن نرى سروالكَ الداخليَّ»، تعيّرني شقيقاتي، فأردّ

بتهوّر أكيد: «بل أنا أستطيع أن أرى سراويلكنّ الداخلية». وأَذْكر بوضوح تام أننا أُمِرنا بإغلاق أبواب الحمّام ضد المتطفلين من الجنس الآخر، علمًا أنّ أمي كانت تحضر دومًا عند تبديلي ثيابي، أو عند تبديل شقيقاتي ثيابهنّ. وأظنها كانت تدرك إدراكًا تامًا المزاحمةَ بين الأشقّاء وإغراءاتِ الشذوذ المتعددِ الأشكال المحْدقة بنا. على أنني كنتُ دومًا أشتبه في أنها كانت تلعب على تلك الغرائز والنوازع وتستخدمها لبذر الشقاق بيننا بتشديدها على الفوارق وتضخيمها نواقصَ واحدنا للآخر على نحوٍ دراميّ، بحيث تُشعِرنا أنها وحدَها مرجعُ كلٍّ منا وصديقُه الصدوق وحبُّه الأغلى. والمفارقة في الأمر أني ما أزال أصدّق أنها كانت ذلك كله. وكان على كلّ شيء بيني وبين شقيقاتي أن يمرّ عبرها، وكلّ ما أقوله لهنّ يجب أن ينبع من أفكارها هي ومشاعرها هي ومعاييرها هي لما هو الصوابُ والخطأ.

وبالطبع لم يكن أحدٌ منا يعرف تمامًا رأيها فيه، اللهم إلا على نحوٍ عَرَضيّ أو ملغزٍ أو منفِّرٍ (كما هو الأمر عندما أبلغتنا أننا قد خيّبناها جميعًا). فلم أدرك إلا في فترة متأخرة مدى شعورها بالنقصان والغضب تجاه حياتنا في القاهرة، إذ أستعيد تقليديتَها المحمومة وصرامتَها القسرية وغيابَ الصراحة (عندها وعند أولادها) ومناوراتِها اللامتناهية وانعدامَ الأصالة المتأصل فيها. ويعود معظمُ ذلك الجهل إلى طاقة أمي الأسطورية على جعلك تثق بها وتؤمن بها، مع علمك أنها إما أن ترتدّ عليك، بين لحظةٍ وأخرى، بحنقٍ وتقريع لا مثيل لهما، وإما أن تستدرجك استدراجًا إلى دائرة سحرها المتألق. «تعال اجلِسْ بقربي، يا إدوارد»، تقول، فإذا أنت قد بتّ موضعَ ثقتها، يساورك إحساس مدهش بالأمان وشعورٌ أكيد أنها في مبادرتها تلك إنما تستبعد روزي وجين بل تستبعد أبي هو أيضًا. فهي تنمّ عن نزعةِ تملّكٍ شيطانية وتنمّ، في الوقت ذاته، عن منتهى الطواعية السمحة التي تتقبّلك لا بوصفك ابنًا بل بوصفك أميرًا من الأمراء. ذاتَ مرة، اعترفتُ لها بأني أجدني موهوبًا وخارقًا معًا، على الرغم من سلسلة مضحكة من الإخفاقات والمشكلات اللامتناهية التي أقع فيها في المدرسة وفي سائر الأمكنة. تبرّعتُ بذلك الاعتراف بوَجَلٍ شديد للتوكيد على وجود عزيمةٍ أخرى، بل ربما شخصيةٍ أخرى، كامنةٍ تحت «إدوارد». «أنا أعلم ذلك»، قالت لي برفق، في بوحٍ خفيض هو الأشد سرّيةً وتطمينًا.

ولكنْ ما هي أمي فعلاً؟ خلافًا لأبي، الذي كان رسوخُه العامُّ وإعلاناته الأنيقة كمًا مستقرًا ومعروفًا سلفًا، جسّدتْ أمي الحيويةَ في كل شيء، في كافة أرجاء البيت وفي حيواتنا ذاتها، تتدخل فيها بلا كلل، مُطْلقةً الأحكامَ، جارفةً إيانا جميعًا - بما في ذلك الثيابُ والغرفُ والخطايا المستورة والإنجازاتُ والمشكلاتُ المكشوفة - إلى مدارها المتوسع باستمرار. ولكنها حرمتنا بذلك تكوينَ حيّزٍ مشتركٍ في ما بيننا، مستبدلةً إياه بعلاقات ثنائية معها، كمِثْل علاقة المستعمَرات بالحاضرة الاستعمارية، وشكّلتْنا كمجرّةٍ تنفرد بالإحاطة بكامل أجرامها ومداراتها. فما تقوله لي عن حالها، مثلاً، تكون قد قالته أيضًا لشقيقاتي- وهذه هي الخصيصةُ الأساس في شخصيتها العملانية - من أنها امرأة بسيطة وإنسانة طيّبة لا تأتي إلا الأفعال الصالحة وتكنّ لنا جميعًا حبًا متساميًا وترغب في أن يخبرها كلُّ واحد منا بكل شيء، في حين أنّها تحتفظ بالحق في إخفاء كلّ شيءٍ عن الجميع. وقد صدّقتُ ذلك كله بلا سؤال. فلم يكن في العالم الخارجيّ ما يبعث على الرضى: من دوامة تغيير المدارس (وما يستتبعه من تبديل الأصدقاء والمعارف)، والحيواتِ المختلفة التي عشناها، إلى هويتي غير المصرية المركبة، الملتبسة، بل والمريبة، وكوني عادةً في غير مكاني، أُمثّل شخصًا بلا ملامح محددة ولا وجهةٍ معروفة يتّجه إليها. فبدت أمي كأنها تتمثّل محنتي العمومية وتتعاطف معي. وكان هذا يكفيني دعمًا موقتًا أعتزّ به كبيرَ اعتزاز.

من أمي أحسستُ بجسدي جسدًا مثقلاً وإشكاليًا إلى حدّ لا يصدَّق، أولاً بسبب معرفتها الحميمة به، لأنها الأقدر على إدراك طاقته على ارتكاب الشرّ؛ وثانيًا لأنها حَرَمَتْ نفسَها الحديثَ علنًا عنه، فلم تقارب الموضوع إلا تلميحًا أو هي تستنطق أبي وأخوالي، فتتكلم عنه - أيْ جسدي - عَبْرهم، مثل الناطق من بطنه. وكان هذا هو الأكثر إرباكًا لي. وعندما كنتُ في حوالى الرابعة عشرة، قلتُ شيئًا أثار ضحكها المجلجل، ولم أكن مدركًا حينها مبلغَ الدهاء غير المتقصد في ما قلتُه. كنتُ تاركًا بابَ الحمّام مفتوحًا، وهي زلّة دالّة، ذلك أني حُزتُ في مراهقتي شيئًا من العزلة، ولكني، لسببٍ ما، كنتُ، في الآن ذاته، أبحث عمن يقتحمها بين الحين والآخر. فدخلتْ أمي فجأةً، وللحظة تركتِ الباب مفتوحًا ووقفتْ تتفحّص جسدَ ابنها العاري وهو يجفّف نفسه بسرعةٍ بمنشفة صغيرة. «أرجوكِ أن تغادري»، قلتُ

مشاكسًا، «وكفّي عن مواصلةِ التحرّي من حيث توقفتِ المرةَ الاخيرة». سجّلتُ بذلك الفوزَ المُبين، فانفجرتْ ضاحكةً، وأغلقتِ الباب للتوّ وغادرتْ على الفور. ولكنْ، هل غادرتْ فعلاً عادةَ التدخّل في شؤوننا؟

أدركتُ قبل ذلك بوقت طويل أنّ جسدي وأجساد شقيقاتي تقع في دائرة المحظور لسبب حرتُ في تفسيره. ذلك أنّ مراوحات أمي بين النقيض ونقيضه كانت تعبّر عن نفسها في احتضانها الاستثنائيّ لأولادها - فهي تَغْمرنا بالقُبَل، واللمسات، والعناقات، والهديل، مغدِقةً علينا ابتهالات البهجة بجمالنا ومؤهلاتنا الجسدية - لكنها لا تعفينا في الوقت ذاته من التعليقات السلبية المدمّرة على مظهرنا. عندما كنتُ في التاسعة وروزي في السابعة، أضحت السمنةُ موضوعًا خطيرًا ودائمَ الحضور في حياتنا. ومع تزايد وزن شقيقتي، صارت السمنة مدارَ بحث على امتداد طفولتنا ومراهقتنا والمرحلة المبكرة من شبابنا، يرافقه وعي تفصيليّ مذهل للمأكولات «الباعثة على السمنة» وما تستدعيه من محظورات لامتناهية. كنتُ نحيل الجسد إلى حد كبير، طويلاً، متناسق الكسم، وهذا ما لم تكنه روزي. وإذا أضيفتْ إلى هذه المفارَقةُ بين اجتهادها في المدرسة وبين أدائي الرثّ، وبين العاطفة الخاصة التي يكنّها أبي لها وبين تعلّق أمي بي (علمًا أنّ كليهما كان يُنْكر المفاضلةَ بيننا على الدوام) ناهيك عن مديح فائق لدربتها في تنظيم الوقت وطاقتها على إبراز مؤهلاتها - وهي مواهب أفتقدها كليًا - فإنّ الفجوة بيننا كانت تتعمّق، ومعها يتفاقم تبرّمي من جسدي ومن جسد شقيقاتي.

كان أبي هو الذي بادر تدريجيًا إلى محاولة إصلاح جسدي، بل وإعادة تكوينه من الأساس. على أنّ أمي نادرًا ما اعترضتْ على ذلك، بل أخذتْ تدور بجسدي بانتظام من طبيب إلى آخر. وإذ أستذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعدًا، أراه منحبسًا في نظام صارم من التصحيحات المتكررة، تمّتْ كلُّها بأمرٍ من أهلي، وأدى معظمُها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي. ذلك أنّ «إدوارد» كان قد حلّ في كيان بشع مشوّه يشكو من كل العلل أو يكاد. إلى نهاية العام ١٩٤٧، عندما غادرنا فلسطين للمرة الأخيرة، كان طبيبُ الأطفال الذي يعتني بنا هو الدكتور غرونفلدر، اليهوديُّ الألمانيُّ، مثله مثل السيدة باير، المعروف بأنه أفضل أطباء فلسطين قاطبةً. تقع عيادته في حيّ هادئ ونظيف ومنظّم ووَرِيق من أحياء المدينة

الحارة الجافة التي كانت تبدو أجنبيةً على نحو نافرٍ لعينيّ الفتيّتيْن. وكان يخاطبنا بالإنكليزية مع أنه يُكثر من الوشوشة مع أمي، ونادرًا ما نجحتُ في استراق السمع إلى ما يقولان. وعليه أُحيلتْ ثلاثُ علل عضال، فقدّم لها علاجاته المزاجية المتميّزة. ويكفي تعداد تلك العلل لتبيان مبلغ المراقبة شبهِ المجهرية والكثيفةِ وغيرِ المبرّرة التي تعرّض لها بعضُ أعضاء جسدي.

العلة الأولى تخصّ قدميّ، وقد جاء التشخيص المبكر أنهما مَسْحَاوان. فوصف لي غرونفلدر قوسيْن معدنيتيْن انتعلتُهما مع أول زَوج أَحذيةٍ ولم أتخلّ عنهما نهائيًا إلا في عام ١٩٤٨ عندما تمكّن موظفٌ جسور، في محل «الدكتور شول» في «مانهاتان»، من إقناع أمي بعدم حاجتي إليهما.

أما علتي الثانية فهي رعشة غير إرادية كانت تمتلكني لبرهة وجيزة كلما هممتُ بأن أبول. طبعًا، طُلِبَ مني أداءُ الرعشة في حضرة الدكتور، وغنيٌّ عن القول إنه استعصى عليّ الارتعاشُ كما التبوّل. راقبتني أمي خلال أسبوعين وأكثر، ثم نقلت الأمر إلى «أخصائيّ طب الأطفال» ذي الشهرة العالمية. فهزّ غرونفلدر كتفيْه وأعلن «لا شيء. لعلها ذات أصل نفسانيّ» – وهي عبارةٌ لم أفقه لها معنى، غير أني لاحظتُ أنها زادت أمي همًا، والمؤكد أنها ظلّت تثير قلقي إلى أن تقدمتْ بي سنونُ المراهقة وطويت المسألة بعدها.

وأما ثالثة العلل فتتعلق بمعدتي، وهي مصدرُ أمراض وآلام جمّة لازمتني طوال حياتي. بدأ الأمر عندما شكّك غرونفلدر في ما درجتْ عليه أمي من عادةِ لفّ بطّانيةٍ صوفٍ صغيرة وتدبيسها بشدّة حول بطني، صيفًا شتاءً، وفي ظنها أنها تحميني بذلك من الأمراض وبَرْدِ الليل وربما أيضًا من الإصابة بالعَين، وفيما بعد، أبلغني أصدقاء كُثُر أنها عادة دارجة في فلسطين وسورية. ذاتَ مرة، أبلغتْ أمي غرونفلدر بعلاجها الوقائيّ الغريب هذا في حضوري، فكان ردُّه، الذي أذكره بوضوح تام، تقطيبةَ حاجبَيْن متشكّكةً وقال: «لا أرى حاجةً إلى ذلك»، فاندفعتْ تُعدِّد له منوّعات من المنافع تعود عليّ منه (ومعظمُها حمائيّ). وكنتُ حينها في التاسعة أو العاشرة. ثم نوقش الأمرُ أيضًا مع وديع باز حداد، طبيب الأُسرة في القاهرة، فحاول هو أيضًا ثنيَها عن الاستمرار في ممارسة تلك العادة. واقتضى الأمرُ سنةً إضافية قبل أن أتخلّص نهائيًا من ذلك الشيء السخيف. وقد أبلغتني هيلدا لاحقًا

أنّ طبيبًا آخر حذّرها من أنّ تلك الممارسة سوف تزيد كثيرًا من حساسية وَسَطي، وهو ما يُفْقده المناعةَ أمام كل أنواع المتاعب.

هزُلَ نظري بسبب ما عانيتُه من التهابات في قناة العين ونَوبات التراخوما. ولسنتين، كان عليّ أن أضع النظّارات السوداء في زمنٍ لم يكن يضعها فيه أحدٌ. ثم وجدتُني، وأنا في السادسة أو السابعة، محكومًا بأَنْ أستلقي كلَّ يوم في غرفة مُعتِمة والكمّاداتُ تغطي عينيّ لمدة ساعة. وإذ نما قصرُ النظر، ازدادت صعوبة تمييز الأشياء، فيما كان أهلي يرون أنّ النظارات ليست «صالحة» لي بل إنها تصير «مُضرّة» بالتأكيد إذا اعتدتُ عليها. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٩، وأنا في الرابعة عشرة من العمر، ذهبتُ لمشاهدة مسرحية «الأسلحة والإنسان» في قاعة إيوارت في الجامعة الأميركية في القاهرة، فلم أستطع أن أميّز شيئًا مما يجري على المسرح، إلى أن أعارني صديقي مصطفى حمدالله نظارتيْه. بعد ذلك بشهور ستة، وعلى أثر شكوى من أحد الأساتذة، حصلتُ على نظارةٍ مُرْفقةٍ بتعليمات صارمة من أهلي بأن لا أضعها كلَّ الوقت. وقيل لي إنّ نظري ضعيفٌ بما فيه الكفاية، وإنه سوف يزداد ضعفًا.

في الثانية عشرة، قيل لي إنّ الشَعْر النامي بين فخذيّ لم يكن «طبيعيًا»، وهو ما زاد من حرجي الذاتيّ المتضخم أصلاً. على أنّ أقسى النقد هو ما طاول وجهي ولساني وظهري وصدري ويديّ وبطني. لم أدرك حينها أني متعرِّض لهجوم معيّن، ولا اختبرتُ تلك الإصلاحات والقيود بوصفها حملات منظّمة – وهو ما كانتهُ فعلاً. بل افترضتُها جميعًا مقوّماتِ عمليةِ تهذيب لا بد أن يمر بها المرءُ كجزء من مرحلة النمو. فإذا النتيجة الصافية لتلك الإصلاحات تعمُّقُ ارتباكي وخجلي من ذاتي.

على أنّ أطولَ عملية إصلاحٍ وأكثرَها إخفاقًا كانت تلك التي تتعلّق بقامتي، وقد أضحت هَوَسَ أبي وموضوعَه الأثير، عند بلوغي المراهقة. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٧، عندما تخرجتُ من جامعة برينستون، بلغ الأمر ذروته عندما أصرّ أبي على أخذي إلى صانع حمّالات ومشدّات في نيويورك ليشتري لي نِيرًا أرتديه تحت قميصي. وأكثر ما أحبطني في تلك التجربة هو أني، وقد بلغتُ الحادية والعشرين، لم أعترض على كون أبي قد خَوَّلَ نفسَه أن يحزّمني مثلَ طفلٍ شقيّ ترمز قامتُه الملتوية إلى ماهيةٍ ذميمةٍ تستحق عقابًا عِلميًا. خلا وجهُ الموظف الذي باعنا القماط

من أيّ تعبير، فيما كان أبي يقول بودّ: «ألم أقل لك؟ إنه [القماط] يعمل بطريقة رائعة. لن تكون لك متاعب معه».

توّج النيِّر الأبيضُ، المصنوع من القطن والـ«لاتكس» الأبيضين، ذو الرباطات المتصالبة عبر الصدر وفوق الكتفين سنواتٍ بذلها أبي من المحاولات لجعلي «أقف مستقيمَ القامة». «الكتفان إلى الخلف»، كان يقول، «الكتفان إلى الخلف»، فتضيف أمي بالعربية: «لا تسترخ»، علمًا أنها ملتوية القامة مثلها مثل أمها. ولما استمرت المعصية، استسلمتْ للاعتقاد أنّ قامتي موروثة من آل بدر، أسرةِ أمها، فكانت تتفلّت منها بين الحين والآخر آهةٌ قَدَريةٌ واستنكاريةٌ في آن معًا، تُرْفقها بعبارة «حردبّة بيت بدر»، وهي عبارةٌ ليست موجَّهةً إلى أحد بالتخصيص ولكنها تتقصد بالتأكيد إلقاءَ اللائمة على نَسَبي إنْ لم يكن عليها هي أيضًا.

ومهما يكن من أمرِ وراثتي حدبةَ بيت بدر، فقد ثابر أبي على مساعيه. وتضمنتْ تاليًا عددًا من «التمرينات» كأنْ يمرِّر عصًا تحت إبطيّ ويجعلني أُبقي عليها ساعتين على التوالي؛ أو أن أقف أمامه وأنفّذ، خلال ما لا يقل من نصف ساعة، أمرَه: «واحد»، فأشدّ مرفقيّ إلى الخلف بأقوى وأَسرعَ ما أستطيع، على افتراض أنّ التمرين من شأنه تقويمُ اعوجاج ظهري. وكان كلما وقعتُ في مرمى نظره، يهيب بي: «الكتفان، إلى الخلف». وغنيّ عن القول مدى الإحراج الذي كان يسبّبه لي عندما نكون برفقة أناس آخرين. ورغم ذلك، مرت أسابيعُ عديدة قبل أن أتجرأ على مطالبته بالكفّ عن إصدار تلك الأوامر في الشارع والنادي وحتى ونحن داخلان إلى الكنيسة. فتعاطى مع اعتراضي بحكمة: «هاك ما سوف أفعل»، قال مُطَمْئِنًا، «سوف أكتفي بقول "ظهر"، فلا يَفْهم المقصودَ إلا أنا وأنت». وهكذا ظللتُ أعاني «ظَهْر» لسنوات وسنوات، إلى أن ابتُليتُ بنيري.

ومن ملحقات الصراع حول قامتي أنها أثّرتْ في صدري، وقد ورثتُ عن أبي ضخامةَ الصدر ونفورَه البالغيْن. في مطلع مراهقتي أُعطيتُ جهازًا معدنيًا لتوسيع الصدر، مرفَقًا بتعليمات لاستخدامه من أجل تنمية حجم مقدّم جسمي وتقويمه، وقد عانى ما عاناه من اعوجاج قامتي المستمر. لم أتمكنَ من السيطرة على نوابض الجهاز التي تقفز مجنونةً في وجهك متهدِّدةً متوعِّدةً، إنْ كنتَ لا تملك القوة الكافية للإبقاء عليها مشدودةً. وحقيقةُ المشكلة، كما شرحتُ مرةً لأمي التي لم تُخفِ

تعاطفها معي، أنّ صدري أكبر بكثير من الحجم الطبيعيّ ؛ فإنْ أنا دَفَعتُه إلى أمام بعدوانية ووسّعته أكثر مما هو واسع، تحولتُ إلى صورة كاريكاتورية فظّة عن رجلٍ برميليّ الصدر مكتمل النمو. تفهمتْ أمي الأمر وحاولتْ إقناع أبي به، دون نتائج تُذكر. فالحال أنه عندما كان في الولايات المتحدة تأثّر أيّما تأثر بغريغوري سانداو، بطل كمال الأجسام الأسطوريّ ذي الصدر المتضخم النموّ والظهرِ المستقيم، الذي مثّل في فيلم «عوليس». فقال لي أبي ذات مرة إنّ ما يَصْلح لسانداو «يجب أن يكون صالحًا لك».

على أنّ مقاومتي المتكررة كانت تدفع أبي إلى حدود اليأس فيلطمني لطمات موجعةً حول كتفيّ، بل إنّه سدّد مرةً قبضةً عنيفة إلى ظهري. وكان بمقدوره أن يكون عنيفًا من الناحية الجسدانية فيصفعني صفعات قوية على وجهي وعنقي، فأنكمش عنها أو أتجنّبها بطريقةٍ تشعرني بمَذَلّة كبيرة. أسفتُ لقوته وضعفي أسفًا لا تستطيع الكلماتُ التعبيرَ عنه، ولكنْ لم يَصْدر عني ردّ أو احتجاح حتى عندما اعتدى عليّ بالضرب المبرِّح على نحو مُهين وأنا طالبُ دراساتٍ عليا في هارڤارد، عقاباً على وقاحتي، كما صرّح لأمي. فتعلمتُ أن أتحسس مجيء الصفعة من طريقته الغريبة في مصّ شفته السفلى إلى داخل فمه وأَخْذِه نَفَسًا عميقًا فجأةً. وكنتُ أؤْثر العناية المدروسة التي يَجْلدني بها – مستخدمًا مهمازَ الخيل – على العنف الغريزيّ الحانق والمخيف لصفعاته ولكماته التي تنهال على وجهي. وكانت أمي تصفعني هي أيضًا عندما تتملكها سورةُ الغضب، ولكنّ صفعاتها كانت أقل تواترًا وأضعف وقعًا من صفعاته.

الكتابة عن هذا الأمر الآن، وأنا في طورٍ متقدم من حياتي، مناسبةٌ لتدوين تلك التجارب بوصفها كلاً متكاملاً. والغريب أنها لم تخلِّف عندي أيَّ غضب، وإن تكن خلّفتْ بعضَ الحزن. وما يفاجئني أنها رسّختْ فيَّ حبًا لأهلي مترسِّبًا وعجيبًا في قوته. فقد تعايشتْ كلُّ الإجراءات الإصلاحية التي مارسها أبي عليّ مع تصميم غريب لديه على تركي أَسْلك طريقي بنفسي في ما بعد، وقد كان بالغَ السخاء خلال دراستي في پرينستون وهارڤارد ودائمَ التشجيع لي على السفر ومواصلة دروس البيانو والعيش عيشًا رخيًا، هذا إلى استعداده الدائم لتسديد ديوني (على طريقته الخاصة، طبعًا). غير أنّ ذلك أبعدني عنه بوصفي ابنه الوحيد والوريثَ المحتملَ

الوحيد للتجارة العائلية، تلك التي باعها بهدوء في السنة التي نلتُ فيها شهادة الدكتوراه في الآداب. ولكني لن أستطيع أن أغفر له أنّ ذلك التنازع على جسدي، وفرضَه الإصلاحاتِ والعقوباتِ الجسدانيةَ عليه، رَسَّخا لديّ شعورًا عميقًا بالخوف العميم الذي قضيتُ معظم حياتي أحاول التغلّب عليه. وما أزال أفكر أحيانًا أني جبان، تتوعدني كارثةٌ جبارة ضامرة تتحفز للانقضاض عليَّ بسبب ذنوبٍ ارتكبتُها وسوف أُعاقَب عليها لا محالة في القريب العاجل.

ما لبث خوفُ أهلي من جسدي الناقص والمعيب أخلاقيًا أن انسحب على مظهري. فعندما كنتُ ما أزال في حوالى الخامسة، جزّوا شعري المجعّد الطويل في قَصّة قصيرة عادية. ولما كنتُ أتمتع بصوت «سوپرانو» لا بأس به وتجدني أمي المولعة بي «حُلوًا»، فقد شعرتُ باستنكار أبي لذلك بل بجزعه من أن أكون «مخنّثًا»، وهي كلمة قضّت مضجعي إلى أن بلغتُ العاشرة. ومن الأمور الغريبة في مراهقتي المبكرة تهجُّمُه على «رخاوة» وجهي، وخصوصًا فمي. كانت أمي تروي قصتين أثيرتين: الأولى عن ليوناردو دا ڤينشي وكيف أنه استخدم رجلاً كنموذج لصورة يسوع، وبعد سنوات مضت على تهتّك الرجل ذاته، استخدمه مجددًا ولكنْ كنموذج لتصوير يهوذا الاسخريوطي. والقصة الثانية هي استشهادها بلنكولن الذي دان شخصًا لبشاعته فتحدّاه أحدُ أصدقائه بقوله إنّ أحدًا ليس مسؤولاً عن بشاعته، ويروى أنّ لنكولن قال له: «كل امرئ مسؤول عن وجهه». وعندما كنتُ أوَبِّخُ لجنوحي ضد شقيقاتي أو لكذبي بصدد التهامي كلَّ قطع الحلوى أو لإنفاقي كلَّ المال الذي أُعطيتُه، يمدّ أبي يده فجأةً إلى أمام، واضعًا إبهمه والسبّابة على جانبَيْ فمي ضاغطًا عليه قارصًا المنطقة كلها في عدد من النخعات القصيرة القوية إلى اليسار والى اليمين وهو يُصدر همهمةً كريهة – «مممممممممم» – يَعْقبها فورًا قولُه: «هذا الفم الرخو الذي لك». وأَذْكر وقفاتي المطوّلة أمام المرآة أرى إلى نفسي بقرفٍ إلى أن جاوزتُ سنِّي العشرين، أُمارس التمارين، كإبراز فمي إلى أمام، والكزِّ على أسناني رافعًا ذقني إلى أعلى عشرين أو ثلاثين مرة، في محاولة جاهدة لـ«شدّ» ما تهدّل من وجهي. وكان نموذجي الأول طريقة غلين فورد في الشدّ على عضلات فكّيْه تعبيرًا عن الجبروت المعنويّ وعن المشقّات التي كُتِبَ على «الأقوياء» أن يعانوها، فحاولتُ تقليده في ردود أفعالي على اتهامات أهلي. واستتباعًا لرخاوة وجهي وفمي، منعني

أهلي من وضع النظارات، وقد أفتتْ أمي، الدائمةُ الاستعدادِ لخلط الإدانة بالإطراء، في أنّ النظارات إنما تعتّم على «وجهك الحلوِ هذا».

أما جذعي فلم يُثِرْ أيُّ تعليق يُذكَر إلى أن بلغتُ الثالثة عشرة، أيْ قبل سنة من انتسابي إلى «ڤكتوريا كوليدج» عام ١٩٤٩. تعرّف أبي إلى رجل في نادي الجزيرة يدعى السيّد مراد كان قد فتح للتوّ ناديًا للتمارين الرياضية في شقة بشارع فؤاد الأول في الزمالك، لا تبعد أكثر من نصف ميلٍ عن بيتنا. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وجدتني مسجَّلاً عنده لثلاثة دروس في الأسبوع مع نصف دستة من الكويتيين أمّوا القاهرة للدراسة. تضمنت التمارينُ ثنيَ الرُّكبتَيْن وتقاذُفَ «الكرات الطبّية» ورفعَ الأثقال وتنميةَ عضلات البطن والهرولةَ والقفزَ (وكل ذلك في حجرة مربّعة منمنمة). وسرعان ما صرتُ كبش المحرقة لمعلّمنا النحيل، السيد رجب، الذي كان يصيح بي بإنكليزية متغطرسة: «مزيدًا من الجهد»، «فوق، تحت، فوق، تحت»، إلخ. ووقعتِ الواقعةُ بعد مضيّ أسابيع معدودة: «هلمّ إدوارد»، قال مزدريًا تمارينَ تقوية عضلات البطن التي أقوم بها، «يجب أن نعيد إلى بطنك هذا شكله». وعندما قلتُ إني ظننتُ أنّ ظهري هو الهدف من وجودي في ناديه الرياضيّ، وافقني لكنه أردف قائلاً إنّ جذعي ليس صلبًا بما فيه الكفاية، «في كل الأحوال، هذا ما يريدنا والداك أن نفعله». لم أُثِرِ الموضوعَ قطّ مع أهلي، لحرجي الكبير الناجم عن معرفتي رأيَهم في جذعي. وهكذا تولّد شَرخٌ آخر في علاقتي بجسدي. وإذ ارتضيتُ الحكمَ الصادر عليّ، استبطنتُ النقد وازداد حرجي وانعدامُ ثقتي بهويتي الجسدانية.

أصبحتْ يداي الإشكاليتان الميدانَ المميَّزَ لاهتمام أمي النقديّ. وعلى الرغم من أني كنتُ أدرك، ولو بطريقةٍ غامضة، أني لا أشبه آل سعيد (وهم قصار وجسامٌ وشديدو السمرة) ولا أقاربَها من آل موسى (وهم بِيضُ البشرة، متوسطو القامة والبنية، ولهم أصابع وأطراف أطول من المعتاد)، فقد اتضح لي أني أملك طاقاتٍ من القوة الجسدية ومن المؤهّلات الرياضية حُرِمَها سواي. فعند بلوغي الثانية عشرة، كنتُ أطول بكثير من أيّ فرد آخر من أفراد العائلة، وبفضل إلحاح أبي المستغرَب، جمّعتُ علْمًا وخبرةً في ألعاب رياضية عدة، بما فيها كرةُ المضرب والسباحةُ وكرةُ القدم (على الرغم من إخفاقي الملحوظ فيها) وركوبُ الخيل وألعابُ الميدان

والكريكيت وكرةُ الطاولة والملاحةُ البحرية والملاكمة. ولئن كنتُ لم أُبرِّز في أيّ منها فلأنّ خجلي الشديد عطّل قدرتي على السيطرة على الخصم، على أنه نَمَتْ عندي مهارةٌ طبيعية كبيرة فيها جميعًا. وهذا ما سمح لي أن أنمّي، عبر السنين، قوتي البدنية وبعضَ العضلات وزخمًا ونَفَسًا خارقيْن، وما أزال أتمتع بهاتين الميزتين الأخيرتين. كانت يداي كبيرتين بنوع خاص، ومعروقتيْن بطريقة استثنائية ورشيقتيْن، فإذا بهما في عين أمي تارةً موضعَ إعجاب حدُّ العبادة (الأنامل المطاولة النحيلة، أشكالها المتناسقة، ورشاقتها الرائعة) وطورًا موضعَ إدانةٍ شبهِ هستيرية («يداك هاتان أدوات قاتلة»؛ «سوف تُوديان بك إلى التهلكة»؛ «حذارِ»).

رأت أمي في يديّ كل شيء سوى أنهما يدان. رأت فيهما مطرقتيْن وكلاّبتيْن وهراوتيْن وأسلاكًا فولاذية وأظافرَ ومقصّاتٍ. وحين يهدأ روعُها ويسكن هياجُها، تراهما أرفَع أنواع الأدوات وأكثرها رقةً. أما مصدر اهتمام أبي بيديّ فكان أظافري التي كنتُ أقضمها باستمرار، فحاول لعقود من الزمن ثنيي عن فعلتي إلى درجة أنه خَضّبهما بمحلولٍ طبّي كريه المذاق ووعدني بحفلة مانيكور فاخرة عند «شي جورج»، الحلاق الفخم الذي يقصّ له شعره في شارع قصر النيل. لكنه عبثًا حاول، مع أني كنتُ أحيانًا كثيرة أخفي يديّ في جيوبي وأنا أتفادى تحديقه حتى لا َيلْفت «ظهري» نظرَه أو نظرَ أيٍّ سواه.

وقد تمازج المعنويُّ مع الجسديّ أكثرَ ما تمازجا عندما كان الأمر يتعلّق بلساني الذي حظي بسلسلة كثيفة من الاستعارات والتشبيهات في العربية، معظمُها سلبيّ، تتكرر، في حالي، بوتيرة متسارعة. في الإنكليزية، كنتَ تسمع فقط عن «لسان مُقْذِع» أو «لسان سليط» في مقابل «اللسان العذب». وعندما تنفلت مني عبارةٌ نابية، يُلقى اللومُ فيها على لساني «الطويل» والعدوانيّ والمنفّر والمنفلت من عقاله. وهذا النعت شائع في العربية لتعيير مَنْ يفتقر إلى الدماثة والبلاغة، وكلاهما من الخصال الحميدة في معظم المجتمعات العربية. والحقيقة أنّ كبتي هو سبب سوراتي الدورية، ذلك أني بالغتُ في التعويض عن ذلك الكبت – في الاتجاه المعاكس. أضِفْ إلى ذلك استهتاري بكل اللياقات في مخاطبة الأهل والأقارب والشيوخ والأساتذة والأشقّاء والشقيقات على حد سواء. وهذا ما لاحَظَتْه أمي التي كانت تصعِّد الذَّنْب إلى مصاف النذير بعواقب وخيمة آتية. يضاف إلى هذا، عجزي

المطلقُ عن كتم الأسرار أو مجاراة الآخرين في انتقاء ما يجوز أو لا يجوز قولُه من الكلام. من هنا، اعتُبِرتُ، في إطار اللغة العربية، شاذّاً عن السلوك القويم وكائنًا فظًا يجدر بالآخرين تجنّبه.

ولعلّ المسألة الأساسية كانت الجنس، أو بالأحرى الحظرَ الذي ألقاه أهلي على تدخُّله في حياتي، وتعطيلِهم لمفاعيله حين لم يكن في مقدروهم طردُه منها. تصوَّرْ أني عندما غادرتُ الولايات المتحدة عام ١٩٥١، وأنا في الخامسة عشرة من العمر، كنتُ ما أزال متبتلاً كليًا ومعاشرتي الفتيات معدومةً. حتى إنّ أفلامًا مثل «قُطّاع الطُرُق» و«مبارزة تحت الشمس» وحتى «فابيولا»، المسرحية ذات الازياء التاريخية التي تمثّل فيها ميشيل مورغان، وقد رغبتُ رغبةً شديدةً في مشاهدتها، كانت محظورةً عليّ بحجة أنها «غير مناسِبة للأطفال». وقد استمرتْ تلك المحظورات ساريةَ المفعول إلى حين بلوغي الرابعة عشرة. ولم يكن يوجد مجلاتٌ جنسية أو أفلامُ ڤيديو إباحية متوافرة علنًا في تلك الأيام. ثم إنّ المدارس التي ارتَدْتها في مصر والولايات المتحدة إلى حين بلوغي السابعة عشرة والنصف كانت تُوَلدِنُ كلَّ شيء وتنزع عنه كلَّ صفة جنسية. وينطبق الأمر ذاتُه على جامعة پرينستون حيث درستُ إلى حين بلوغي الحادية والعشرين. كان الجنس ممنوعًا في كل مكان، بما في ذلك الكتب، على الرغم من أنّ فضولي وتوافُرَ الكتب في مكتبتنا حالا دون تطبيق المنع الكامل في هذا الميدان. فقد قرأتُ وصفًا يتضمّن التفاصيل الوافية عن العملية الجنسية في مذكرات ويلفرد ده سانت ماندي عن الحرب العالمية الأولى. والكاتب ضابط بريطانيّ لم أكن أعرف عنه شيئًا سوى أنه ينتقل من ساحة الوغى إلى المواقعة الجنسية وبالعكس خلال ما يزيد على ستمئة صفحة. وحقيقة الأمر أنّ سانت ماندي صار واحدًا من رفقاء مراهقتي الصامتين السريين. ولم يكن ذلك العسكريّ المتهتّك، والهمجيُّ المتعطش إلى الدم، ابنُ الارستقراطية البريطانية، بالقدوة الحسنة، ولكني لم آبه للأمر، بل زاد من تعلّقي به. وهكذا أُبعدتُ بعناية في حياتي العلنية عن كلِّ ما من شأنه إثارةُ الغريزة الجنسية، دون أن يؤتى على ذكر الأمر إطلاقًا. لكنّ حاجتي العارمة إلى المعرفة والاختبار هي التي خرقتْ قيود الأهل، إلى أنْ حدثتْ مواجهة علنية ما أزال أرتعد لذكراها بعد مضيّ ست وأربعين سنة عليها.

فبعد ظهر يوم أحدٍ قارسِ البرد في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٤٩، وفي تمام الساعة الثالثة، وبعد أسابيع معدودةٍ من بلوغي الرابعة عشرة، حدث طرقٌ قويّ على باب غرفة نومي أعقبه على الفور لويٌ متسلِّطٌ وصارم لمقبض الباب. وإذا هي زيارةٌ للأهل بعيدةٌ كلُّ البعد من أن تكون ودّية. بل هي كبسةٌ شرسةٌ بامتياز على شخصي، جرى الإعدادُ لها خلال ما لا يقلّ عن ثلاث سنوات إلى حين بلوغها تلك الذروة، ونُفِّذتْ باستقامة لا يأتيها الباطلُ من أمام أو وراء، وكلُّ ذلك «لصالحكَ»، كما قالوا. وقف أبي قرب الباب للحظة ممسكًا بقرفٍ القطعةَ السفليةَ من منامتي بيده اليمنى، وقد تذكرتُ يائسًا أني تركتُها في الحمام ذلك الصباح. فممدتُ يديّ لالتقاط الأداة الجُرْمية، متوقعًا أنْ يؤنّبني، كما فَعَلَ مرةً أو مرتين من قبل، لتركي أشيائي متناثرةً خلفي («رجاءً، ضُبّها في مكانها؛ لا تتركْ أغراضك ليلمّها عنك شخص آخر»)، مضيفًا أنّ الخدم ليسوا موجودين من أجل راحتي الشخصية.

ولكنّي أيقنتُ أنّ الأمر أكثر خطورةً مما ظننتُ للوهلة الاولى، حين ظلّ ممسكًا بقطعة الثياب في يده. فغُصْتُ في السرير متحيِّنًا الهجومَ بقلق. وعندما بلغ وسط الغرفة، وفيما هو يهمّ بالكلام، شاهدتُ وجه أمي الممتقع يؤطِّره البابُ على مبعدةِ خطواتٍ منه. لم تنبسْ ببنت شفة، بل حضرتْ لإضفاء ثقل عاطفيٍّ على ادعائه عليّ في تلك القضية. «أنا وأمك لاحظنا» – قال ملوِّحًا بالمنامة – «أنك لم تستحلم. وهذا يعني أنك تَعْبث بجسدك». ولم يكن قد أَطْلق العبارة على نحوٍ اتهاميّ من قبل، على رغم أنّ مخاطر «العبث بالجسد» وفضائلَ الاستحلام كانت موضوعَ محاضراتٍ وشروحٍ جمّة أُلقِيَتْ عليّ خلال نزهة على ظهر الباخرة «ساتورنيا» خلال إبحارنا إلى نيويورك في تموز/يوليو ١٩٤٨.

جاءت المحاضرات والشروح ردًا على سؤال كنتُ قد وجّهتُه إلى أمي عن زوجين صغيرين قويي البنية من مغنّي الأوبرا الإيطاليين أبحرا معنا على متن الباخرة «ساتورنيا». كانت ترتدي كعبًا عاليًا جدًا وثوبًا أبيض يهصر جسدها هصرًا، وشفتاها مثقلتيْن بأحمر الشفاه، وكان هو يزهو في بذلة بنّية برّاقة منتعلاً حذاءً عالي الكعب وقد ملّس شعَره إلى الخلف بعناية. وكان ينبعث منهما شَبَقٌ طافح لم أستطع الربط بينه وبين أية ممارسات جنسية محددة. وعلى حين غفلة،

سألتُ أمي بارتباك وتلعثم كيف «يفعلها» هؤلاء القوم، إذ لم أكن أعرف الكلمات المناسبة لذاك «الفعل»، ولا الكلمة المناسبة للقضيب أو الفرج أو الملاعبة، فكلُّ ما استطعتُه هو إيراد التبوّل والتبرّز في سؤالي وقد خطر لي، لسببٍ ما، أنهما يدلان على اللذة أيضًا. فإذا بنظرة جزعٍ وقرفٍ على وجه أمي ترمي بي إلى حوار «من رجل إلى رجل» مع أبي. والحال أنّ القسم الأكبر من سلطانه الطاغي ومن قوته القاهرة عليّ كان يكمن في تلك التوليفة الغريبة من الصمت ومن تكراره لكليشيهات التقطها من أماكن متنوعة: من كتاب **أيام طوم براون في المدرسة** ومن «جمعية الشبان المسيحيين» ومن دروس فن التسويق ومن التوراة والمواعظ الإنجيلية ومسرحيات شيكسبير وما إليها.

«فكِّرْ بكأس تمتلئ رويدًا رويدًا بسائلٍ ما»، هكذا استهلّ أبي حديثه، «وما إنْ تطفح الكأس» – وهنا كَوَّرَ يدًا وباليد الثانية قَشَطَ السائل الافتراضيّ الفائض [من اليد الأولى] – «حتى يكون من الطبيعي أن يفيض السائل منها، فإذا أنت تستحلِم». صمتَ لبرهة. ثم واصل حديثَه المجازيّ: «هل شاهدتَ مرةً فرسًا تكسب السباق دون أن تواظب على خَطْوٍ ثابت؟ لا، بالطبع. فإنْ هي بدأتِ السباقَ متقدمةً على الآخرين، فإنها لن تلبث أن تتعب وتتخلّف عن الرَّكْب. الأمر نفسه ينطبق عليك. إذا أخذت «تعبث بجسدك»، لن تمتلئ كأسُك ولن تفيض ولن تكسب سباقًا، بل لن تصل إلى نهاية الشوط». وفي مناسبة مماثلة، أضاف التحذيرَ من إصابتي بالصلع أو الجنون، أو بكليهما معًا، جرّاء «العبث بالجسد» الذي نادرًا ما كان يشير إليه بـ «الاستمناء» وهي كلمة كان يَلْفظها بنبرة لومٍ مخيفة.

لم يتكلم أبي مرةً عن ممارسة الحب، ناهيك عن النِّ..... وعندما طرحتُ السؤال عن كيفية ولادة الأطفال، كان الجواب أقرب إلى ترسيمة جاهزة. حتى إنّ حَمْل أمي المتكرر، وخصوصًا انتفاخ بطنها بطريقةٍ تُنْذر بالخطر خلاله، لم يُسهم في حسم المسألة. كانت تعتمد الجواب نفسَه دائمًا: «كتبنا رسالةً إلى يسوع فَبَعَثَ إلينا بطفل!». أما ما قاله أبي بعد تحذيره الصارم على ظهر الباخرة من «العبث بالجسد» فكلماتٌ شحيحة، كأنه يُقفل بها البحث، عن كيفية وضع الرجل «أعضاءه الحميمة» في «الأعضاء الحميمة» الخاصة بالمرأة. فلا شيء عن النشوة أو القذف، أو عن موضع تلك «الأعضاء الحميمة» من الجسم. وهو لم يأتِ مرةً على ذِكْر اللذة.

أما التقبيل، فقد أشار إليه مرة واحدة فقط خلال السنوات التي كنا فيها معًا. «يجب أن تتزوج امرأة»، قال لي عندما كنتُ في الكلية، «ما باس فمها إلاّ أمها». ولم يوْتَ حتى على ذِكر العذرية، وهو المفهوم المبهم الذي سمعتُ به في مدرسة الأحد ثم خلال دروس التعليم الدينيّ، فلم يكتسب عندي معنًى محددًا إلا عند بلوغي العشرين.

بعد أن عدنا إلى الولايات المتحدة، في خريف ١٩٤٨، سنحتْ مناسبتان أو ثلاث مناسبات لنتحادث من رجل إلى رجل، يساورني فيها كلُّ مرة شعورٌ متنامٍ بالانتهاك والذَّنْب. سألتُه ذات مرة كيف يَعْلم المرءُ أنه قد استحلم. «تَعْلم ذلك في الصباح»، كان جوابَه الأول. وكما العادة، ترددتُ في الاستزادة من الأسئلة. على أني ما لبثتُ أن أقدمتُ عندما أثار الموضوعَ مجددًا، مرفِقًا إياه برواية أكثر تزويقًا عن شرور «العبث بالجسد» (وَرَدَ فيها أنّ الرجل يُضْحي «عديمَ النفع» و«فاشلاً» إذ يتمكن منه الانحطاطُ نهائيًا). «الاستحلام إفرازٌ ليليّ»، قال كأنه يقرأ في كتاب. «هل هو مثل الپيپي؟» سألتُه مستخدمًا التعبير المخفّف الذي نستخدمه جميعًا للتبوّل (كان لفظ «پيپي» البديلَ الأقلَّ مجازفةً بالتأكيد، تنهاني أمي دائمًا عن استخدامه فلا أتفوّه به إلا عندما «أتشيطن»، مثل قولي لإحدى شقيقاتي «أستطيع أن أرى سروالكِ الداخلي!!»، بما هو فعلٌ إضافيٌّ من أفعال العصيان والعناد).

«نعم، إنه يشبه التبوّل، إلى حد ما، لكنه دبِقٌ أكثر من البَول ويَعْلَق على منامتك»، قال إذذاك. ففهمتُ لماذا كان يحمل منامتي بطريقة مخبرية في يده اليسرى، فيما هو يقف على مبعدة خطوات من سريري. «لا أرى أيَّ شيء عالقًا على هذه المنامة إطلاقًا»، قال لي بعبوس ونظرةِ قرف، «لا شيء. كم مرةً حذّرتُكَ من مخاطر العبث بجسدك؟ ماذا دهاك؟». ثم رنا صمتٌ، فيما رحتُ ألقي نظرةً خاطفة تتجاوز أبي نحو أمي. ورغم معرفتي أنها تتعاطف معي في قرارة نفسها معظمَ الأحيان، فإنها نادرًا ما تنشقّ عن معسكر أبي. في تلك اللحظة، لم ألقَ منها أيَّ تعاطفٍ على الإطلاق. كلّ ما رأيتُه نظرةٌ متسائلة وَجِلة، كأنها تقول: «صحيح، إدوارد، ما الذي أنتَ فاعله؟» وقد أضافتْ إليها القليلَ مِنْ «لماذا ترتكب هذه الأفعال الشريرة التي تؤذينا؟».

امتلكتْني للفور حالٌ من الرعب والذنب والعيب والهشاشة، إلى درجة أني لن أنسى ذلك المشهد ما حييتُ. وأهمُّ ما في تلك المشاعر كيفيةُ تركّزها على أبي الذي

سامتني إدانتُه الباردةُ لي، وأنا في سريري، الإفحامَ والهزيمةَ. لم يكن لي ما أعترف له به مما لم يكن يعرفه أصلاً. لم يكن لي أيُّ عذر. فحقيقة الأمر أني لم أستحلم، مع أني خلال العام المنصرم كثيرًا ما كنتُ أستيقظ من النوم متوجِّسًا، أُنقِّب في السرير وفي منامتي عن دليلٍ يدلّ على حصوله. فلقد قطعتُ أشواطًا في انحداري إلى التهلكة، وربما إلى الصلع أيضًا. (وقد فزعتُ ذاتَ مرةٍ بعد الحمّام إذ لاحظتُ أن شعري المبلّل، وهو كثٌ جدًا في العادة، قد ظهرتْ عليه بقعٌ دالّة على الصلع. وقد توجستُ أيضًا من أن يكون إصرارُ أبي على قصّ شعري تكرارًا يراد منه قطعُ الطريق على ظهور تلك الآثار المبكّرة للعبث بالجسد. «قُصُّ شعرَك تكرارًا وقُصّه قصيرًا مثل قَصّة شَعر أبيك»، كان يقول، «يبقَ قويًا وكثًا»). هكذا انكشف سرّي. وكلُّ ما خطر في بالي هو أنه لا مكان ألجأ إليه هربًا من العقاب الرهيب الذي سوف يحلّ بي لا محالة. وبطريقةٍ ما، بعث فيّ القلقُ الغامضُ والطاغي الذي عانيتُه شعورًا محددًا جدًا بالخطر، وللحظةٍ شعرتُ وكأني أتشبث بـ«إدوارد» إنقاذًا له من الانقراض.

«ليس لديكَ ما تقوله، أليس كذلك؟»، أخذ أبي نفسًا سريعًا ثم كانت الذروة، إذ قذف بالقطعة السفلية من منامتي نحوي بعنف وبما بدا لي أنه منتهى القرف اليائس: «حسنًا، إذًا، استحلِمْ!». صدمني الأمر القاطع – فهل يستطيع المرء فعلاً أن يستحلم بهذه البساطة متى يشاء؟ – ففصتُ أكثر فأكثر في سريري. ثم حين ظننتُه يهمّ بالمغادرة، عاد والتفتَ إليّ مجددًا:

«أين تعلمتَ العبث بجسدك؟» فكأن أعجوبة وقعتْ فأعطتني مخرجًا لأَنْفذ بجلدي من تلك الورطة. تذكرتُ في ومضةِ ذهنٍ أني منذ أسابيع معدودة، قرابةَ نهاية الصيف، وقبل بداية الفصل الدراسيّ، كنتُ أتسكع في غرفة تبديل الشباب لملابسهم في نادي المعادي. وكان في ذلك الحين ناديَ أبي الأثيرَ للعب الغولف والبريدج إلا أنّ معارفي فيه كانوا قلائل نسبيًا. وكنتُ، بخجلي المعهود، أَدْخل غرفةَ تبديل الملابس لارتداء المايوه فأتلكأ فيها على أملِ عقدِ صداقة جديدة أو مصادفةِ أحدِ المعارف القدامى. ولكنْ ما من شيء كان يخفِّف من شعوري بالتوحّد. في تلك المرة، اقتحم الغرفةَ عصبةٌ من الفتيان يكبرونني سنًا، يَرْشحون ماءً من السباحة، يتقدمهم إيهاب، الفتى الطويل جدًا والنحيل جدًا الذي يشي صوتُه العميق بالثقة

بالنفس: كان ثريًا ومطمئنًا ومستقرًا وفي مكانه. «هيّا إيهاب، اِفْعَلْها»، ألحّ عليه الآخرون. كنتُ قد شاهدتُه من قبل ولكننا لم نتعارف، فلم يكن أبَوَانا على معرفةٍ واحدهما بالآخر، وكنتُ ما أزال متّكلاً على مثل هذا النوع من التعريف الأبويّ. أنزل إيهاب سرواله، واعتلى المقعد، وفيما هو يتلصص من فوق الجدار على منطقة التشمّس حول حوض السباحة، بدأ يستمني. سمعتُني تتفلّت مني كلمات «افعلْها على نيّة كوليت». وكوليت فتاة عشرينية جذابة جنسيًا ترتدي دائمًا مايوهًا أسود، وكانت تَنْعم عليّ بحضور طيفها استيهاماتي الجنسية. لم يسمعني أحد، فحسبتُني جحشًا فاحمرّ وجهي خجلاً على غير إرادة مني، ولكنْ بدا أنّ أحدًا لم يلاحظ ذلك أيضًا. فالجميع يراقب إيهاب وهو يشوص فرخه ببطء، إلى أن قَذَفَ أخيرًا، وببطءٍ أيضًا، مُطْلقًا ضحكةً مغرورة وهو يَعْرض علينا أصابعه الدبقة كأنه فاز للتوّ بكأس في مباراة رياضية.

«كان ذلك في النادي. فَعَلَها إيهاب»، أفشيتُ ذلك لأبي وهو لا يدري مَنْ هو إيهاب ولا ما كنتُ أحاول قوله. فأدركتُ أنه لم يسألني سؤالاً محددًا، بل كان يطرح سؤالاً مجازيًا. كنتُ مُذْنبًا، بالطبع. وهو يَعرف ذلك قطعًا. ثم إنّ ذنوبي قد انكشفتْ أمام أمي التي لم تنبس بكلمة وإنما ظهرتْ على محيّاها علاماتُ رعبٍ لا يكاد يَفْقه ما يجري حوله، بل قُلْ تفجُّعَ أمٍ ثكلى.

لم يبدُ أنّ أبي كان مهتمًا كثيرًا بالشرح الذي قدّمتُ، ولا كان يصغي خلال الثواني التالية التي تفوهتُ فيها بإعلاناتي الخرقاء عن التصميم على أن تكون أفعالي التاليةُ هي لغرض الإصلاح الذاتيّ. لقد كَشَفَ أمري فوجدني مقصِّرًا، وكان يدري أيّ ضرر أُحدثه لنفسي، فحَكَمَ عليّ بأني ضعيف وغيرُ أهلٍ للثقة على الإطلاق. وهذا كلّ ما في الأمر. فقد سَبَقَ أن حدّثني عن الكأس وفرس السباق، وعن الصلع والجنون. وكَرَزَ عليّ مواعظه ما لا يقلّ عن ثماني مرات، وكلُّ ما يستطيعه الآن هو أن يكرّرها مجددًا أو يكتفي بتسجيل الجريمة «بحكمة» (وهي كلمة يحلو له استخدامُها) ويمضي في حال سبيله، موقنًا أنّ سلطته وحُكْمه الأخلاقيَّ صامدان على نحوٍ خارق ولم يصابا بخدش. فلم أعاقَب على رذيلتي السرّية، ولم يجرِ تذكيري بها. لكني لم أقتنع بأنّي أفلتُّ بخفة. فلقد أُضيفَ هذا الإخفاقُ المؤكد الذي سجّلتُه على نفسي، كما تجسّد في ذلك المشهد المسرحيّ

بامتياز، مثلَ شرخٍ جديدٍ ذي طاقة تدميرية عظيمة، إلى بنية «إدوارد» الهشة والمتخلخلةِ أصلاً.

خلال السنوات العديدة التي قضيناها في القاهرة، مارس أبي رقابةً من نوع أكثر علانية لأنه كان أحد الأوائل في مصر الذين امتلكوا بفخرٍ آلةَ تصويرٍ سينمائيةً من عيار ٨ ميليمترات. وكان بالغ الانشغال بتسجيل مشهد متكررٍ تلو مشهد لـ«إدوارد» وأمِه وأبناءِ عمومته وعماته وعمومته (لا أحد خارج العائلة) يلعبون أو يرتاحون بسعادة وهناءة الرعوية متحررين من المتاعب. بهرتني الآلة المسطحة المستطيلة التي تنبعث منها رائحةُ البلاستيك، بدواخلها المعقدة ومسالكها المتماوجة التي يمرّ الفيلمُ من خلالها، وما يستدعيه ذلك من صبر خلال التعبئة والتسليك وإخراج الفيلم. ولم يكن أيٌّ من والديّ على مقدار كبير من المهارة، وهي إعاقة يبدو أني ورثتُها منهما في ما يتعلق بالشؤون العملية، بل إنّ أبي كان أخرقَ بالتأكيد. فقد كان يشتري الأفلامَ في بَكَرات صغيرة ويعبِّئها في الكاميرا بطريقة مستهترة إلى حد أنها تستعصي، فيستخرج فيلمًا آخر، وينتزع الفيلم القديم بغضب من الآلة ويرميه جانبًا، ثم يعبئ الكاميرا بالفيلم الجديد ويباشر التصوير أخيرًا. وكان يسير كلَّ بضعة أسابيع إلى محل «كوداك» في شارع عدلي باشا لتسليم الأفلام للتظهير، وبدأتُ أُرافقه عندما بلغتُ الثامنة، فكنتُ أراه يجمّع الأفلام في أربع بكرات كبيرة أو خمس، والحجمُ الكبيرُ أكثر ملاءمةً لأنه يتيح ثلاثينَ دقيقةً من العرض المتواصل على آلة العرض.

مرة أو مرتين في الشهر، كنا نمارس طقس إسدال ستائر غرفة الجلوس الشاسعة وتركيز آلة العرض المتطوّرة، الدائمةِ البريقِ، على منضدة القهوة الصغيرة الحديثة ونَنْصب الشاشة المركزة على سِيبة ثلاثية. وإذ تَعْبق رائحة الطزاجة الميكانيكية المصقولة في أرجاء الغرفة، نطفئ الأنوار ونستقرّ في كنكنةٍ على مقاعد الدار الكبيرة المزدحمة والكراسيّ، نشاهد أنفسنا في حديقة الحيوان وفي «سيران» على طريق الصحراء أو عند الهرم.

بعد شهور ستة على وفاة أمي عام ١٩٩٠، عثرنا في قعر إحدى خزائنها في بيروت على كدسة كبيرة من الأفلام معلّبةً بعناية في علب بيضاء وزرقاء صنعها أبي خصيصًا لها بواسطة موظفي محلّه للقرطاسيات والتجليد. بلغ عددها نحوًا من

خمس وثلاثين علبةً تحوي ما مجموعه ١٢٠ فيلمًا صُوّرت بين عاميْ ١٩٣٩ و١٩٥٢، وقد عَنْون أبي البعض منها بخطه الرديء – «القاهرة ١٩٤٤»، «القدس ١٩٤٥»، «زواج يوسف» – وتنبعث منها رائحةٌ، بل ملمسٌ، أمسيات العروض السينمائية أيامَ زمان. حملتُها معي إلى منزلي في نيويورك حيث قَبعتْ سنواتٍ في صندوقٍ كرتونيّ غريب، وأنا أتساءل بفضول بين حين وآخر أيةُ حقبة من حياتنا القديمة محفوظةٌ فيها، فيما راحت هي تنحدر ببطء في النسيان والإهمال.

وتشاء الصُدَفُ أن يجري تأهيلُ تلك الأفلام من جديد. فقد طَلَبَ مني مُخرجان شابان من البي. بي. سي.، يُعدّان فيلمًا تسجيليًا عن تأليفي كتاب **الثقافة والامبريالية**، بعضَ الصور العائلية القديمة، فدفعتْني غريزةٌ غامضة إلى التفكير في الصندوق الذي يحوي الأفلام القابعة في علَبها تنتظر بصبر. وقد أخذَ الشابان الأفلام إلى لُندن حيث حُوّلتْ إلى أفلام ڤيديو.

لم يخب أملي فحسب من رداءة التصوير ومن كثرة الاهتزاز فيه والمشاهد غير المُقنِعة، ولا اقتصر الأمر على أنّ طبع الأفلام جاء إما فاتحًا جدًا وإما مُعتمًا جدًا. بل كانت الأفلام، إلى هذا كله، تستثني الكثيرَ الكثيرَ، فبدت اختزاليةً وجامدةً بإقصائها كلَّ أثر للجهد والقلق من حيواتنا. فالبسمات التي تعلو وجوه الجميع، والحبورُ المستحيل التصديق، وأمي التي تبدو فيها بدينةً أحيانًا (وأنا أذكرها أكثرَ نحولاً وأشدّ مزاجيةً)... كلُّ ذلك أبرزَ النوعيةَ الاصطناعيةَ لماهيتنا: أسرةً تُصرّ على افتعال تصوير نفسها جماعةً أوروبيةً صغيرة، على الرغم من بيئتها المصرية والعربية، وهي بيئة تكتفي الأفلامُ بالتلميح إليها تلميحًا من خلال جَمَلٍ وبستانيّ وخادم وشجرةِ نخيلٍ وهرمٍ وسائقٍ مُتطربِش تمرّ عليهم مرورَ الكرام عينُ كاميرا تركّز خلا ذلك تركيزًا حَصْريًا على الأطفال والأقارب المتنوعين. في الأفلام الأولى مشاهدُ لي ولروزي نلعب: أضعها في كفة «يا طالعة يا نازلة» وأعود مسرعًا إلى الكفة المقابلة، أعتليها نازلاً طالعًا، ثم أتوقف فجأةً وأعود إليها راكضًا لأقبّل خصلات شعرها المعقوصة. وثمة أيضًا مسلسلاتٌ من الأفلام المصوّرة تحت بيتنا في شارع جباليا، الذي يلتقي شارعَ عزيز عثمان سمتًا، بمحاذاة حديقة الأسماك التي لم يتغيّر سُورُها لأكثر من خمسين سنة. وفي شارعٍ خالٍ أساسًا، لا يكاد يَعْبره إنسانٌ – تَلْقى اليوم أرصفتَه ذاتَها تعجّ بالسيارات المتوقفة عليها والشارعَ

ذاته مَرْكزًا لزحمة سير دائمة – تشاهد إدوارد وروزي، ولهما من العمر ست سنوات وأربعُ سنواتٍ على التوالي، واقفيْن على مسافة ثلاثين ذراعًا من الكاميرا، كائنيْن صغيريْن متحمسيْن، ينطنطان بانتظار إشارة غير مرئية تأتيهما من خلف الكاميرا، التي تلتقط وجهيهما المتضخميْن على نحو غرائبيّ بشع، تعلوهما ابتساماتٌ متنوعة اصطُنِعتْ لأغراضٍ مسرحيةٍ محض.

يعاد تمثيلُ المشهد ذاته عشرات المرات: في الزمالك وفي القدس، وفي حديقة الحيوانات والصحراء والنادي، وفي شوارع أخرى في القاهرة: هناك دائمًا تلك الركضةُ اللهوفة والوجوهُ السعيدة ونهايةُ الفيلم غيرُ النهائية. اعتقدتُ أول الأمر، وتذكرتُ بالتأكيد، أنّ تلك وسيلة بدائية لاستظهار الفارق بين الصورة الفوتوغرافية الساكنة والفيلم السينمائيّ المتحرّك. وثمة مسلسلات عدة يَظْهر فيها إدوارد، في العاشرة من عمره، وهو يدفُرُ أبناء عمومته الأكبر منه سنًا خارج صمدةٍ جامدة مبهورة أمام الكاميرا. وكانت الأفلام، في تكراريتها التي تبدو بلا نهاية، أو هي بدت لأبي على الأقل، أشبهَ بمشهد مسرحيّ جرى التمرين عليه سلفًا، نمثّله أمامه فيما هو يسجّل اللقطات بلا كلل. أرادنا أبي أن نظهر وجاهيًا دائمًا، فإذا الأفلام خلو من اللقطات الجانبية، فلا خَطَرَ من أَنْ يَظْهر أحدنا في لقطة من اللقطات عن غير قصد، يرنو بنظرة خاطفة على غفلة أو يَسْلك مسارًا غير مرسوم سلفًا. كانت الكاميرا ترافقنا دومًا عندما نغادر البيت لمسيرةٍ أو نزهةٍ في السيارة. ولعلها كانت أيضًا وسيلة توسّلها أبي لإلقاء القبض على الحيّز العائليّ المنظّم وتكريسه، وهو الحيّز الذي صنعه وبات يتسلطن عليه الآن.

أذكر أني، وقد تقدمتُ في السنّ – أيْ عند بلوغي الحادية عشرة أو الثانية عشرة على وجه التأكيد – صرت أضيق ذرعًا بطقس تكرار المشاهد ذاتها، المرة تلو المرة، أمام كاميرا أبي. وقد ترافق ذلك الشعورُ مع رغبتي في أن أتحرر من جسدي بشكل أو بآخر. ومن تخييلاتي المتكررة في هذا المضمار، وهي أيضًا موضوعُ إنشاءٍ مدرسيّ كتبتُه عندما كنتُ في الثانية عشرة، أني تخيّلتُني وقد أضحيتُ كِتابًا، ظنًا مني أنّ الكتاب ذو مصير سعيد لانعتاقه من التغيّرات غير المستحبّة، ومن التشويهات في الشكل، ومن النقد لمظهره. وكان الكلام المطبوع يتكون في رأيي من مزيجٍ نادرٍ من التعبير، من حيث أسلوبه ومضامينه، ومن الثبات المطلق والكمال من

حيث المظهر. وإذ انتقلُ من يد إلى يد ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، أستطيع المحافظة على كياني الذاتيّ الحقيقيّ (بما أنا كتاب) على الرغم من احتمال أن يرميني أحدُهُم من السيارة أو أن ينساني في قعر درج من الأدراج.

ومع ذلك، تفلّتتْ من خلل شبكة أبي البصرية التي لا تَرْحم بعضُ اللمحات الشاذة عن حياتنا. فهناك مشهدٌ لصِبيةٍ هائمين على وجوههم (وأنا بينهم) يشاهدون تمرينًا لعريس وعروس ينزلان الدرج الأماميّ لبيتنا المقدسيّ عام ١٩٤٧. فكأنّ كاميرا أبي السينمائية أرادت بذلك أن تبزّ، في تَطَلُّبها، آلةَ التصوير الفوتوغرافية، المنقّبةَ والمنصوبةَ على سِيبة، وأن تبزّ على وجه التخصيص خليل رعد الذي تستدعيه عمتي وأبناؤها دومًا في كل مناسبة عائلية مهمة. وكان رعد النحيلُ الأبيضُ الشعر يستغرق وقتًا طويلاً جدًا في تنظيم المجموعة العائلية الكبيرة، ومعها الضيوف، في ترتيب مقبول. وخلال تلك اللحظات، التي يمطّها إلى ما لا نهاية بطريقته النيّقة واستهتاره بالذين يصوّرهم، تكوّن إجماعٌ على أنّ الصمدة أمام آلة التصوير محنةٌ ضروريةٌ من الضرورات التي تَفْرضها المناسباتُ العائلية الرسمية. ولم يَخْطر في بال أحدٍ آنذاك أنّ صور رعد الفوتوغرافية قد تصير أغنى مورد أرشيفيّ لحيوات الفلسطينيين إلى العام ١٩٤٨، أيْ «قبل شتاتهم»، بحسب تعبير وليد الخالدي. والحال أنّ اهتمام أبي بالحركة، ولعلّ ذلك جاء ردًا على نفاد صبره من «رعد»، يشكّل، ربما عن غير قصد، جزءًا آخر من ذلك الأرشيف غير الرسميّ.

وثمة أيضًا مشاهد لعمي بولس، زوجِ عمتي نبيهة (وابنِ عمها في آن)، وهيلينة بدر صبرا، وعمي منير وزوجته لطيفة، وابن عمي البير، يَعْبرون أفلامَ أبي باسمين. وبسبب من استباق الموت الذي يضيفه الناظرُ لاحقًا على المشهد، يَبْدون في أشكالهم المغبّشة، وكأنّهم يتحركون جانبيًا، بعيدًا عن الكاميرا، أو يسيرون وفق إيقاعٍ وقصدٍ مغايريْن كليًا للمتوقَّع.

لا أحد يرتدي في هذه الأفلام ثيابًا غير رسمية أو خفيفة، ربما لأنّ أبي كان يصوّر خلال الشتاء ولا يصوّر قطّ في شمس الشرق الأوسط ذات البريق المرعب. النساء يرتدين فساطين ثقيلة من الساتان الأسود أو الصوف، وأما الرجال فيبدون دومًا في أطقم داكنة اللون، والأطفالُ يرتدون الكنزات ويعتمرون القبعات ويلبسون الجوارب الطويلة. وحدها أمي تَظْهر، لسببٍ ما، في فساطين منقّطة وبلا أكمام

وأحيانًا تعلن ذراعاها المكتنزتان وابتسامتُها الخالبة احتجاجًا باسمًا أَذْكر جيدًا من طفولتي أنها كانت تبوح به بلطف ضد تركيز أبي المغالي عليها بواسطة كاميرته ذاتِ الطنين المتواصل. لم تظهر جدتي ("تيتا") في الأفلام قط، التزامًا بصرامة رغبتها في أن لا تُلتقط لها أيةُ صورة فوتوغرافية. لستُ أدري لماذا كانت تحمل ذاك الشعورَ، ولماذا كانت تصرّ على عدم أكل الشوكولاطة أو احتساء الشاي إلا إذا سُكِبَ الحليبُ في الفنجان أولاً، ولماذا كان على كُلِّ مجموعة من حاجياتها الشخصية (من مناديل ودفاتر ومنامات وأقلام وورق لعب، الخ) أن تُسْكَنَ، بحسب تعبيرها، في حقيبة قماشية صغيرة صَنَعَتْها بنفسها وزوّقتها بنقوش من قطب الـ«پيتي پوان» أو المطرّزات المعقدة. ومهما يكن من أمرٍ، فقد كانت «تيتا» تتمسك بقوة بتلك العادات، وظلت تعاند أبي إلى نهاية حياتها.

وأما أنا، فعلى عكس جدتي، لم أكن أقاوم على الإطلاق. وكيف لي أن أقاوم ووطأةُ الفشل الجسمانيّ والمعنويّ ترزح عليّ؟ هل يُفترَض بالأهل أن يكونوا قدوةً للأبناء، أو أن يوفِّروا لهم على الأقل فكرةً محددةً عن مآل عملية العجن والخلط والقولبة التي يتعرضون لها، في نهاية المطاف، أو متى وأين تتوقف؟ ثمة مشهد محيِّر واحد في الساعات الكثيرة الكثيرة من أفلام الڤيديو تريني صورةً أخرى لـ«إدوارد»، هي صورة ذاتي الطفلة. فقد التُقط الفيلمُ في بركة المعادي، ربما في وقتٍ متأخر من صباح أحد الآحاد من حزيران/يونيو، ويُري مشهدًا فوضويًا مزدحمًا يتقاطع فيه سابحون وغاطسون وأهلٌ يراقبون [أولادهم]، يَجُوزون جميعهم كاميرا أبي وقد أربكه الصخبُ أمامه، فأخذ يَنْخع الكاميرا قافزًا بسرعة من شخصٍ إلى آخر، رافعًا إياها إلى السماء ليعيدها من ثم إلى أسفل، فإذا هو يَنْسج ذلك الشغبَ الكبير القائمَ أصلاً عند البركة على شاكلة بساطٍ مبقّع مربك ومذهل من الأضواء والأجساد والحيّزات التي لا معنى لها (من أرضية وجدران وغمام) ضاربًا عرضَ الحائط بالصور النظامية التي كنا نتمرن عليها سلفًا وطالما اعتدنا عليها في إقبالنا نحو الكاميرا. وإذ رحتُ أشاهد تلك الزوبعة، ألفيتُني فجأةً صبيًا صغيرًا يرتدي ثوبَ سباحة غامق اللون وحزامًا أبيض، يتسلل وسط فيلق من الأجسام التي تفوقه حجمًا، ثم يَغْطس في البركة ولا يكاد يخلِّف وراءه رذاذَ ماء. فكأنني أخذتُ أبي على حين غرّة، فتعقّبتني الكاميرا للتوّ، وقد حددتْ مكاني فجأةً، إلا أني سرعان ما

سبحتُ متواريًا عن إطارها. فعادت هي إلى الفوضى العامة، وعدتُ أنا إلى الظهور في مرماها، في زاوية تصويرٍ غير متوقعة، راكضًا نحو أبي، مطأطئاً الرأسَ، لأعود فأختفي مجددًا في البركة. لقد أخطأني أبي كليًا في المشهد الثاني، وإنْ كنت ظهرتُ فيه لهُنَيهة.

سحرني ذلك المشهدُ القصير والتافه فعلاً، وأنا أشاهده بعد مضيّ نصف قرن محاولاً رسَم التخوم ووضعَ التفاصيل الهامة لقصةٍ انغمستُ فيها مع أبي وتوقعاته، وتدريباته وأمثولاته، يقولبني ويوجّهني - ومعي شقيقاتي وأمي - بطريقةٍ تُشْبه إلى أبعد حد طريقَتَه في تسجيل الأفلام وإرادتَه التي لا تكلّ في تحريكنا جميعنا نحوه، إلى الأمام سائرين، حاذفًا كلَّ ما سوى ذلك باعتباره من النوافل. والمفارقة الكبرى في الأمر أنه كان قوة دعم جبارةً لنا في حيواتنا - فما من أحد منا انشغل يومًا بأيّ شاغل مادّي، وكانت خزائننا دائمًا ملأى بالأطعمة، وقد حصلنا على أفضل أنواع التعليم، وكنا نرتدي الثيابَ اللائقة، وبيوتُنا دائمًا مدارة ومخدومة بطريقة تامة، ونسافر دومًا في الدرجة الاولى - بحيث لم أعتبره يومًا رجلاً قمعيًا في ذلك الزمان. كان يَضْغط عليّ باستمرار بطريقته النيّقة المميزة، وقد شاهدتُ ذلك مجددًا في غرابة نوعية أفلامه العَرَضية والتكرارية والاختزالية. على أنّ نجاحي في التفلّت أحيانًا من قوته المرعبة، كما في المشهد القصير عند بركة السباحة، أَعْلمني بشيءٍ لم أُدركه إلا بعد سنوات عندما سلكتُ طريقي بنفسي: أَعْلمني أنّ «إدوارد» أكثرُ من مجرد ابنٍ جانحٍ وإنْ يك صاغرًا، ينصاع لترسيمات أبيه المتزمتة أخلاقيًا.

كانت أمي هي مَنْ يتولى غالبًا توفيرَ الشروح التبريرية لمظهره الخارجيّ البارد والعنيد. فكأني به تمثال من رخام أخذتْ على نفسها أن تَسْتنطقه وتجعله يعبّر بطلاقة. كانت هي كلامَ أبي إليّ، تقلّد كلَّ المشاعر التي كَتَمَ هو التعبير عنها، وتبالغ في مطّه مطًا بحيث يصير رجلاً محبًا حانيًا يختلف كليًا عن الشخص القاسي المعانِد الذي مارس سلطانه عليّ إلى حين وفاته. «ليتَكَ تسمعه يتحدث عن "ابني أنا" أمام أصدقائه»، تقول، «إنه فخور بك إلى أبعد حدّ». ومع ذلك، لم أستطع مرةً أن أستدعي دعمه لي، فما بالك بالحصول عليه. لم أكن قد تجاوزتُ الرابعة من العمر عندما أخذني في نزهة قرب حديقة الأسماك في القاهرة (لا أذكر أنه دخل المكان الذي بدا كأنه الامتياز الحصريّ لأمي). كنتُ أهرول خلفه، وهو يحث الخطى،

ويداه معقودتان خلف ظهره. فتعثرتُ ووقعتُ أرضًا، خادشًا يدي وركبتي بخدوش عميقة، فصرخت إليه غريزيًا: «دادي... أرجوك» فتوقف والتفت ببطء إليَّ. ظلَّ هكذا ثانيتين لا أكثر، ثم استدار وواصل سيره دون كلمة. وكان هذا كلّ ما في الأمر. مات هكذا، مشيحًا بوجهه نحو الجدار، دون أن يَصْدر عنه أيُّ صوت. وإني لأتساءل ما إذا أراد مرةً أن يقول حقًّا أكثر مما قال.

الفصل الخامس

انتسبتُ إلى «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» في خريف العام ١٩٤٦ بصفتي ابن رجل أعمال أميركيًا، وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أميركا. ولقد سَهُل عليّ اليومُ الأول لدخولي المدرسة لأنّ سائق الباص اليونانيّ كان يعمل أيضًا سائقًا في كلية آنطي ميليا، وقد تعرّف إليّ على الفور وعاملني دائمًا – كما لم يعاملني أحدٌ من قبل – بكياسة لا تخلو من الألفة. أقلّني من الزمالك في الصباح الباكر من يوم تشرينيٍّ مُشمِس مع سرب من الأطفال الأميركيين الغريبين تمامًا والضاجّين واللامبالين، يرتدون القمصان الملوّنة الزاهية والتنانير والـ«شورطات». لم يسبق لي أنْ شاهدتُ أميركيين بمثل ذلك التنوّع والكثرة. اختفت البزّات الرمادية والهمساتُ الخفيضة التآمرية التي كنتَ تجدها في أطفال «إعدادية الجزيرة»، الإنكليز منهم والمشرقيين خصوصًا، ومعها اختفتِ الأسماءُ الإنكليزية، مثل ديكي وديريك وجيريمي، وكذلك الأسماءُ الفرانكو-عربية، مثل ميشلين ونادیا وڤيڤيت. وبِتُّ تلقى الآن مارليز ومارلين وآنكجيه، وفتياتٍ عدة يسمّين مارجييس ونانسي، وصبيانًا عدة يسمّون إرنست وتشاك، وكثرةً يحملون اسم بوب. ولكنْ لم يأبه أحدٌ بي.

ومع ذلك، اجتاز «إدوارد سِغِيد» الامتحان، وسرعان ما تكيّفتُ مع المحيط الجديد إلى هذا الحد أو ذاك. على أني في كل يوم ألِج فيه الباص، أصابُ بذعر عظيم، إذ أشاهد قمصان الـ«تي شيرت» والجواربَ المقلّمة التي يلبسون وأحذيةَ «المُوكاسان» التي ينتعلون، فيما أنا متهندِمٌ في شُورطٍ رماديٍّ لائق أنيق وقميصٍ

أبيض رسميّ وحذاءٍ أوروبيّ تقليديّ ذي أشرطة. أما في الصفّ، فكنت أهدِّئ من روعي الداخليّ بالاستنجاد بهويتي الفعّالة، وإنْ تكن موقتةً، هويةِ الطالب اللامع الصعبِ المراس غالبًا. وعند الغداء، إذ يُخرجون سانتدويتشات الخبز الأبيض المقصوص بأناقة وعليها زبدةُ الفُول السودانيّ وهُلام الـ«دجِيلي» – ولم أكن قد ذقتُ هذا ولا تلك – فيما أنا أحمل الجبنة والجانبون المدخّن في الخبز الشاميّ، أَسْقطُ في حال شكّ وخجلٍ من أني، أنا الطفلَ الأميركيَّ، أكل طعامًا مختلفًا عنهم ولا يَطْلب مني أحدٌ تذوقه بل ولا يسألني أن أشرحه له.

وذات مساء، ونحن على الشرفة، دسّ أبي يدَه في جَيب سترته واستخرج زوجًا من الجوارب المقلّمة: «أعطاني إياها طيّار أميركيّ»، قال، «ما رأيك في ارتدائها؟»، فكأنه رمى إليّ بطوق نجاة نحو أيام أفضل. ارتديتُ الجوارب المقلّمة في اليوم التالي وفي اليوم الذي يليه، مع ارتفاع بَيِّن في معنويّاتي. على أنّ أحدًا في الباص لم يلاحظها، وكان لا بد من غسل الجوارب. ولما كنتُ لا أملك غير زوج جوارب واحد يَمْنح زعمي أنني أميركيٌّ شيئًا من الصدقية، فقد شعرتُ فجأةً بالخذلان. ثم حاولتُ إقناع أمي بأنه يفضُل أن آخذ ساندويتشات مقصوصة على شكل مستطيلات مطليّة بالمربّى والزبدة، إلا أنها صَرَفتني بقولها: «لا نستخدم خبز الـ"توست" مع المُربّى إلا على الفطور. أريدك أن تتغذى. ما العَيبُ في طعامنا على كل حال؟».

تأسستْ «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» بُعَيد الحرب لاستيعاب أبناء موظّفي شركات النفط والأعمال والسلك الديبلوماسيّ الأميركيين في جاليتهم المتوسعة حديثًا في القاهرة. تقع المدرسة في المحيط الغربيّ الخارجيّ لـ«المعادي» في موازاة محطة سكة الحديد، وعلى مسافة حوالى الميل من النهر العظيم. وتحتل ڤيللا كبيرةً من طبقتين، مثلها مثل «إعدادية الجزيرة»، علمًا أنّ هذه الأخيرة مجرد مدرسة ابتدائية، وتحيط بها، إلى ذلك، حديقةٌ من أكْرين اثنين[1] وسقيفةٌ للحدائقيّ وفسحةٌ مُغبرة جنوبيّ الڤيللا توازي مساحتُها نصفَ مساحة ملعب لكرة القدم، جرى تعبيدُ نصفها بالأسفلت خلال عامي الأول في المدرسة ، ١٩٤٦ – ١٩٤٧

---

١ ـ حوالى ثمانية الاف متر مربّع. (م)

(الذي قَطَعَتْه إقامةٌ ربيعية مديدة في القدس) فأضحت ملعبًا لكرة السلّة. ولما كانت «إعدادية الجزيرة» مدرسةً للأطفال الأصغر سنًا، فقد اكتفتْ بكُرَة الشبكة، وهي المعادل الرقيق العَطِر لكرة السلّة، ولكنها مخصّصة أساسًا للبنات، واقتصر احتفالُها في المناسبات، مثل عيد ميلاد الملك، على رقصة «المايپول»، وهي تسلية ألفيتُها غريبةً (لماذا كل هذا العدد من الأشرطة؟ وما الذي تمثّله؟) وسخيفةً في آن معًا (فالدَوَران في حلقة مفرغة على وقع تصفيق يدَيْ مِسز ويلسن وتسجيلٍ زاعقٍ للموسيقى الريفية الإنكليزية إنما هو استظهار ركيك للحركة الجسمانية المنضبطة). أما في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» فلم أتعرف إلى كرة السلّة وحسبُ وإنما إلى «السُوفت بُول» أيضًا، وهما رياضتان لا يَعْرف أبي عنهما أيَّ شيء. وكان أبي، بصفته الرئيسَ الفخريَّ لـ«جمعية الشبّان المسيحيين»، التي تنظّم المباريات بين فرق القاهرة، مثل الهومنتمن الأرمنيّ والماكابي اليهوديّ، أو بينها وبين فريقٍ زائر ممتاز مثل فريق الجيش الأميركيّ، يأخذنا لمشاهدة ألعاب رياضية لم يمارسها هو نفسُه. وقد أثارت لعبة السُوفت بول اهتمامي بحيث حوّلتني إلى رام ٍماهر وضاربٍ حرّيف. وكان أبي يصرّ على تسميتها «راوندرز[1]» ولكنه لحسن الحظ لم يهتم بها جدّيًا ولا شاهدني مرةً أضرب الكرة الرخوة بمضرب من طراز «لويڤيل صلاغر».

أثارتْ فيّ قاهرةُ ما بعد الحرب لأول مرة شعورًا بالتمايز الشديد من حيث التراتب الاجتماعيّ. وكان التبدّل الكبير هو حلول الأميركيين المنتصرين محلَّ البريطانيين، مؤسساتٍ وأفرادًا، وقد أَخْلَت الإمبراطوريةُ القديمة المكانَ للإمبراطورية الجديدة، فيما راح أبي يَنْعم بالمزيد من النجاحات في حلبة الأعمال. في احتفالات «إعدادية الجزيرة»، كانت الهَيصة تتعالى عند ظهور اللَيْدي بادِن پاول أو روي تشاپمان أندروز[2]، رمزَي السلطان البريطانيّ اللذيْن لا يحتاجان إلى أيّ ندّ مصريّ أو عربيّ يَفْضح أجنبيتَهما إذ يعتليان منصّة الخطابة. آنذاك، كانت بريطانيا تَحْكم البلد متفوّقةً، وجميعُنا يسلّم بذلك تسليمًا. فإذا بظهور شفيق غربال، المؤرِّخ المصريّ المرموق والموظّف في وزارة التربية، في أول احتفال أتذكره لـ«مدرسة القاهرة للأولاد

---

١ ـ صيغة بدائية من لعبة الـ «بيزبول».

٢ ـ زوجة اللورد بادن پاول، مؤسس الحركة الكشفيّة، وموظف كبير في الخارجيّة البريطانيّة في ذلك الزمان.

الأميركيين»، يسجّل الفارقَ بين المقاربتين الإمبرياليتين، الأميركية والبريطانية. فلما كنا، نحن الأميركيين، شركاءَ للمصريين، فأيُّ شيءٍ أنسب من أن نعطيهم الكلام في مناسبات مثل افتتاح البرلمان أو عيد ميلاد الملك فاروق، وهي مناسبات لا تكترث لها «إعداديةُ الجزيرة»؟ ذلك أنّ مطلع نشيد «كلُّ الأشياء البرّاقة والجميلة» يعني إنكلترا البرّاقة الجميلة، نجمَ السَعد البعيد الذي يُشعّ علينا جميعًا. لقد انتهى ذلك الزمن إلى غير رجعة، وحَذَفتُ النشيد من برنامج أغانيّ المفضّلة. على أني دُهشتُ عند اكتشافي أنّ تعليم العربية لجميع الأطفال يشكّل جزءًا من البرنامج الأميركيّ. ولما كنتُ قد ادّعيتُ أنّ «سِغيد» هو اسمي الأميركيّ، فقد عانيتُ الأمرّيْن في درس العربية. إذ اضطررتُ إلى أن أخفي مَلَكَتي الممتازة للُغَتي الأم انسجامًا مع الصيغ الفارغة التي تُوزَّع وتُمَرُّ على الشباب الأميركيّ بوصفها العربية المحكية (وهي إلى عربية المطبخ أقرب). لم أتطوع لأية مهمة، ولم أتكلم إلا نادرًا، وغالبًا ما كنت متقوقِعًا على نفسي في مؤخّر الصف. ولكنّ الأمر لم يَخْلُ من الاستفزاز، من مثل استفزازات معلّمة اللغة العربية الشابة الجميلة، التي في معرض وصفها لمغامراتها في مدينة الملاهي، المُفتَتَحةِ حديثًا في «الجزيرة»، أصرّتْ على رواية رحلةٍ جوّيةٍ سُمّيتْ «سعيدة» على اسم شركة الطيران المصرية المنشأة حديثًا. وفي صفٍّ مُنمنمٍ من أربعة تلامذة، انتصبتْ قبالتي وشرعتْ تفصّل ما أثارته فيها «سعيدة» من مشاعر، مكرّرةً الاسمَ المرةَ تلوَ الأخُرى كأنما لتؤكد الصفة العربية الضامرة لاسمي، وقد جهدتُ لتخفيض ذلك الاسم إلى مستوى معايير اللفظ الأميركية الدارجة. «لا، يا إدوارد»، قالت بتشديد، «لن تستطيع الادعاء أنك اختبرتَ أروع تحليق في الجوّ إنْ أنتَ لم تجرّب «سعيدة». هل تدري كم مرةً ركبتُ «سعيدة»؟ أربعَ مرات، على الأقل. «سعيدة» هي الطيران. «سعيدة» رائعة». بعبارة أخرى: كفاكَ ادّعاء أنّ اسمك «سِغِيد»، أنتَ اسمُك «سَعِيد» كما في «سعيدة». ولن تستطيع إنكار الصلة بين الاثنين.

عُيِّنتُ في الصف السادس في قاعة تقع في الطبقة الثانية، مَنَحَها النباتُ وأصصُ الزهور على النافذة جوَّ الغرفة البيتية. تتسلطن على الصف جلوازةٌ ساديّة هي أولى الجلوازات والساديّات في حياتي: مِسّ كلارك، التي ادى اضطهادُها الحثيثُ لي إلى ثلم كبريائي المزعزَعِ أصلاً. كانت في منتصف الثلاثين، شديدةَ

التحفظ في سلوكها، هادئةً جدًا ورابطةَ الجأش إلى درجة بغيضة. وإذ فكّرتُ فيها عبر السنوات، ألفيتُ تلك «البيضاء الانكلو-سكسونية البروتستانتية» WASPمن شمال غربيّ الولايات المتحدة نموذجًا عن أهالي تلك المنطقة المُكتفين ماديًا والمستقيمين أخلاقيًا والواثقين من أنفسهم والمتعالين على سائر البشر. لستُ أدري ما الذي سلّطها عليّ، على أنه لم يكد يمرّ أسبوع أو عشرة أيام على بدء العام الدراسيّ، حتى شَهَرَتْ عليّ العداءَ الصريحَ في صفٍّ لا يحتوي على أكثر من دستةٍ من الصبيان والبنات.

بعد اختباري النظامَ الإنكليزيّ التراتبيّ الجامد، بدت المدرسة الأميركية تعيش في حال من رفع الكلفة بكل ما للكلمة من معنى. فالكراسي والطاولات مبعثرة عبر قاعة الدرس، بينما كنا في «إعدادية الجزيرة» نجلس في صفوف عسكرية مرصوصة من المقرئات والمقاعد. وباستثناء معلِّمي الفرنسية والعربية والفن، يتولى التعليمَ هنا معلّماتٌ أميركياتٌ (كثيفاتُ الأصباغ يرتدين الفساطين المبهرجة الألوان ويختلفن كليًا عن الوجوه العادية الكالحة والتنانير المحتشمة لمِسِز ويلسن وأضرابها) ومعلّمٌ أميركيٌّ وحيد هو مارك وانِك، الذي يقوم أيضًا مقام مدرِّب الـ«سُوفت بُول» وكرة السلة. وفي إحدى المناسبات، ارتدى مارك زيَّ لاعبي كرة السلّة في ولاية أوهايو، الأصفرَ اللمّاعَ، ليلعب معنا. وفي ظهيرة القاهرة القائظة، وعلى خلفية من حقولٍ غبراء وفلاحين سُمرٍ يرتدون الجلابيات ويسوقون الحمير أو الثيران كما كان دأبهم منذ آلاف السنين، بدا منظرُ السيّد وانِك سوروياليًا إلى أبعد حدّ في بذلته الفاقعة الألوان وذراعيْه ورجليْه المكسوّةِ بالشَعر وقَصَّةِ شَعره العسكرية وحذائه القماشيّ والمطاطيّ الأسود ونظارتيْه الرقيقتيَن اللتين لا إطار لهما.

وجدتُ التعليم الأميركيّ نظامًا تربويًا صُمِّم ليكون جذابًا وبيتيًا ومفصّلاً على مقاس أطفال في طور النمو. في «إعدادية الجزيرة»، كانت الكتب متماثلةً من حيث حروفها الطباعية الصغيرة وخاليةً من التزيينات وصارمةً في جفاف أسلوبها. فمادة التاريخ ومادة الأدب مثلاً يجرى تقديمهما بطريقة أكثر ما تكون بداهةً، وهو ما يجعل من قراءة كل صفحة في أيّ منهما تحدّيًا قائمًا بذاته. وكانت دروس الحساب تفتقر إلى أيّ تنازل لعالم التجارب المعيشة. وكنّا نُعطَى مسلسلاتٍ من الأرقام

لنَجْمعها ونَطْرحها ونَقْسمها ونَضْربها، إضافةً إلى عدد كبير من القواعد والجداول لنحفظها عن ظهر قلب (كجداول الضرب والأوزان والمقاسات والمسافات والأمتار واليارداتِ والإنشات). والهدف من كل هذا هو حلّ مسائل حسابية، وهي مهمة لا يضاهي صعوبتَها إلا مللُها المنهَج. وأما في المدرسة الأميركية، فقد وزّعوا علينا دفاتر تمارين تختلف كليًا عن دفاتر الخط في «الإعدادية»، وذلك أنّ الثانية كراريسُ خطٍّ مُسَطَّرةٌ مثل بطاقات الباص المُغفَلَة، في حين أنّ الأولى تتضمّن أسئلة جذابة ومشجعة على الحوار إضافةً إلى رسوم وصور معدّة لأن نتذوقها ونستمتعَ بها أو نكملها عند الحاجة. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتابة على كتاب مدرسيّ في «إعدادية الجزيرة» تشكّل جنحة خطيرة، إذا بدفاتر التمارين الأميركيةً مُعَدّةٌ أصلاً لأن يُكْتَب عليها.

وكانت الكرّاسات المدرسية التي توزّعها مِسّ كلارك في بداية اليوم هي أكثرها جاذبيةً. ومحورُ كلّ درسٍ عائلةٌ يتعرّف إليها التلميذُ منذ البداية، وتتكوّن دومًا من شقيقة وأب وأم إضافةً إلى الأقارب المتنوعين وحاشيةِ البيت بمن فيها مدبّرتُه السوداءُ السمينة التي تتضخم أساريرُها على نحوٍ كاريكاتوريٍّ في حالَي الحزن والفرح. ومن خلال تلك العائلة، يتعلم التلميذُ الجمعَ والطرحَ أو التربيةَ المدنية أو التاريخَ الأميركيّ (كنا نتعلّم الأدب على حِدة). والمقصود بها جعلُ التعلّم عمليةً ميسّرة، مثلها مثل قضاء يوم في مزرعة أو في إحدى ضواحي سانت لويس أو لوس أنجيليس. وقد حيّرتني تمامًا الإشاراتُ إلى الـ«دراغستور» والـ«هارد وير ستور» والـ«دايم ستور[1]»، مع أنها لم تكن تحتاج إلى شرح لزملائي وجميعُهم عاش في أماكن مثل سانت لويس ولوس أنجيليس في حين أن لا صلة لتلك المواقع بتجربتي الخالية من نافورة الصودا أو المشروبات المخلوطة بالمياه الغازيّة، وهما كانا الأشدّ إثارةً لفضولي.

كان المفترض أن أجد ذلك مسلّيًا، وقد وجدتُه بالفعل خلال الشهر الأول. على أنّ مِسّ كلارك لم تتركني لحالي، ولم يفعل ذلك الأطفال الآخرون أيضًا، فسرعان ما

---

١ ـ «الدراغتور» مزيج من صيدلية ومن حانوت متعدّد الخدمات بما فيها بيع المشروبات الخفيفة. «الهاردوير ستور» محل لبيع الأدوات والأواني المعدنية. و«الدايم ستور»، محلّ لبيع سلع متنوّعة جداً بسعر رخيص وموحّد.

دبّ التنافر بيني وبينهم. وإذا بي، بعد ذلك الشهر الممتع، يعاودني الحنين إلى «إعدادية الجزيرة»، بخطوط انضباطها الواضحة ودروسِها الروتينية وقواعدِ سلوكها الشديدة الصرامة. ولم يكن المعلمون في المدرسة الأميركية يلجؤون إلى العنف أو حتى يهدِّدون باللجوء إليه، ولكنّ التلامذة الذكور كانوا بالغي الفظاظة واحدهم تجاه الآخر، ولاسيما أنّ الصبيان على شيء من ضخامة البنية والاستعداد لاستعمال العنف بعضهم ضد بعض في مباريات صمود أو سباق. وما إنْ حلّ عيد الميلاد حتى صار كلُّ يوم من أيام المدرسة يومَ محنةٍ يتطلب منّي الخوض في غِمار الأذرع الملوِّحة والقَبضاتِ المتطايرة في الباص، يَعْقبها القمعُ الرهيب والتأنيبُ القاسي من مِسّ كلارك في قاعة الدرس.

جاءت اللحظة الأكثر إذلالاً في عامي الأول بعد أن عاد الصف من «رحلة ميدانية»، وهي مفهوم جديد كلَّ الجدّة بالنسبة إليّ، إلى مصنع سُكّرٍ ضخم عبر النيل قبالة «المعادي». أعترفُ أنه بعد مضيّ الدقائق العشرين الأولى، صارت الزيارة مملةً إلى درجة لا تستحق معها أيّ اهتمام. ولكنْ لم يكن لي خيار غير أن أبقى مع الجماعة، نُقاد معًا من راقود الغلي إلى المخزن فغرفة التقطيع، على إيقاع شروح دليلنا المستمتع بهذره لتهوين الأمر علينا، شارحًا خلال نصف ساعة أمرًا لا يحتاج إلى أكثر من دقيقة واحدة، في فيض من المصطلحات التقنية وفي غمرة جوّ عجيب من الرضى الذاتيّ. ودليلنا هذا رجلٌ مُتطربِش في منتصف العمر، عيّنتْه إحدى الوزارات لمرافقتنا في تلك الزيارة. وكانت مِس كلارك هناك طبعًا. ولكني لم أُعرها أو لم أكد أعرها أيّ اهتمام، وتلك غلطتي الكبرى. أجدها تطأطئ الرأس كلما دخلتْ مرمى نظري (أهو دليل موافقة أَمْ فهم أَمْ رضى تجاه طوفان المعلومات عن قصب السكّر وتاريخه وتكوينه والتركيب الكيماويّ للسكّر، الخ.؟) ولكنّي لم أكترث لها. كانت الرحلة كلها مختلفة كليًا، وعلى نحوٍ عجيب، عن أيّ نشاط قد تنظِّمه مدرستي الكولونيالية السابقة، إلى درجة أنه لم تستوقفني مجردُ المقارنةِ بين البريطانيين الاستبداديين والأميركيين العطوفين، والأكثر رغبةً في أن يوفِّروا للمصريين الفرصةَ الديمقراطيةَ ليحققوا ذواتهم.

اجتمعنا في اليوم التالي في قاعة الدرس كالعادة، ومِسّ كلارك جالسة خلف مكتبها تبدو متماسكةً وغامضةً كحالها دائمًا. شرعتْ تقول «لنُمضِ بعض الوقت في

الحديث عن رحلة الأمس الميدانية» ثم التفتتْ فجأةً إلى ب. ج.، الفتاة القصيرة الشَعر التي أعطتها نبرتُها السريعة وطريقتُها التِجارية صفةَ لولب الصف. فقدمتْ ب. ج. تقويمًا مفصّلاً لأحداث ذلك اليوم. «وما قولُكَ، يا أرنست؟» سألت المعلّمةُ أرنست براندت، وهو الأضخم جثةً بين الصبيان وأقواهم بنيةً وإنْ يكن أقلهم تعبيرًا. لم يكن هناك الكثيرُ يضاف إلى تلاوة ب. ج. المرهِقة، ولم يكد أرنست يَبذل أيّ جهد أصلاً. «لا بأس»، كان ذلك كلَّ ما صَدَرَ عنه. كنتُ قابعًا في مكاني أَشْرد شيئًا فشيئًا في حلمٍ يقظةٍ ولا أعير غرائز مِس كلارك الافتراسية الاهتمامَ الكافي. «لقد تصرفتم بتهذيب شديد أمس وأنا فخورة بكم»، قالت، وظننتُها سوف تنتقل من ثم إلى تسميع درس الإنكليزية. «أعني: كلكم، خلا واحدًا منكم. واحدًا لم يكترث لشروح إبراهيم أفندي الساحرة والعظيمةِ الفائدة. واحدًا تخلّف على الدوام عن باقي المجموعة. واحدًا كان يتململ كل الوقت. واحدًا لم يلقِ نظرةً واحدة على الآلات والمراجل. واحدًا لا غيره كان يَقْضم أظافره. واحدًا وحده أخزى الصف كله». وصمتتْ لبرهة، فيما أنا أتساءل من يكون ذلك الواحد.

«أنتَ، يا إدوارد، أنت تصرفتَ بطريقة فظيعة. لم أعرف في حياتي كلها من هو مثلك: فاقدًا القدرة على التركيز، وعديمَ المراعاة للآخرين، وكسولاً، ومتقاعسًا إلى هذا الحد. راقبتُك دقيقةً بدقيقة، فلم تأتِ عملاً واحدًا يَشْفع لك. سوف أُبلغ عنك مِس ويليس (مديرة المدرسة) وأَطْلب منها استدعاءَ أهلك». توقفتْ وهي ترمقني بنظرة كراهية ظاهرة، ثم أردفتْ قائلة: «لو كنتَ من التلامذة المجتهدين في هذا الصف، لربما غفرتُ لك سلوكك. لو كنتَ مثل ب. ج. مثلاً. ولكنْ لأنك أسوأ تلاميذ هذا الصف بلا منازع، فما أقدمتَ عليه يومَ أمس لا يُغتفر». وكانت تشدّد على كلماتها بحياد تام.

لقد حدّدتني مِس كلارك، عن قصد وسابق تصوّر وتصميم وبطريقة نيّقة، ونفذتْ إلى دواخلي، إذا جاز التعبير، فرأتني كما لا أستطيع أو لا أريد أن أرى نفسي، وأذاعتْ مكتشفاتها على الملإ. فتسمّرتُ في مكاني، لا ألوي على شيء، أحمرَ الوجه، أتظاهر بالأسف والقوة معًا، وقد بدأتُ أكره أفراد الصفّ الشاخصين، ويتملّكُني شعورٌ بأنّ كل واحد منهم يحدّق إليّ باستهجان وفضول غير مبرَّرَيْن. «من هو هذا الشخص؟»، تخيلتهم يتساءلون، «إنه مجرد صبيّ عربيّ مسكين. فما الذي

جاء به إلى مدرسةٍ للأطفال الأميركيين؟ ومِنْ أين جاء؟». في تلك الأثناء كانت مِس كلارك تحرّك كتبها وأقلامها على المكتب ثم عادت إلى تسميع الدرس كأنّ شيئًا لم يكن. ألقيتُ عليها نظرة عجلى بعد عشر دقائق لأتبيّن احتمال أن تَبْدر منها نظرةُ لِين تجاهي، فألفيتُها باردةً وعصيّةً على الصَفح كما هي على الدوام.

كَمَن مصدرُ القوة في ما قالته مِس كلارك عني في أنها جمّعتْ كل الملاحظات السلبية والنقدية المحيطة بي بشكل عام، في البيت كما في «إعدادية الجزيرة»، وركّزتْها كلَّها في حاوية فولاذية مَقيتة وكبَّتْني فيها كَبًّا مثلما يُكبّ هُلام الـ«جيلو» في القالب. فشعرتُ أني بلا تاريخ يقيني ذلك الحُكمَ الذي أصدرتْه بحقي مِس كلارك أو يقاوم الخزيَ العلنيّ. على أن الأفدح وقعًا عليّ من ذلك الفضح الساكن، هو خشيتي الدائمة، بل كرهي، لإعلان الأخبار السيئة على نحو مباغت، بما لا يتيح لي فرصة الردّ عليها والتمييز بين «إدوارد»، في جماع إعاقاته وخطاياه المعروفة، وبين الكائن الجوّاني الذي أَعتبره ذاتي الحقيقيةَ والفضلى (وهي ذاتٌ غامضةُ التخوم، حرّة، فضولية، سريعة، شابة وحسّاسة، بل ومحبوبة). والآن لم يعد في مستطاعي استظهارُ تلك الذات إذ تواجهني ذاتٌ وحيدة لا مناص منها، منقوصةٌ بل محكومٌ عليها بالإخفاق، لا تستقيم مرةً، بل إنها بالتأكيد شاذة وفي غير مكانها.

بَلَغ بي الأمرُ حدّ كراهية تلك الهوية، ولكني لم أكن أملك بديلاً عنها. وقد بتّ موضع استهجان إلى درجةِ أني اضطررتُ، طبعًا، إلى مقابلة مِس ويليس، وهي امرأة من الغرب الاوسط الأميركيّ، شيباءُ الشعر، ضعيفةُ الشكيمة، في المنقلب الثاني من العمر، بدتْ حائرة أكثر منها غاضبةً أمام ارتكاباتي. لم تحضر مِس كلارك المقابَلَةَ. ولكنْ لا مجال للمقارنة إطلاقًا بين إدانة مِس كلارك الوجودية لي وبين محاضرة مِس ويليس الغامضةِ المتعلثمةِ عن فضائل المواطنية الصحيحة. وهذه العبارة الأخيرة لم تكن لتخطر على البال في الإطار الكولونياليّ البريطانيّ الذي غادرتُه للتوّ، إذ نحن جميعًا في مرتبة الرعايا، في أحسن تقدير، نكتفي بواجب الطاعة من غير سؤال. وفي نهاية المطاف، جاء أهلي هم أيضًا لمقابلة مِس كلارك ومِس ويليس. فتركتِ الأولى انطباعًا بيّنًا على أمي التي سمعتْ، في نبرة المرأة الثاقبة، سردًا متماسكًا وبليغًا لنقاط ضعف ابنها يفوق أيَّ سردٍ آخر. لن أعرف أبدًا ما قيل عني في ذلك اللقاء، ولكنّ صداه ظل يتردّد في مواعظ أمي عبر السنوات. «تذكّرْ ماذا قالت مِس كلارك»،

كانت اللازمةَ المستخدمةَ لتفسير ضعفِ التعيين والتركيز لديّ وعجزي المزمنِ عن إتيان الأعمال الصالحة في آن معًا. هكذا طوّرتْ أمي رأي مِس كلارك المستفظع ووسّعتْ مداه. ولم يخطر في بالي أن أسألها لماذا تحالفتْ بهذه الطريقة العمياء مع شخصٍ لا تحركه الاعتباراتُ التربوية وإنما تحرّكه النوازعُ الغريزية والسادية؟

كان يُفترض بي أن أكون بين أبناء جِلدتي في المدرسة الأميركية، على أنه قُدِّر لي أن أصير غريبًا فيها أكثر مما كنتُه في «إعدادية الجزيرة». لقد ساد المدرسةَ الأميركيةَ الكثيرُ من رفع الكلفة – حيث تحيات «غود مورنِنغ» و«هاي» هي الدارجة، خلافًا لما كان عليه الأمرُ في «الإعدادية» – والكثيرُ من التشديد على مَنْ يجلس قرب مَنْ في الباص أو في قاعة الدرس أو المطعم. ومع ذلك، قامت تراتبية خفية بين الصبيان، ولكنها موضع إجماع، لا ترتكز إلى الأقدمية أو الموقع الاجتماعيّ وإنما إلى القوة والإرادة والبراعة الرياضية. زعيم المدرسة يدعى ستان هنري، وهو تلميذ في الصف التاسع، وشقيقته پادي أدنى مني بصف واحد، ووالدهما موظف كبير في شركة «ستاندرد أويل». وستان، الذي يتجاوز ست أقدام طولاً، سبّاح ماهر ورياضيّ مكتمل تشعّ منه الثقةُ بالنفس والذكاءُ، وله ضحكة مثل صهيل الحصان تشي بدهاء تنافسيّ حادّ يهيمن بواسطته على استراحاتنا المعتادة في الحديقة. خصمه الوحيد من حيث الضخامة هو أرنست براندت، وقد شاهدتُ ستان يذلّه ذاتَ مرة فأمسك به من يديه لاويًا سلامياته، وهو ما أجبره على الركوع أرضًا. ولما نهض أرنست أخيرًا، ظل جامدًا في مكانه لا يتحرك، فيما الدموع تنهمر على وجهه. ولما كان ستان هو «القائد» أيضًا (وهي مفردة تعلّمتُها في المدرسة الأميركية) فسرعان ما أخذْنا نتحلّق حوله. ظل المدى المحيط به موضع نزاع حاد بيننا. وفي حين لم يكن أحد ينازع ستان موقعَه المتفوقَ، كنا، نحن البقيةَ، في حالٍ من التقلّب الدائم قربًا منه وبعدًا عنه.

كنتُ في عراك دائم مع صبيَّين بنوع خاص، هما ألِكس ميلر (ابن موظف سفارة، على ما أظن) وكلُود براندكارت، البلجيكيّ – الأميركيّ الذي يعمل أبوه وكيلاً لشركة «كالتكس» في مصر. ولكل منهما شقيقةٌ جذابة – أماريلليس السمراء ومونيك الشقراء – تبدوان أقرب إلى امرأتين مكتملتي النضج منهما إلى ابنَتَيْ ست عشرة أو سَبع عشرة سنة. أحيانًا كانت أماريلليس تجلس قربي في الباص

وتتصرّف بودّ، بل بصداقة، وقد صعقتْني عندما شاهدتُها ترتدي ثوب سباحة من قطعتين خلال رحلة مدرسية إلى بركة السباحة في «المعادي». فلم أكن، في حياتي المنعزلة، قد شاهدتُ من قبل تلك المساحة من الجسد الأنثويّ مكشوفةً للعين. والمفارقة في الأمر أني شعرتُ أنّ الحادثة باعدت المسافة بيننا بدل أن تقرّبها. أما مونيك فكان يحيط بها مناخٌ حُلميّ غامض، إذ تطوف في أرجاء المدرسة بطريقة جدّ آسرة. ولم يكن للفتاتين من عميق صلة بأخويهما الأصغرين، ولا كان هذان في عداد أصدقائي، بل كانا خصميْن لدوديْن في جولات لامتناهية من المصارعة وحفلات التبجّح موضوعُها غامض وغيرُ قابل للنقاش في آن. وأذكر أني أعجبتُ بالطريقة التي بادَلَني بها ألِكس اللكمات على الباص، واقفًا عند الطرف الآخر من المقعد، مسدِّدًا اللكمات إلى رأسي والبطن، بصبر ومنهجية، بل ببطء، فيما أنا، المقاتلَ النزقَ والضعيفَ السيطرةِ على ذاته، أكيل له لكمةً متصالبة من هنا وضربةً فوقانية دوّارة من هناك، ومعظمها طائش، وقد تعلّمتُها على ساید، مدرّبِ الملاكمة في «جمعية الشبّان المسيحيين». والغريب حقًا أنّ ذلك المشهد، التافه والزاخم في آن، ظل عالقًا في ذاكرتي على امتداد تلك الفترة الطويلة مثل مسلسل متحرّك من صُوَر «موبيريدج» الفوتوغرافية[1]: «فما الذي كُنته آنذاك؟»، أظل أسائل نفسي: ولماذا كنتُ مدفوعًا إلى مثل تلك العداوات الحادة وميالاً إلى الخوض فيها إلى ذلك الحد؟

وخلافًا للحال في إعدادية الجزيرة، حيث لا أمل في أن يستمر عراكٌ لأكثر من عشر ثوان قبل أن يهرع معلّمون عدة للفصل بين المتعاركين، تبنّت المدرسةُ الأميركية فلسفةً مختلفة جذريًا، هي توفير حلبة مكرّسة للعراك ولأشكال أخرى من تنفيس الصبيان عن فائض الطاقة المخزونة لديهم. ولذا، فإنّي لا أذكر لحظةَ أمانٍ واحدةً خلال استراحات الغداء، ولا أنا تنعّمتُ برفقة ممتعة ولو للحظة واحدة.

نشبتْ خصومةٌ بيني وبين كلود براندكارت – لأيّ سبب؟ لستُ أدري – وكنا مستعديْن أبدًا للمشاجرة أو لمبارزةٍ في البَصْق أو في قذف الحجارة أو لحفلة

---

١ – إدوارد موبيردج (١٨٣٠ – ١٩٠٤) رائد من روّاد التصوير الفوتوغرافيّ والسينمائيّ. اشتُهر بتجاربه الناجحة في تصوير كامل حركات الأجسام (جسم الحصان وجسم الإنسان بنوع خاص) خلال العدْو. ففتح بذلك المجال أمام التصوير المتحرّك، أي السينمائيّ.

مفاخرة نواجه فيها بين أبوينا في مباريات وَهمية في كرة المضرب والمصارعة أو التجديف، وكلاهما لا يجيد أيًا منها في الحياة الحقيقية. وإذ بلغنا أنا وكلود ذروةَ العداوة، فقد اقتضى الأمر خوض معركة شاملة فاصلة في الحقل المغبّر، كلٌّ يشدّ بالآخر ويبادله اللكمات، فإذا بنا نهوي معًا على الأرض متقابضَيْن في عناق عنيف. وقد تمكن من أن يعتليني، وناضل بشراسة ليسمّرني أرضًا وليجبرني أخيرًا على أن أقول «إني أستسلم».

وكان جان – پيير سابيت في عداد المشاهدين، وهو من سكان «المعادي» غير الأميركيين، وقد قُبِل في المدرسة الأميركية لاستثناءٍ غيرِ مفهوم الأسباب، فقال عني بنبرة بدهية: «إنه يقاوم. ألا ترون انه يقاوم؟ لم تنته المبارزة». وكان على حق. فقد شعرتُ أني هُزِمتُ، بمعنى ما، لأنّ «إدوارد» تخلى عن العراك وأَسْلم أمره وبات الآن تحت سيطرةِ مَن هو خليقٌ بأن يسيطر عليه. على أنّ الغريب في الأمر أنّ ذاتًا أخرى بدأتْ تفور في داخلي، عندما كان «إدوارد» يتخلى عن العراك ويصبح أسير كلود براندكارت، وهي ذاتٌ صادرة عن منطقة جوّانية أعلم بوجودها دون أن أستطيع إليها وصولاً إلا نادرًا. وهكذا فإنّ جسمي بدلاً من أن يبقى منبطحًا بإذلال تحت براندكارت، بدأ يدفع إلى أعلى، فحررتُ يديّ أولاً، ثم أخذتُ أضربه على صدره والرأس، إلى أن أجبرتُه على أن يدافع عن نفسه ويفكّ قبضته عني، وأخيرًا دحرجتُه جانبًا ونهضتُ وأنا أواصل تسديد اللكمات إليه. وبعد دقيقة ظهر المستر وانِك، ففصل بيننا وأعادنا إلى مبنى المدرسة بعبارةِ ازدراءٍ مفادها: «ما أَمْرُكما أنتما؟».

قبل سنة من ذلك، عرفتُ تجربة مماثلة من الهزيمة والنهوض. وإني أدرك الآن فقط أنّ الحادثتين تدلان على تلك الإرادة المباغتة لتجاوز القواعد القديمة والمُهَلِ المحددة التي كان «إدوارد» قد ارتضاها. فخلال عطلة نهاية الأسبوع، التقيتُ غي موسيري في بركة السباحة في نادي «المعادي»، وهو فتى نحيل قصير القامة من سكان «المعادي» وتلامذةِ المدرسة الأميركية. بدأنا لعبة مطاردة فكان عليّ أن أغطس في البركة وأسبح ثم أنتشل نفسي من الماء لأعاود الغطس والسباحة ثانيةً إلى أن يَقبض عليّ، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. انطلقتُ في حال حبور، أشق طريقي بين السابحين، وغي يغذّ في أعقابي. إلا أني سرعان ما بدأتُ أتلاشى، وتملّكني ذعرٌ شديد إذ أدركتُ أنّ غي لا يزال يطاردني بلا كلل ووجهُه خالٍ من أيّ تعبير. فإذا

شعوري بالإخفاق الكاسح يزيد المطاردة كتامة وتضخيمًا. وأخذ غِي يُطبِق عليّ فيما أنا أتباطأ، دليلاً على أنّ «إدوارد» قد استسلم، فإذا بي أكتشفُ طاقة مستجدة تحرّك قدميّ وذراعيّ وتدفعني بعيدًا عن موسيري، الذي أربكه التغيّرُ الفجائيّ الذي طرأ على العلاقة بين الصيّاد والطريدة. فما كان منه إلا أن توقف عاجزًا عن الاستمرار بعد دقائق معدودة.

على أنّ مثل تلك المناسبات كانت نادرة. ذلك أنّ المدرسة الأميركية أجبرتني على أخذ «إدوارد» على محمل الجدّ أكثر من ذي قبل بما هو كائن معطوب وفَزِغٌ وضعيف الثقة بالنفس. وكان الشعور العام المسيطر عليّ هو شعوري بامتلاك هوية مُضطربة، أنا الأميركيُّ الذي يُبطِن هويةً عربية أخرى لا أستمدّ منها أية قوة بل تورثني الخجل والانزعاج. ورأيتُ عند ستان هنري وألِكس ميلر هويةً أكثر اشتهاءً، صلْدة كالصخر ومتطابقة مع الواقع. بل إنّ جان پيير ثابت ومَلَك أبو العزّ وحتى ألبير كورونيل – رغم كونهم يهودًا مصريين يحملون جوازات سفر إسبانية – يستطيعون أن يحققوا ذواتهم، فلا شيء عندهم يحتاج إلى إخفاء ولا هم مضطرون إلى تمثيل دور المواطنين الأميركيين. ومرةً خلال سنتي الثانية في تلك المدرسة، ظهر صبيٌّ جديد أكبر مني سنًا، هو بوب سيمحا، فظننتُ أني وجدتُ رفيقًا لي عندما شرح لي والداي أن سيمحا اسم يهوديّ وعربيّ معًا. فحاولتُ استكشاف شَبَهٍ خفيّ بيني وبينه، ولكنّي حيّرتُه بأسئلتي عما إذا كان له أقرباء في حلب أو بغداد. «لا»، صرفني بنزقٍ قائلاً، «أنا من نيو روشيل». ومنه تعلّمتُ تعبير «تُفٌّ على شارب أبيك».

يومًا بعد يوم في المدرسة أخذتُ أشعر بالتفارق بين حياتي الشخصية، أنا «إدوارد» ذا الهوية المزوّرة بل والإيديولوجية، وحياتي في البيت، حيث تعاظمتْ ثروةُ أبي بعد الحرب، لكونه رجل أعمال أميركيًا. وبعد العام ١٩٤٦، باشر هو وأمي رحلاتهما الأوروبية التي سوف تَعْقبها رحلاتٌ آسيوية وأميركية، مرتين في السنة على الأقل. ولما كنت ولده الوحيد وكان لا يزال المالك والمدير لمصالحه التجارية المترامية الأطراف، فقد كان لا بدّ من أن أبدأ بالاهتمام بمشاريعه التجارية. هكذا دخلتْ حياتَنا وبيتَنا ولغتَنا اليومية لائحةٌ طويلةٌ من أسماء الشركات التي كان وكيلاً لها (أو «عميلاً» بحسب المصطلح السائد آنذاك). وقد وجدتْ معظمُ منتجات تلك الشركات طريقَها إلى رقم واحد، شارع عزيز عثمان، الشقة ٢٠، الطبقة الخامسة:

أقلام «شيفرز» ومحابر «سكريپ»، والأثاث الفولاذيّ لشركة «آرت ميتال»، وكراسٍ وطاولات «سيبيل»، وخزنات «شُوب»، و«رويال» للآلات الكاتبة، وحاسبات «مونرو»، وسكاكين ومقصّات الفولاذ المقاوم للصدإ من صنع «سولِنجن»، وآلات النسخ بواسطة الحبر أو الكحول من عند «إيلام» و«آي. بي. ديك»، والأدوات المكتبية من ماركة «ماروزِن» ومفكّرات «ليتس» وأشرطة تسجيل وناسخات ودهانات «ثري إمّ»، وآلات التسجيل الصوتيّ والتفريغ «ديكتافون»، أضفْ إليها آلات الدَمْغ البريديّ الإنكليزية وآلة حاسبة سويدية و«طابعة شيكاغو الأوتوماتيكية» وآخر إصدارات شركة «فيبر - كوستيللو» لإنتاج مجسّمات الكرة الأرضية للأغراض التعليمية.

ولم يقتصر الأمر على منتجات تلك الشركات بل طاول مسافريها الذين صاروا من معارفنا، وخصوصًا المدعوّ ألِكس كالدور، وهو مَجَريّ ثقيلُ اللكنة (ولعله رومانيّ، وفي كل الأحوال، كان ذا أصل غامض أثار جملة تأويلات) وعازبٌ في مثل عمر أبي تقريبًا، يسافر لحساب شركة «رويال» للآلات الكاتبة ويتنقل بين فنادق الدرجات الأولى عبر العالم. يزور القاهرة مرّتين في السنة على الأقل ويتردد على بيتنا لاحتساء الكحول ولدعوة والديّ، ودعوتي أنا بعد أن بلغتُ الرابعة عشرة، إلى العشاء. وكان كالدور أول مَنْ قابلتُ مِن الأتباع الجذريين لمذهب الكلبيّة وأولَ المتعيّشين على كرم الآخرين. على أني أحببتُ طريقته في التظاهر بأن ما من عمل إلا وقد أتاه (خلا الزواج) وبأن لا شيء يعجبه بمن في ذلك أبي الذي كان يعامله بأبوية مسلّية. وكان سمينًا ومُدمِنًا تُوست «الميلبا». وأعتقد أنه سحرني لأنّ صوته يشبه صوت بيلا لوغوسي، الذي مُنِعتُ من مشاهدة أفلامه (بحجة أنها «غير مناسبة للأطفال») مع أني توصلتُ إلى معرفة القليل عنه من خلال مقتطفات «قريبًا على هذه الشاشة» التي ترافِقُ أفلامَ الأطفال في صالات السينما المحلية.

بعد الحرب، بدأ أبي يجول بانتظام على مختلف المكاتب والمعامل العائدة للشركات الرئيسية التي يتعامل معها والموزعين والمتعاونين. وقد سعى دائمًا للحصول على وكالات تجارية حصرية، وقد حصل عليها بالفعل، بحيث استطاع أن يبيع بدوره منتجات تلك الشركات لموزّعين آخرين وللزبائن بصفته الوكيل المحليّ الرئيسيّ. وعندما غادرتُ القاهرة، كانت شركته لبيع التجهيزات المكتبية والقرطاسيات قد أضحتْ أكبر الشركات في الشرق الأوسط قاطبةً وتَسْبق مثيلاتها

بأشواط. وقد نما عندي أيضًا حِسُّه التنافسيُّ الحاد تجاه المنتجات المزاحِمة، فبتنا نعاملها وكأنها أعداء شخصيون: أُوليڤِتّي، رُونيو، پاركر، جِسْتِتْنِر، آدلر، وغيرها، نناقش دونيتها قياسًا إلى «أصنافنا» بشغف لا يُستهان به. وعلى الغرار ذاته، نشأتْ ألفة أيضًا بيننا وبين الباعة الرئيسيين ومديري الأقسام في «المحل» وهم، وإنْ لم يصيروا جزءًا من العائلة، فالمؤكد أنهم كانوا أكثر من مجرد موظفين. وإذ أنظر إلى الوراء الآن، ألاحظ أنّ معظمهم قد طال به الأمد على نحو لافت، إلا واحدًا هو السيد پانيكيان، المُحاسِب الذي غادر إلى أوستراليا عام ١٩٤٦ مع ولديه وزوجته – ذاتِ الأسنان الناتئة التي كانت تستعرض مواهبها الموسيقية، خلال زيارتهما السنوية إلى منزلنا، بالعزف على البيانو بواسطة برتقالات – فإذا كمية كبيرة من أموال الشركة قد اختفت بعد مغادرتهما؛ والقولُ على ذمّة الموظف الذي خَلَفَه في مكتب أبي.

أما باقي الموظفين فقد لازموا الشركة سنواتٍ وسنوات، وهم مزيج غريب من الأقليات المشرقية والمصريين، مسلمين وأقباطًا، وأُضِيف إليهم، بعد العام ١٩٤٨، عددٌ متزايد من اللاجئين الفلسطينيين الذين كانت تَضْغط عمتي نبيهة على والدي لتشغيلهم فيستجيب بلا تردد. لاحقًا، قدّرتُ أنّ ما حققه أبي في مجال التنظيم العقلانيّ للعمل ومَنْح الحوافز لكل واحد من موظفيه المتكاثرين باستمرار كان عملاً فريدًا، لا بالقياس إليه وحسب وإنما قياسًا أيضًا إلى منطقة الشرق الأوسط برمّتها. وكان لامپاس، اليونانيّ البدين وأقدمُ الموظفين عند أبي، يدير المحل، وپيتر الأرمنيّ يدير قسمَ الناقلات والناسخات، وهاغوب ونيقولا سليم، قسمَ الحاسبات، وليون كريستشيفسكي، قسمَ الآلات الكاتبة، وصبحي القبطي، الأثاثَ، وفريد طبجي، المفكراتِ والأقلامَ، وشيمي المخزنَ، وأحمد أمانةَ الصندوق. ولكل واحدٍ منهم فوجٌ من المساعدين يأتمر بأمره.

كان لأبي، في مكتبه عبر الشارع، سكرتيرةٌ شخصية وسكرتيرٌ للغة العربية، اسمه محمد أبو العوف، وهو رجل قصير القامة ذو نظارات ويتميّز بصبر أيوب وبانقباضيةٍ نيّقة تجعله أشبه بطالِب دائم الكدّ لكنه عديم الموهبة بحيث لا ينجح في إكمال دراسته. خلال طفولتي، كانت السكرتيرة هي الآنسة آنّا ماندِل، الأنيقة الملبس، التي تزورنا بين الحين والآخر لتناول الشاي، وقد اختفتْ فجأة بعد معركة

العَلَمَين. بدأتْ آنّا العمل عند أبي قبل زواجه بسنة، عام ١٩٣٢، وأذكر أنّ أحاديثه في سنواتي الأولى كانت تتخللها إشاراتٌ متكررة إلى «مِسّ ماندِل». وقد اكتشفتُ فيما بعد أنّ أمي هي التي جعلته يتخلى عن خدماتها، لاعتقادها، كما أسرّتْ إليَّ بهدوء بعد سنوات عديدة، أنّ آنّا ماندِل «كانت ترغب في الزواج من أبيك». هل كانا على علاقة؟ سألتُها. فجاء الردّ: «لا شك أنها كانت تودّ ذلك. ولكنْ، لا، طبعًا، لا». غير أنّي لم أستطع التثبت من الأمر تأكيدًا أو نفيًا. وأما معظم النساء اللواتي خَلَفْن آنّا ماندِل في ذلك المنصب (وقد شغله أيضًا بعضُ الرجال)، بموافقة أمي أو رضوخًا منها للأمر الواقع، فكنّ إمّا شابات صغيرات السن وخرقاوات وإما نساء في منتصف العمر جسيمات ومتثاقلات وبطيئات الحركة، لا يُشْبِهن في شيء الآنسة ماندِل، التي أَذْكرها، على نحوٍ غامض، امرأةً رشيقةً ومتناسقةَ الكسم.

قسمان إضافيان يكمّلان الجيش الصغير من الموظفّين العاملين عند أبي. القسم الأول هو «المحاسبة»، ويديره أسعد كوكباني الذي شدّه أبي من شركة محاسبة بريطانية وجعله ساعده الأيمن. على أنّ هذا لم يمنع أبي من أن يعامله كآخر المغفّلين عندما ينسى أمرًا ما أو يضيع فاتورة أو يخطئ في احتسابها. ويُشْرف أسعد أيضًا على مجموعة موظفين يتّبعون جميعهم القواعد المحاسبية الدقيقة التي وضعها «المستر سعيد»، وهو الاسم الذي يناديه به الجميع. والقسم الثاني هو قسم «التصليحات»، ويرأسه مجايلٌ للامپاس، هو هراتش الأرمنيّ الصموت الذي لم أشاهده مرةً إلا متأزّرًا بمئزر جِلديّ. وكان أبي يعتقد أنّ هراتش عبقريّ يستطيع إصلاح أيّ شيء، بما في ذلك ألعابنا وأدوات مطبخ أمي والأثاث. وكان أبي هو أيضًا رائدًا في مجال التصليحات وخدماتِ ما بعد البيع، وقد صمّم عَقد خدمةٍ لكل آلة يبيعها، وهو ما يسمح له ببيعها بسعرٍ أرخص من أسعار منافسيه، ثم يعوّض الفارقَ بإقناع الزبائن بشراء عقد الخدمة لسنوات عدة. ويرأس هراتش ما يزيد عن ثلاثين ميكانيكيًا مزوَّدين بدرّاجات نارية أو هوائية يقودونها بسرعةٍ عبر شوارع المدينة كلها لإصلاح كلِّ ما تبيعه تقريبًا «شركةُ الراية للقرطاسيات»، أو «إس. إس. كو» كما كنا نسمّيها.

وكانت الشركة تَسْتخدم أيضًا طابورًا من «الخدم» كما يسمّيهم أبي، أو «الفرّاشين»، كما في العربية المصرية، يَعْملون في تسليم البضائع وصنع القهوة أو

يعملون حمّالين وعمّالَ تنظيفات، والبعضُ منهم يدور أيضًا عبر شوارع القاهرة على دراجات ذات ثلاث عجلات وتاليًا في شاحناتِ تسليم صغيرة. على هذه المملكة الشاسعة والمتوسعة باستمرار، يتسلطن أبي، ملِكًا مطلَقَ الصلاحيات وشخصيةً أبويةً كما في روايات شارلز ديكنز، مستبِدًا إذا غضب، كريمًا إذا رَضِيَ. وهو يعرف أكثر من أيّ واحدٍ آخر أدق دقائق مملكته، ملمّاً بكل شاردة وواردة فيها، لا يطيق اغتيابَ الناس (ولا يَدخل في نقاش شخصيّ مع أحد في «موقع العمل»، كما كان يسمّي ذلك المكان، ولا حتى مع أفراد عائلته)، يحوز احترامَ موظفيه، إنْ لم نقل محبَّتَهم، بفضل تعدّد مواهبه وكفاءته التي لا تخطئ في عموم المهارات الإدارية والتجارية. ومن إنجازاته أنه حوّل البيروقراطية الحكومية المصرية تحويلاً شاملاً بإدخاله الآلات الكاتبة والناسخات والناقلات وخزائنَ الأرشفة إليها، لتحلّ محلّ الوسائل الاعتباطية السابقة من ورق الكاربون وأقلام الكوبيا والأوراق المُستَنْفة على حوافِّ النوافذ وفوق الطاولات. وطوّر بمساعدة أمي، والأحرى القول إنه «اخترع»، الآلةَ الكاتبةَ بالحروف العربية بالتعاون مع شركة «رويال» التي نَمَتْ علاقةٌ وثيقة بيننا وبين أصحابها الأرستقراطيين الأميركيين، آل جون باري رايان. وكان أبي يتميّز بطاقتين جبارتين لا تخطئان لم يجمع بينهما أيٌّ سواه في تجربتي الشخصية: وهما تنفيذُه عملياتٍ حسابيةً بالغةَ التعقيد في رأسه وبسرعة الضوء من جهة، وتمتُّعُه، من جهة ثانية، بذاكرة ممتازة لتاريخ ابتياع كل سلعة من سلع تجارته وثمنها (وكان منها الألوف). وكم كان مُحرِجًا أن تشاهده وراء مكتبه، يحيط به أسعد وعدد من السكرتيرين والسكرتيرات ومديري الأقسام، وكلُّهم يفتّشون في الملفات والأوراق. فيما هو يستخرج من الذاكرة كلَّ تاريخ شراءٍ وتسويقِ ملفِّ سلعٍ يعاني تسويقُها حالَ ركودٍ، مثلاً، أو صنفٍ من الحاسبات أو مجموع نماذج قلم حبر «شيفرز».

لم يَجْعل منه هذا كلُّه ربَّ عملٍ صبورًا أو حتى مراعيًا للآخرين، ولكنّي أعتقد أنه كان دائم الاستقامة والإنصاف بقدرِ ما كان دائم السخاء. وقد ابتكر فكرة منح المكافآت لجميع موظفيه في أعياد الميلاد أو الأضحى أو روش هاشاناه (رأس السنة العبرية)، ناهيك عن مشاريعه للضمان الصحيّ والمعاش التقاعديّ. لم يَترك أيٌّ من هذا كله أثرًا يُذكر عليّ آنذاك، وأنا منهمك في الرضوخ لسلطته أو في معاناة

الشعور بالاضطهاد، فلم أقدِّر عبقريتَه الاستثنائيَة في ميدان الأعمال حقَّ قدرها، وقد طوّرها بذاته في عاصمة طَرْفية من عواصم العالم الثالث غارقةٍ في الاقتصادات الكولونيالية وملْكيّات الأرض الإقطاعية والمكاراة الفوضوية كبيرِها وصغيرِها (وإن تكن ناجحة أحيانًا). الآن فقط، إذ أعدّد كل هذه الإنجازات، أدرك كم هي مذهلة وأنّها، للأسف، لم تسجَّل له ولم يَنَلْ عليها ما يستحقه من الثناء. وحقيقة الأمر أنّ أبي كان، في الأساس، رأسماليًا حديثًا ذا قدرة هائلة على التفكير المنتظِم والمؤسساتيّ، لا يخشى خوضَ المغامرات أو دفعَ الأثمان اللازمة لتحقيق الأرباح الطويلة المدى، وكان يستغلّ الإعلانَ والعلاقات العامة بطريقة لامعة، وكان فوق ذلك كله منظِّمًا ومدبِّرًا لمصالح زبائنه التجارية، يزوّدهم أولاً بالقدرة على التعبير عن حاجاتهم والأهداف، ويمدّهم، من ثم، بالمنتجات والخدمات اللازمة لتحقيقها.

ومن تجديداته إصدارُ دليل منتجات سنويٍّ لكل تقديماته، وهو أمر لم يُقْدم عليه أحد في مجال عمله في مصر. وقد قال لي مرةً إنّ ابن عمه وشريكه المقدسيّ بولس لامَه على الكلفة المرتفعة لذلك الإصدار. بيد أنه، مع تطوّر أعماله، أَقْلع عن تلك الممارسة بملء إرادته واستعاضَ عنها بنشر لوائح «الزبائن الراضين» من كل صنف من الأصناف الرئيسية التي يتعاطاها. وهكذا، لقاءَ كلفة زهيدة، بات زبائنه، بسبب تلك اللوائح، يعملون معه ومن أجله، بمعنًى ما. فنمتْ أعمالُه وتوسعتْ، رغم بعض الانتكاسات الكارثية أحيانًا، ووفّر من ثَمَّ لأسرته، على طريقته المميزة، منافعَ ذلك التوسع في الثروة والنفوذ كاملةً.

قبل مغادرتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، لم يكن والداي قد دخلا المجتمع القاهريّ على نطاق واسع. فعلى الرغم من ثرائهما، ظلت حلقةُ معارفهما وأصدقائهما محصورة إلى حد كبير في المعاونين وأفراد العائلة، مثل إيزاك غولدنبرغ، جوهريّ العائلة؛ والأُسطا إبراهيم، النجّار الودود ذي الشارب المعكوف المتدلّي مثل مِقود درّاجة، والذي يُنتج مشغلُه قطعَ الأثاث لمنزلنا مثلما ينتجها، على نطاق أوسع، لأعمال أبي؛ ومحمود، صهر الأُسطا إبراهيم (وصهره الثاني هو محمد أبو العوف)؛ وخالي الأصغر، إميل، الذي انتقل للعمل عند أبي؛ ومراد عصفور، الموظف الشاب الصاعد في «جمعية الشبان المسيحيين» الذي ورّط أبي لاحقًا بألوف الجنيهات من الديون عندما أفلس محلُّه لبيع الأدوات الرياضية وأخذ الدائنون

يطالبون بديونهم التي كان أبي قد كفلها؛ ونجيب قلاده، القبطيّ اللامع، والسكرتير العام لـ«جمعية الشبان المسيحيين» وأحد شركاء والدي الأساسيين. وكانت ابنة قلادة، إيزيس، تملك صوتَ «آلتو» استثنائيًا وترتّل القدّاس في كنيسة الإرسالية الأميركية. وتكتمل الحلقة بعددٍ يسير من الأقارب أمثال آنطي ميليا، والعم آل وزوجته الغريبة المضحاك، إميلي، وولديهما وابنتهما، إضافةً إلى هذا القريب أو ذاك من أهالي فلسطين يزور القاهرة بين الحين والآخر لغرض التسوّق أو الأعمال. وكان هؤلاء الأصدقاء والمعارف يأتون لتناول وجبات الطعام في أوقات وأيام معينة (مثلاً، يحضر النجّار لتناول الفطور يوم السبت) فصرتُ أميّزهم من خلال عاداتهم الطعامية: فالأُسطا إبراهيم، مثلاً، يرفض تناول الخبز الأبيض ويحبّ الثوم ويؤثِر الفُول على اللحم. وكنتُ دقيق المراقبة لأدنى التفاصيل السطحية. وقد تمكنتْ مني تلك العادةُ إذ بدأتُ أعيش المفارقة بين البيئة الأميركية والبيئة المحلية بقوةٍ أشدّ بعد عامي الأول في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين»: لماذا يرتدي الأميركيون الجوارب الملّونة، والمصريون والعرب لا يرتدونها؟ ولماذا «لديهم» قمصان «تي شيرت» وليس لدينا «نحن» مثلُ تلك القمصان؟

وما لبث أن طاردني كرهُ مِس كلارك البارد واستهجانُها إلى البيت أيضًا، حيث كانت تنهال عليّ النصائح المكرورة عن شرودي وقلة الجدّية ووَهَن العزيمة وضُعف الشخصية. لم تعلّمني تلك النصائحُ شيئًا، وقد درّبتُ نفسي على مقاومتها بأن حوّلتُها في ذهني إلى مجرد جعجعة أصوات. وكانت كل الملذات مَحُوطة بالسماح الرسميّ حتى استحال عليّ الاستمتاعُ بها، ما عدا تلك المهورة بموافقة الأهل، مثل اللعب بقطار «ليونيل» الكهربائيّ – وقد حمله أبي من الولايات المتحدة عام ١٩٤٦– وهو جهازٌ بالغ التعقيد يتطلب تركيبُه إخلاءَ طاولة السُفرة والاستعانةَ بكهربائيٍّ لأنّ الوصلات بين الحافلات لم تكن على ما يرام. وقد سُمح لي بالاستماع إلى برنامجيْن إذاعييْن، زيدا إلى ثلاثة برامج، في الأسبوع الواحد، هما برنامجان من «زاوية الأطفال» التي تذاع بعد ظهر الأحد ومساء الأربعاء، وتضم مجموعةً «محتَرَمة» من العمّات والأعمام المنافقين على نحو مروّع، كانوا بريطانيين خلال الحرب وما لبثوا أن تمصّروا بعدها (وجميعهم يرطن بلهجات تقلّد اللهجة البريطانية على نحو شنيع ولهم أسماء مقززة مثل آنطي لولو وآنكل فؤاد) وبرنامجٌ واحد هو «أمسيات في الأوبرا»،

يذاع على الـ«بي. بي. سي.» في الواحدة والربع من بعد ظهر الأحد، حيث أصغيتُ إلى أوبرا كاملة لأول مرة. وحين أذيعتْ أوبرا «مقايضة زوجة» لسميتانا، دخلتُ في جذبة فيما راح ذهني يَجْهد ليتخيّل مشهد احتفالات الزواج التشيكية وما تعنيه كلماتٌ تترامى إليّ عبر الأثير ولا أفقه منها شيئًا مع أنها منحتني متعةً فائقة.

كانت الموسيقى، من جهة أولى، تدريبًا غير مُرض ومملاً على تمارين البيانو، قيّدتني بكتب بورغمولر وسزرني وهانون في تكرارات آليةٍ لم تزدني مهارةً على لوحة المفاتيح. وكانت، من جهة أخرى، عالمًا زاخرًا وعشوائيًا من الأصوات والمشاهد الرائعة لا تقتصر على ما أصغي إليه من ألحان وإنما تتضمن أيضًا نسخًا مجمّلة من الصُوَر الفوتوغرافية والرسوم الشخصية يَزْدان بها كتابُ غوستاف كوبيه **الكامل في الأوبرا** وكتابُ أرنست نيومان **ليالي الأوبرا**، وكلاهما في مكتبة الوالدين. وكانت تلك الصور تمتزج بمشاهد متخيّلة للفرقة الموسيقية يُدَوْزِن أفرادُها آلاتهم قبل بدء العزف، وقد تعلّمتُ أن أستسيغ سماعها في البرامج الإذاعية. وبدون أيّ منطق أو نظام واضحيْن، وفّرتْ لي مجموعةُ الأسطوانات العائلية خبيصةً غريبةً من أعمال جانيت ماكدونالد ونلسون إدي وريتشارد شتراوس وباديريفسكي وپول روبسون وباخ، بالإضافة إلى بعض الغرابات من مثل تأدية ديانا دوربن لـ«هللويا» من أعمال موتزارت. وإذ كرّستُ نفسي لتجربة الموسيقي الشخصية، تراءى لي مسرح ضخم تكثر فيه ربطاتُ العنق السوداء والأزياء النسائية المكشوفة الكتفين (وقد اعتاد أبي ارتداء زيّ الـ«تاكسيدو» في الأماسيّ التي يذهب فيها إلى اجتماعات المحفل الماسونيّ البالغة السرّية، فيما أخذتْ أمي ترتدي فساطين السهرة التي تزيد من بروز صدرها العارم وكتفَيْها البيضاويْن، وقد باشرا حضور الأمسيات الدورية الخاصة بالمشتركين في موسم الأوبرا والباليه القاهريّ). أَوْحى كلُّ هذا لمخيّلتي الضالة باستعراضات جنسيّة منمّقة تنميقًا رائعًا حيث الأداءُ الموسيقيّ لامعٌ إلى حد المحال، يكون أحيانًا أوركستراليًا على طريقة أفلام «إم.جي.إم.» (حيث جوزي إيتوري، في ذروة تألّقه، يقود الأوركسترا بواسطة عصًا ضخمة يعلوها ضوء أحمر وامضٌ، يحرّكها يمنةً ويُسرةً بنتائج باهرة) أو يكون، أحيانًا أخرى، أوپراليًا، تلمّح إليه تلميحًا الصورُ المثيرةُ جنسيًا التي أقتنصُها مِن كُتُب كوبيه ونيومان. وقد استحوذتْ على استيهاماتي واحدةٌ من تلك الصور بنوعٍ خاص، هي صورة جُوبا ڤيليتش في دور «صالومي»، ترتدي ثوبَ سباحة معدّلا، فحوّلتِ الأوبرا إلى تجسيد لعالَم إيروتيكيّ شدّ ما أثارتني

لُغاتُه غيرُ المفهومة وحَبكاتُه المتوحّشة ومشاعرُه المنفلتة من عُقُلِها وموسيقاه المدوّخة[1].

وظل ڤاغنر اللغز الأكبر والأكثر تحدّيًا بين المؤلِّفين الموسيقيين قاطبةً. وقد تعرّفتُ إلى أوبرا «الخاتم» وأنا في حوالى العاشرة بواسطة أسطوانة شديدة الإلغاز من ٧٨ دورة في الدقيقة سُجّلتْ عليها «حراسةُ هاغن» من جهة و«نداءُ هاغن» من جهة ثانية. ولم يتسنَّ لي أن أشاهد أو أسمع أيًا منهما إلا عام ١٩٥٨، عندما قمت بزيارتي الأولى إلى بايروث. وأدّى «هاغن» مؤدٍّ إنكليزيّ - أظنه البرت كوتس - أخذ يجأر ويهدر ويزمجر أصواتًا فرضتْ نفسَها بطريقة مناسِبة من حيث تمثيلها لعالمٍ ضبابيٍّ رائع من الأشرار الحاملي الرماح الذي يتعاقدون على عهود رهيبة ويرتكبون الجرائم الدموية، وهذا أبعد ما يكون عن عالم الأطفال الأميركيين المحتشِم وعن حياتي في البيت تحت سيطرة الأهل. فلولا المدى الواسع والعشوائيّ الذي وفّرتْه تلك المجموعةُ المتنوعة من الأسطوانات - التي لم تُفْصح لي أبدًا عن السرّ الخفيّ الجامع بينها ولا كشفتْ عن منطوق تاريخ الموسيقى الغربية بمدارسها وحقباتها المختلفة وأنواعها المتطورة - ولولا حفلةٌ موسيقية عَرَضية هنا أو هناك، لاختنقتُ كليًا تحت وطأة التدريبات العقيمة ومقطوعات البيانو المعدّة «للأطفال» والمعلّمين الحسني النوايا الذين وقعتُ، للأسف، تحت سطوتهم.

في المدرسة الأميركية، درستُ البيانو على يد مِس شيريدجيان (وقد حلّتْ محلّ معلمتي الأولى، ليلى برباري اللطيفة والصبورة). وكان مجيئُها الأسبوعيّ لتعليمنا دروسنا (جين أولاً ثم روزي وأخيرًا أنا) بمثابة مجابهات كريهة تدور مدار عجزي عن الانقياد لها وهي تزعق أوامرها - عُدَّ معي: «تا» «فا» «تي» «في»، فورتي [قويّ]، پيانو [رقيق]، ستاكاتو [متقطّع] - تتخللها رشفاتُ قهوة تُحْدِثُ أزيزًا مدويًا، وقضماتٌ عفيّةٌ في الكعكة التي يقدّمها إليها أحمد، كبيرُ السُفرجيين عندنا، بإجلال لا يخلو من السخرية. لم تنجح شيري، كما كنا نسميها، إلا في إقناعي بأني تلميذ مهمِل وعازفٌ

---

١ - «صالومي»، أوبرا لريتشارد شتراوس، و«رقصة صالومي» هي رقصة الغلالات السبع في الفصل الأخير منها، تنزع صالومي خلالها الغلالات السبع عن جسدها غلالة غلالة، إلى أن تتعرّى بالكامل، لإقناع ميرودوتس الملك بتسليمها رأس يوحنا المعمدان. (م)

بيانو فاشل، فيما أنا، بمعية أسطواناتي والكتب، صبيٌّ عَليم بحبكات الأوبرات يعرف بعضًا من المؤدّين أمثال إدوين فيشر وفيلهلم كَمْبف وبرونسلاف هوبرمان (وقد تعرفتُ إلى هذا الأخير من خلال تسجيله لكونشِرتو بتهوڤن على الكمان يرافقه جورج سْزيل) ولي تخييلات شديدة البهرجة عن حياة الحفلات الموسيقية.

في أواخر الأربعينيّات تمكنتُ أخيرًا من حضور الحفلات الأوبرالية – أو «الموسم الغنائيّ الإيطاليّ» كما كان يُسمَّى – في دار الأوبرا القاهرية، التي بناها في الأصل الخديوي إسماعيل لمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩. وكان اشتراك والدي يشتمل على حضور باليه الـ«شان-ز- إيليزيه» الفرنسيّ، بقيادة جان بابيليه وناتالي فيليپار التي لا تُنسى، وهي عندي، إلى الآن، مؤسِّسةُ نوعٍ باهرٍ فتّانٍ من الرقص هو النوع الذي تنتمي إليه سِيْد شاريس المذهلة التي شاهدتُ أفلامها جميعًا. فالرقص عندي نوع مشهديّ من التجربة الجنسية التي لا تؤخذ إلا استبدالاً واختلاسًا. والقاهرة آنذاك مدينة كوزموبوليتية يسيطر الأوروبيون – الذين يعرف أبي بعضهم من خلال عمله – على حياتها الثقافية، أو هكذا بدا لي الأمر. وكنتُ دائم الشعور بأني بعيد جدًا عما هو الأكثر إثارةً فيها، مع أني شديد الامتنان لأخذي نصيبي منها وخصوصًا ما يندرج تحت عنوان «الفن». أما المدرسة الأميركية التي مكثتُ فيها خلال العام الدراسيّ ١٩٤٨-١٩٤٩، فصارت أضيق مدى وأقل تحديًا عندما انتقلتُ إلى الصف التاسع، بل قُلْ أقلُّ تحفيزًا من الناحية الفكرية وأكثرَ فأكثرَ انغلاقًا وتكبيلاً وهمودًا وبلادة. فإذا ارتيادُ دار الأوبرا في شهور الشتاء إثراءٌ عظيم لمعارفي الموسيقية عن المؤلِّفين والبرامج والعازفين والتقاليد الموسيقية. ويعود إلى تلك السنوات نفادُ صبري من سيغموند سپايث، «تحرّي الأنغام» الأميركيّ، وكتبهِ السقيمةِ عن «كواليس الموسيقي العالمية العظيمة»، كما ضقتُ ذرعًا بكتب الأطفال عن «كبار المؤلِّفين الموسيقيين» وكان لدينا منها الكثير. وحده ڤاغنر ظل بعيد المنال. وأذكر أنّ الحفلة التي أحياها لوهنغرين باللغة الإيطالية خلال «الموسم الغنائيّ» أدهشتني، بيد أنها خيَّبتني أيضًا بسبب حركتها المبهمة وغموض النصّ الأدبيّ في المشهد الثاني الذي يتطاول إلى ما لا نهاية، وبسبب الجَوّ العام من الكآبة والضياع المخيّم عليها. وصُدِمتُ إذ اكتشفتُ أنّ لوهنغرين، المغنّي النابوليتانيّ القصير البدين، هو النقيض تمامًا لما توسمتُه فيه من شهامة وفروسية.

أول أوبرا شاهدتُها (ولم أعاود الكرّة) هي «أندريه شينييه» لجيوردنو، وكنتُ حينها في الثانية عشرة. وأذكر أني سألتُ أبي ما إذا «كانوا يغنّون خلال الأوبرا كلها أم أنه توجد فواصل للكلام (كما في أفلام وأسطوانات نِلسون إدّي وجانيت ماكدونالد المألوفة لديّ)». «كل الوقت»، كان جوابه النزق. على أنّ الجواب جاء بعد عدة أسابيع، عقب أمسية موجِعة في «سينما دنيا» حضرنا خلالها حفلةً موسيقية للمطربة أم كلثوم لم تبدأ إلا في التاسعة والنصف وانتهت بعد انتصاف الليل: حفلةً بلا فواصل، سادها نسقٌ غنائيّ وجدتُه رتيبًا إلى حد مروِّع في اتساق كآبته اللامتناهية ونَدْبِه اليائس، فإذا هو أشبه بالتأوه والنحيب المتواصلَيْن لأمرئ يعاني نوبةً حادة من الألم المَعَويّ. ولم يقتصر الأمر على أني لم أفقه أية كلمة مما غنّتْ، وإنما لم أستطع أن أميّز أيّ قوام أو شكل لتدفقاتها الرتيبة، فوجدتُها، والتَخْتَ الموسيقيُّ الكبيرَ الذي يرافقها في جعجعةِ ألحانٍ أحاديةِ الصوت، موجِعةً ومملّةً في آن. وفي المقابل، كان لأوبرا «أندريه شينييه» حيوية درامية وحبكة مسرحية تكفّلتا بأن أستَغْرَقَ فيها كليًا. ومن أسطوانات الـ٧٨ دورة في الدقيقة في بيتنا «نيميكو ديلا پاتريا[1]»، وكنتُ أصغي إليها وأنتظرُ وصلات الغناء المنفرد إذ تتطور الدراما، فلم أفلح مرةً في تعيينها. جينو بيتشي، العضو الدائم في الفرقة الزائرة المجمّعة أعضاؤها من فرقتَيْ «سان كارلو» في روما ونابولي، مثّل دور جيرار بسموّ وكثافة حاولتُ تقليدهما لاحقًا وأنا أقفز وأتزلق في حميمية غرفتي. ومع أني لم أستوعب لِمَ تُغنّي الشخصيات الأوبرالية أصلاً، فقد أسرَّني ذلك اللغزُ منذ أول اكتشافي له على المسرح القاهريّ.

بيد أني أستطيع، في المقابل، تعيينَ تواريخ مكتشفاتي الموسيقية الهامة، وصولاً إلى الدقيقة التي تمّ فيها الاكتشاف. وقد وقعتْ تلك الاكتشافاتُ كلها وأنا في حال من التوحُّد، بعيدًا عن فروض البيانو الضاغطة التي عيّنها لي أبي والمعلِّمون من أمثال شيري. ويخيّل إليّ أنّ هذا الانشقاق بين شعوري تجاه الموسيقى وبين ممارستي الفعلية لها قد شَحَذَ ذاكرتي إلى حد بعيد، وهو ما سمح لي بأن أحفظ، ثم أن أؤدي على السمع، عددًا كبيرًا من المؤلَفات الموسيقية المعدّة

---

١ ـ وَصْلة الغناء المنفرد يؤديها جيرار في أوبرا «اندريه شينيه» لجيوردانو.

للأوركسترا والأدوات والغناء وأن أفقه الكثير عن فترة تأليفها أو مميزات أسلوبها. وقد عذبتني على الدوام ندرةُ تجربتي الموسيقية الـ«حيّة»، وما تنطوي عليه من قيمة يصعب استيعابُها بالكامل، وكنتُ دائم البحث عن وسائل للتشبث بها. فعندما شاهدتُ «حلاّق إشبيلية» لأول مرة، وأنا في الثالثة عشرة، فَتَنَني الأداء وتركني في حالٍ من الحرمان العجيب في الآن ذاته، إذ أدركتُ أنّ ما أشاهده – مَرَحَ روسينيّ وقحّته، وفكاهةَ تيتو غوبي وسطوتَه، وأداءَ إيتّوري باستيانيني ذي الوَقَار الخادع لـ«لا كالُمنيا[1]» – لن يتكرّر قريبًا في أيّ شكل من الأشكال، مع أني أملتُ أن يذيع برنامجُ «ليالٍ في الأوبرا» وَصْلةً أو أكثر من وَصْلات الغناء المنفرد، وهذا ما لم يحصل لفترة من الزمن. ولكني، بعد عام من ذلك تمامًا، حين كنتُ أنا المتسكّعَ اليقظَ، بل المتلصِّصَ، أحوم حول غرفة الأهل خلال عطلة الميلاد، اِشتبهتُ في أني قد أتلقى منهم هدية من الأسطوانات الموسيقية. وفي حوالى الرابعة من فجر يوم الميلاد، تسللتُ إلى غرفة الجلوس المعتمة، متلمِّسًا طريقي إلى الشجرة الاصطناعية ذات اللون الأخضر غير الطبيعيّ – التي تُنزلها أمي من السقِيفة وتزيّنها ثم تعيدها إلى مكانها، عامًا بعد عام – حيث اكتشفتُ علبة تحوي ثماني أسطوانات من مختارات «حلاّق إشبيلية» ملقاة عند كعبها. وكان في عداد المغنين ريكاردو ستراكشياري ودينو بورجيولي وميرسيدس كابسير وسلڤاتوري باكالوني. فتحتُ العلبة بعناية وأدرتُ الأسطونات على الآلة فورًا، من أولها إلى آخرها، والأبوابُ مقفلةٌ ودرجةُ الصوت مخفّضةٌ جدًا في الغرفة الداكنة التي أخذتْ تضيء تدريجيًا بنور الصُبح الطالع. فإذا امتلاكي الأداءَ المسرحيّ كما أتذكره، وقد تكرّس في مثل ذلك الإطار الحميم جدًا والخاص جدًا، شكّل ذروة المتعة. بيد أنّ تلك النوعية المميزة جدًا أسَرَتني أيضًا في عالم من الصمت وفي ذاتية مستحيلة لم أكن أملك القوة الكافية للمحافظة على أيّ منهما.

أَغْنى بتهوفن، أكثرَ من أيّ موسيقي آخر، تربيتي الذاتية الموسيقية على نحو هو الأكثر انتظامًا. لم يعتقد المعلّمون أني جدير بأداء سُوناتاته على البيانو (كان موتزارت معذّبي في هذا المجال) مع أني بذلتُ محاولات سرّية عدة لعزف سُوناتا

---

١ ـ وصلة الغناء المنفرد لدون باسيليو في «حَلاّق إشبيلية» لروسّيني.

«پاتيتيك» ونَمَتْ عندي خلالها شهيةٌ للاستيعاب البصريّ تَفُوق بكثيرٍ طاقاتي على الأداء الإصبعيّ. وعندما يجري تأنيبي لأني لا أتمرن على فروض هانون وسزيرني التي كلّفتُ بها، رغم حضور أمي مراقِبًا دائمًا، كنتُ ألجأ إلى الأسطوانات فأفكّ ألغاز مقطوعات البيانو المحظورة «المعدّة للكبار» من تأليف ماندلسون وفوريه وهاندل وقد أسقِطَتْ من برنامجي الموسيقيّ لصالح الحثالة التي فُرِض عليّ المواظبةُ عليها لساعات لا تنتهي.

أخذني الأهل ذاتَ مرة إلى قاعة إيوارت (داخل حرم الجامعة الأميركية في القاهرة، وهي أكبر قاعات الاحتفالات الموسيقية من نوعها، وكانت ولا تزال تُستخدَم للكونشرتات الهامة) لحضور حفلة لفرقة «موزيكا ڤيڤا» بقيادة هانس هيكمان، وهو ضابطُ إيقاع يَدْفن رأسه في النوطة كما في مخدّة. أدّت العزفَ المنفردَ في كونشرتو البيانو الأول لبتهوفن – أم تراه الثاني؟ – موريال هاوارد، زوجةُ عميد الجامعة الأميركية في القاهرة، وأمُّ كاثي، زميلتي في المدرسة الأميركية. وكان أبي مقرَّبًا من العميد وَارْث هاوارد (وكنتُ أرى في الرنّة القويّة لاسمه الأول تجسيدًا لكل جبروت القارة الأميركية) فأَصَرّ على أن يصطحبني وأمي إليه وإلى زوجته المنطوية على ذاتها على نحوٍ غريبٍ، حسبما اكتشفتُ، وقد أتمّتْ للتوّ أداء الكونشرتو بطريقة سريعة خاطفة للأنفاس. «براڤو»، قال أبي، والتفتَ مباشرةً إلى أمي طلبًا للدعم. «رائع»، أنجدته أمي، قبل أن تلتفتْ إليَّ فجأة بنظرة تحذير. وأنا طبعًا معقود اللسان، ألازم مكاني، يفضحني شعوري بالحَرَج العميق. «أترى؟»، قالت أمي بنبرة ظفراوية مع أنها كانت تخاطب موريال في الآن ذاته، «أترى أهمية التمرين على السلالم الموسيقية، يا إدوارد؟ السلالم وهانون. أليس كذلك، يا سيدة هاوارد؟». أومأتِ السيدة هاوارد برأسها موافقةً، ولكنْ بإحساسٍ واضحٍ أنّ التمرّن على السلالم هو آخرُ ما يهمها الحديثُ عنه في تلك اللحظات.

وبالمقارنة، فإنّ تسجيل ستوكوفسكي لسمفونية بتهوفن التاسعة (التي أَنشدتْ فيها الجوقةُ قصيدةَ شيللر «نشيدٌ للفرح» بالإنكليزية («افرحي، أنتِ، يا ابنة النعيم») قد أبهجني بتفسيره للحرية وباللُّغز المرعب للفواصل الخماسية الطليقة، فأصغيتُ والحسدُ يتآكلني إلى السهولة الروتينية التي ترقى بها الأوركسترا

السلالمَ الموسيقية وتؤدّي التنويعات الشائكة، بلا أدنى خطإ، محاولاً، بطريقة لاشعورية، أن أترجمها إلى مواقع إصبعية ذهنية تَعْجز أصابعي غيرُ الدَربة عن عزفها على البيانو. واستمتعتُ استمتاعًا بالغًا بـ«رقصة صالومي»، كما تعلن عنها الرقعةُ على الأسطوانة البُنّية، وبتسجيل پاديريفسكي لسائية بتهوفن على مقام «إف» الحاد، وبالڤالس على مقام «سي» الصغير الحاد التي اعتبرتُها ذروةَ العزف على البيانو والنقيضَ من أدائي البائس.

على أنّ أعظم تجاربي الموسيقية قاطبةً، خلال أيام المراهقة القاهرية، هي الزيارات التي قام بها كليمِنس كراوس وفِلهلم فورتڤانغلر عامَيْ ١٩٥٠ و١٩٥١ مع فرقة ڤيينا الفلهارمونية وفرقة برلين الفلهارمونية على التوالي. ومع أني أُخِذتُ في الحالين إلى حفلتَيْ بعد ظهر يوم الأحد، وقد غلبتْ عليها، في حال كراوس، «طقطوقاتٌ» من نمط افتتاحية «دونّا ديانا» و«پولكا پيتزيكاتو» لشتراوس، فقد حررني النغمُ الرائع الجمال والحضورُ المتسلطن على المنصّة وحتى سحرُ الكلمات الألمانية (من مثل «ڤيينّر فيلهارمونيكر») من الابتذال. ولأني لم أستمع مباشرةً من قبلُ إلى أيّ شيء يبلغ ذلك المستوى من البراعة الغزيرة المباشرة، فلا يزال يَحْضرني مدى الحبور الذي انتابني وكيف حاولتُ بشتى الوسائل أن أمدّد الساعتين الهزيلتين اللتين أُعطيتُهما في سينما ريڤولي (ولم أفهم قط لماذا لم تُختَر لكراوس وفورتڤانغلر قاعةُ إيوارت الأنسبُ والأرصنُ، واختيرت بدلاً منها صالةُ سينما فاحشةُ الزخرفة، تكتمل عدّتُها بأُرغنٍ رنّان يُشعشع بأنوار النيون السُكّرية النابضة، وبعازفِ أُرغن إنكليزيٍّ، هو جيرالد پيل، الاستعراضيّ القرمزيّ الوجه الذي أدت قفزاتُه البهلوانية صعودًا إلى الآلة المدرّجة المهيبة ونزولاً منها، إلى تسليتي بأكثر مما أداه عزفُه الذي لا ينتهي لأعمال كيتِلبي[1] وللباهت من الإيقاعات اللاتينية الراقصة. وفحوى محاولاتي تلك أني سعيتُ للاحتفاظ بالموسيقى في أذني، وقيادةِ أوركسترا وهمية، والبحثِ بلا نجاح يُذكر عن تسجيلات (أغلى ثمنًا بكثير مما تتحمله إمكاناتي المادية) للمقطوعات ذاتها تؤديها الأوركسترا ذاتُها بقيادة

---

١ ـ البرت كيتلبي (١٨٧٥ ـ ١٩٩٥) موسيقيّ وقائد اوركسترا بريطانيّ ذاعت شهرته بسبب تأليفه مقطوعات من الموسيقى الخفيفة على الأُرغُن.

القائد ذاته. وكنت أُحبَط بالتأكيد، وأكتئِب، في غالب الأحيان، للسرعة التي تأتي بها مثلُ تلك الغبطة النادرة وتروح، وللوقت الذي قضيته لاحقًا ساعيًا لاستعادتها بل ولتكريسها بالبحث عن كتب ومقالات وبشر تحدِّثني عنها، وتؤكِّد لي حقيقتها ومتعتها، وتُحْيي فيّ ما بدا أنه على شفير الزوال.

بعد سنة على مشاهدتي كراوس، اعتلى فورتڤانغلر هو أيضًا منصّة «سينما ريڤولي» في أصيل ذات يوم أحد . فكانت الحفلة الموسيقية التي طغت على السنوات الحادية والعشرين الأولى من حياتي، لم يضارعها غيرُ سماعي، عامَ ١٩٥٨، الإيقاعاتِ الافتتاحيةَ لـ«ذهب نهر الراين»[1] تتعالى من حلبة الأوركسترا المُعتمة في بايروث. لم أكن أعرف عن فورتڤانغلر شيئًا باستثناء أنّ اسمه يَظْهر على الرُقعات الحمر لأسطوانات HMV في تسجيله لسِمفونية بتهوڤن الخامسة. ولخمس سنوات على الأقل، ظلّ ذاك التسجيل هو التسجيلَ الأثير لديّ والمحكُّ الذي به أَحْكم على الأداءات الموسيقية كافةً، بل كان الذروةَ في قوة لا توصف يخيّل إليّ أنها تخرج لتخاطبني مباشرةً من الراديو – غرامافون الطولاني، ماركة «ستيورت-وارنز». أولَ الأمر، بدا لي أنّ اسم فورتڤانغلر هو مصدر تلك القوة، أردده غالبًا بيني وبين نفسي (على جهلي باللغة الألمانية) وأتخيّله كائنًا ممشوق القوام، فائقَ التهذيب، كُتِبَتْ موسيقى بتهوڤن خصيصًا له. وأَذْكر كيف أني تحلّيتُ بصبر عظيم وأنا أُناقِضُ ذات مرة تأملات ابن عمي القليلةَ الخبرة حين ادعى أنّ شعار السِمفونية الخامسة هو «القَدَر يدقّ الباب». فما اكتشفتُه في المقطوعة، بفضل فورتڤانغلر، عرفتُ بالغريزة أنه لا يحتمل مثلَ ذلك التأويل. «الموسيقى هي الموسيقى»، أذكر أني أجبتُه، من نفاد صبري ومن عجزي أيضًا عن التعبير عما يهزّني في الموسيقى بطريقةٍ جدٍّ فريدةٍ وإلى درجة العَيّ عن الكلام.

جلسنا في مقاعد البلكون كالتي حجزناها لحفل كراوس – وكانت محجوزة، في تلك الأيام، لمن يسمّيهم أبي «طبقةً أرقى من الناس». ويبدو لي، في نظرة استرجاعية، أنّ كراوس شخصية جامدة وأشبهُ برجل أعمال. ثم إنّ برنامج فورتڤانغلر، مثله مثل الرجل نفسه، كان أكثر تحديًا، إذ ضمّ سِمفونية شوبرت «غير

---

١ ـ Das Rheingold (١٨٦٩): اوبرا لڤاغنر. (م)

المكتملة» وسِمفونية موتزارت في مقام «جي» الصغير، والسِمفونية الخامسة لبتهوفن. وفي برنامجه الآخر، الذي لم أُوْخذ إليه، عَزَف سمفونية تشايكوفسكي السادسة والسابعة لبروكنر. وقد خلص والداي بداهةً إلى أنّ البرنامج الأول هو وحده المناسب لي، ولعلّ بروكنر المجهول هو سبب نفورهم من ذاك البرنامج. أطلّ فورتڤانغلر ببُنيته النحيلة، الطويلة، الخرقاء والحادة الملامح، يتوِّجها رأسٌ أقرع مهيب. فأدى ذلك إلى خلق الانطباع المناسِب لديّ: هوذا موسيقيّ متقشف كأنه قادمٌ من عالم أُخرويّ، رأيتُ في مظهره رمزًا للتجلّيات التي تستدعيها بالضرورة موسيقى بِتهوفن. بيد أني صدمتُ لأنّ فورتڤانغلر، خلافًا لكراوس السَلِس، لم يكن يقود الأوركسترا (بعصًا صغيرة إلى درجة أنها أثارت استغرابي) بقدر ما كان يحرّك الموسيقى تحريكًا بمنكبيه وذراعيه الطويلين غير المتناسِبَين. فلا يستعين بالنوطات الموسيقية ولا يقلّب الصفحات ولا هو ضابط إيقاعات، بحسب الطريقة المدّعية لهانز هيكمان، قائِد الأوركسترا المحلية. بدلاً من ذلك، خُيِّل إليّ أنّ الموسيقى تنمو عنده وتترعرع وفقًا لمنطق عنيد هو غايةٌ في الغبطة والكمال، وإذا هي تتدفق أمامي، على نحو لم يكن لي أن أختبره من قبل، خلْوًا من أيّ من «الأغلاط» التي تشلّني حَرَجاً في حضرة شيري، فلا حاجة للتوقف ريثما يجري تبديل الأسطوانة وما من صوت يُسمَع غير صوت موسيقى بتهوفن. وشعرتُ أيضًا أنّ هذه التجربة أفضل، ومن ثمّ أندر، من أية تجربة قد تمنحني إياها أسطوانةٌ ما، مع أنه غمرني، طبعًا، أسفٌ لذيذ بعد انتهائها وقد بتّ عاجزًا عن استعادتها إلا من خلال المقاربات المتوافرة لديّ بواسطة الآلات الموسيقية أو الذاكرة المعطوبة. عندما أصغيتُ إلى تسجيل فورتڤانغلر للسِمفونية الخامسة، أمتعني لكنه لم يمنحني حالة الرضى التي حلّت عليّ في المسرح. إنّها الموسيقى الحقيقية تزيح النسخة المسجّلة وتأخذ مكانها، مرةً وإلى الأبد. ومع ذلك، ظللتُ أستسيغ تسجيل فورتڤانغلر بما هو مقطوعة أثيرة أُصغي إليها وأستزيد.

اصطدمتْ محاولاتي اللاحقة للعثور على المزيد من المعلومات عن فورتڤانغلر بالمعوّقات الموجودة في القاهرة زمنَ مراهقتي. فلم تكن توجد حلقة ثقافية ألمانية في قاهرةِ ما بعد الحرب تضارع المؤسسات الثقافية التي أشادها المنتصرون من إنكليز وفرنسيين وأميركيين. فأخذتُ أنقّب في الصحف اليومية – **الأهرام** والـ **إيدجبشان**

غازيت والـ **پروغريه إيجبِسيان** - والمجلات - **روزا اليوسف والهلال** - بحثًا عن معلومات عنه، فلم أعثر على شيء. وكانت المدينة قد بدأتْ تستقبل طوفان مجلات هواة السينما الأميركية مثل **فوتوپلاي وسيلڤر سْكرِين**. ومع أنك كنتَ تجد كل شيء يخصّ جانيت لِي وطوني كورتِس، فلم تكن لتعثر على شيء يخصّ الشخصيات الغريبة التي تهمّني (وتثير استغراب اصدقائي). ورغم أنّ الحرب وضعتْ أوزارها، لم يتوافر أيّ توثيق عن مجريات الأمور داخل ألمانيا (حيث برز فورتڤانغلر على نحو مرموق). وفي عيد ميلادي الخامس عشر، عام ١٩٥٠، أهداني والداي كتاب پيرسي شول **دليل اكسفورد للموسيقى** الذي ما أزال أحتفظ به، فعثرتُ فيه على نبذة مختصرة جدًا عن فورتڤانغلر («قائد أوركسترا ألمانيّ ولد عام ١٨٦٦؛ راجِع: "ألمانيا والنمسا"»). على أنها تتوسع قليلاً في الحديث عن الرجل من خلال بحث عام وجدّ موارب عن الموسيقى في ظل الرايخ الثالث والدَّوْر الذي لعبه فورتڤانغلر في قضية «ماثيس دِر مالر»[1]. ولكنّ تلك النبذة لم تفسّر لماذا أضحى فورتڤانغلر شخصية مثيرة للجدل إلى ذلك الحدّ بعد الحرب، ولا لماذا أثّرتْ فيه المسألةُ الأخلاقية ومسألةُ التعاون [مع النازيين] ذلك التأثيرَ القويَّ.

ومن الأسباب التي عوّقتْ نسبيًا تعرّفي إلى فورتڤانغلر إحساسي بالوقت أمرًا بدائيًا ومعوِّقًا في الأساس. إذ يخيَّل إليّ أنّ الوقت يعاندني على الدوام. وباستثناء فترة وجيزة في الصباح أتطلّع فيها إلى النهار الضاجّ بالاحتمالات، أجدُني محشورًا حشرًا بجداول الأعمال والمهمّات الروتينية والتكليفات، وما من لحظة للتمتع بوقت فراغ أو لمجرد التأمل. أُعطيتُ ساعتي اليدوية الأولى وأنا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. وكانت ساعةً تافهةَ المظهر من صنع «تيسّو». ولأيام عديدة كنتُ أقضي الساعات الطوال أحدّق إليها في استغراقٍ يحيّرني فيه عجزي عن مشاهدة حركة آلاتها، وتُقلقني على الدوام خشيتي من أنْ تتوقف الساعة عن الحركة. ظننتُها مستعملةً، أولَ الأمر، لأنّ ثمة ما بدا باليًا فيها على نحو مثير للريبة. ولكنّ والديّ طمأناني أنها جديدة كلَّ الجدّة وأنّ مظهرها المُصفرّ (والمَشُوب باللون البرتقاليّ) هو من خصائص طراز تلك الساعات. ومهما يكن، فقد ظللتُ مهووسًا بساعتي. قارنتُها أولَ الأمر بما يستخدمه زملائي في

---

١ ـ «ماثيس الدَهّان»: أوبرا لپول هايديميث منعتها الرقابة النازية. (م)

المدرسة الأميركية، فبدت لي ساعاتُهم أدنى نوعيةً من ساعتي، خلا النماذج المرسومة عليها صورُ «ميكي مَاوس» و«بوباي» والتي ترمز إلى أميركا التي لا أشعر بالانتماء إليها. ثم أخذتُ، منذ فترة مبكرة، أجرِّب الطرق المختلفة لحَملها: ميناؤها نحو داخل اليد، فوق كُمّ القميص، تحت كُمّ القميص، مشدودةً، رخوةً، عند أعلى المعصم، وأخيرًا، محمولةً على اليد اليمنى. واستقرّ بي الأمر أن حملتُها في معصمي الأيسر، فمنحتني لفترة طويلة الشعور الإيجابيّ بأني متأنق.

على أنّ ساعتي لم تنفك تثير دهشتي بحركاتها المندفعة إلى أمام من غير مقاومة. وهذا ما زاد، بأشكال مختلفة، من شعوري بأنني متأخر عن مواعيدي ومقصِّر عن واجباتي والتزاماتي. لستُ أذكر أني كنتُ نوّاماً بأيّ حال، ولكنني لن أنسى دقة مواعيد الاستيقاظ في الصباح الباكر وذلك الشعورَ المباشر بالإلحاح القلِق ينتابني لحظةَ مغادرة السرير. فلا وقت لتضييع الوقت أو التكاسل، مع أني كنتُ ميّالاً إلى هذا وذاك. ونَمَتْ عندي عادةٌ سوف تلازمني مدى الحياة هي اختباري الوقتَ بما هو مهدورٌ، ومقاومتُه من طريق تمديد الوقت المتوافر لديّ بإتيان المزيد والمزيد من الأعمال (كاختلاس قراءات سريعة أو التحديق عبر النافذة أو البحث عن غرض تافه مثل سكّينِ جَيْب أو قميصٍ ارتديتُه بالأمس) خلال اللحظات القليلة المتبقية لي قبل أن يحين موعدٌ نهائيٌّ لا يرحم. أحيانًا، كانت ساعتي اليدوية عنصرًا مساعدًا، عندما تعلن أنّ ثمة ما تبقى من وقت، على أنها كانت غالبَ الأحيان تَحْرس حياتي مثل ناطورٍ منحازٍ إلى نظامٍ برّاني فَرَضَه الأهلُ والمعلمون والمواعيدُ غيرُ القابلة للتأجيل.

في مراهقتي المُبكِرة، وقعتُ كليًا في قبضة الوقت الذي ينقضي بما هو سلسلة من المواعيد النهائية، يلتبس فيه المُبْهِجُ والمزعجُ معًا، وهي تجربة لازمتني منذ ذلك الحين. وقد وُضِعتْ علاماتُ الاستدلال لنهاري في مطلع تلك الفترة ولم تتبدّل تبديلاً. فموعدُ اليقظة هو السادسة والنصف (أو السادسة، في حالات الحشر العظيم، وما أزال أستخدم عبارة «أستيقظ في السادسة وأتمّم هذا العمل»). وفي السابعة والنصف تكون الآلة قد بدأتْ تدور، فأَدْخل في نظامٍ مرصوصٍ من الساعات وأنصافِ الساعات تتحكم فيها حصصُ الدراسة وقداديسُ الكنيسة والدروسُ الخصوصية والفروضُ المدرسية المنزلية والتمارينُ على البيانو والألعاب الرياضية إلى أن يحين موعد الإخلاد للنوم. لم يغادرني قط ذلك الإحساسُ بالنهار مقسّمًا إلى فترات من

الجهد المبرمج، بل أخذ يتفاقم مع الوقت. ولا تزال الحادية عشرة تبثّ فيّ الإدراكَ المُذنِبَ أنّ الصباح قد انقضى ولمّا أُنجِز ما يكفي من المهمات – وأنا الآن أكتبُ هذه الكلمات في الحادية عشرة وعشرين دقيقة. ولا تزال التاسعةُ مساءً تمثّل «التأخر»، أي اللحظاتِ التي تعلن نهاية النهار، والحاجةَ الملحّة للبدء بالتفكير في الإيواء إلى السرير، والوقتَ الذي يعني العملُ بعده أنك تعمل في الوقت غير المناسب.. وتعني أيضًا أنّ الإرهاقَ والإحساسَ بالإخفاق يزحفان عليك... بل تعني أنّ الوقت قد تجاوز وقته ببطء.. وهي تعني، في نهاية المطاف، التأخُّرَ، بكل ما للكلمة من معنى.

شكلّتْ ساعتي اليدوية الموضوع الرئيسيّ الكامن وراء ذلك كله، فارضةً نوعًا من الانضباط الموضوعيّ الذي يحافظ على تشغيل نظام حياتي بطريقة أو بأخرى. لا وقت للراحة. وأذكر بوضوح مذهل أوامر أبي المبكرة التي نَهَتنا عن ارتداء المنامة و«الروب دو شامبر» بعد انقضاء ساعات الصباح الباكرة، غير أنّ المَشّاية كانت تستحوذ على ازدرائه أكثر من أيّ شيء آخر. وما أزال عاجزًا عن أن أقضي أيّ وقت متكاسلاً في «الروب دو شامبر»: ذلك أنّ مزيجًا من الشعور بالذنب لتضييع الوقت، ومن النظر إلى الكسل عيبًا من العيوب، يَسْحقني سحقًا. وللتحايل على هذا الانضباط الصارم، كان المرض (وأحيانًا التمارُض، وأحيانًا أخرى، تضخيمُ المرض) يسوِّغ تخلّفي عن المدرسة. فصرتُ مَضْحكةَ العائلة لشدّة توسُّلي الضمادات وامتناني لمن يتكرّم عليّ بضمادة غير ضرورية لأصبعي أو ركبتي أو ذراعي.

والآن، تشاء مفارقةٌ شيطانية أن أُصاب بسرطان الدم العنيد الغادر، فأحاول طرده من ذهني كليًا على طريقة النَعَامة، ساعيًا، بنسبة معقولة من النجاح، إلى أن أعيش حياتي وفق نظامي الميقاتيّ، فإذا أنا أكدّ، ويطاردني التأخُّرُ، وترزح عليّ وطأةُ المواعيد النهائية، ويسيطر ذلك الإحساسُ بالإنجاز غير الكافي الذي تعلمتُه منذ خمسين سنة واستبطنتُه منذ ذاك الوقت على نحو لافت. ولكنْ في انقلابٍ غريبٍ للأمور، أجدني أتساءل في سرّي ما إذا كان نظامُ الواجبات والمواعيد النهائية سوف ينقذني الآن، مع أني أدرك، طبعًا، أنّ مرضي يَزْحف زحفًا على نحو غير منظور، وبسرّية أكبرَ وغدرٍ أعظمَ من سريان الوقت الذي كانت تعلنه ساعتي اليدويةُ الأولى... وقد حملتُها وأنا غافل آنذاك عن حقيقةِ أنها ترقّم فَنائيّتي ترقيمًا، وتقسّمها إلى فواصل تامّة وغيرِ متبدّلةٍ من المواقيت غيرِ المتحقّقة إلى أبد الآبدين.

الفصل السادس

أذكر الحِدّة المستغربة التي نعى بها ابنا عمّي المَقْدِسيان الأكبران، يوسف وجورج، يومَ الأول من تشرين الثاني ١٩٤٧، وهو عيد ميلادي الثاني عشر، عشية ذكرى وعد بلفور. فقد وصفاه بـ«اليوم الاشد إظلامًا في تاريخنا». لم أفقه الإشارة، لكني أدركتُ أنّ الأمر لا بد أن يكون على جانب عظيم من الأهمية. ولعلهما افترضا، ومعهما والداي، وجميعهم جلوسٌ حول مائدةٍ تتوسطها كعكةُ عيد ميلادي، أنه لا يجدر إعلامي بأمر بمثل تعقيد صراعنا مع الصهاينة والبريطانيين.

أمضيتُ ووالديَّ وشقيقاتي معظم العام ١٩٤٧ في فلسطين التي غادرناها لآخر مرة في كانون الاول/ديسمبر من ذلك العام. وهكذا فاتتني عدة شهور من المدرسة الأميركية فسُجّلتُ في مدرسة سان جورج في القدس.

كانت كل معالم الأزمة الزاحفة تُحْدق بنا. المدينة منقسمة إلى مناطق متعددة يسيطر عليها الجيش البريطانيّ وحواجزُ الشرطة التي كان لزامًا على السيارات والمشاة وراكبي الدراجات المرورُ عبرها. وكان البالغون من أُسْرتي يحملون جميعًا أذونات مرور سُجّل عليها اسمُ المنطقة أو المناطق التي يُسمح لهم بالتجوّل فيها. حمل أبي ويوسف إذنَ مرور متعدد المناطق (المناطق ألف وباء وجيم وتاء) فيما اقتصرتْ أذوناتُ الباقين على منطقة واحدة أو ربما منطقتين اثنتين فقط. لم أكن في حاجة إلى إذن مرور إلى حين بلوغي الثانية عشرة، وهو ما سمح لي بأن أتجول بحريةٍ مع ابنيْ عمي ألبرت وروبرت. وكانت القدس الرمادية الساكنة مدينة متوترة بسبب سياسات

ذلك الزمان والمنافسات الدينية بين مختلف المذاهب المسيحية كما بين المسيحيين واليهود والمسلمين. وذاتَ مرة، تلقيتُ تأنيبًا عنيفًا من عمتي نبيهة لأني ارتَدْتُ الـ«ريجنت»، دارَ السينما اليهودية (لماذا لا تبقى مع العرب؟ ألم تعد الـ«ريكس» تليق بك؟ سألتْ بصوت مرتفع، ثم أردفتْ: «في كل الأحوال، هُم لا يرتادون صالاتنا السينمائية!»). ومع أنّ إغراء ارتياد الـ«ريجنت» كان كبيرًا جدًا، فقد امتنعنا عنه بعد ذلك الحين. وكان حديثنا اليوميّ في المدرسة والبيت هو بالعربية وحدها، خلافًا لما كانت الحال في القاهرة، حيث كانوا يشجّعونا على التكلم بالإنكليزية. وذلك لأنّ عائلتي «تنتمي» إلى القدس، ولغتنا الأم سائدة أينما كان، حتى عندما نتحدث عن أفلام هوليوود: فإذا «تارزَن» يصير «طَرَزَان»، ولوريل وهاردي «البَنْصَ والرفيع».

كنتُ أَمضي كلَّ صباح إلى مدرسة القديس جورج، معظمَ الأحيان برفقة ابنَيْ عمّي التوأميْن، روبرت وألبرت. وكانت القيادة معقودة اللواء لألبرت. فهو رئيس الفريق الرياضيّ والنجم اللامع في المدرسة، يسبق توأمَه روبرت بصف واحد (وهذا الأخير لم يكن رياضيًا)، ثم إنه اجتماعيّ جدًا وواحدٌ من «شلّة الشباب». أما أنا فكنتُ الأصغر سنّاً، مسجّلاً في السابع الابتدائيّ، في مدرسة الصغار التي تقع عبر الشارع من مدرسة الكبار المتربِّعة على موقع أكثر ارتفاعًا حيث يَدْرس ابنا عمي. ومدرسة القديس جورج هي أول مدرسة ذكور أنتسب إليها وأول مدرسة عَقَدتُ فيها علاقات أوثق من علاقات المدارس القاهرية، حيث كنتُ مجرد غريب يدفع الأقساط المدرسية. وكان أبي قد ارتاد تلك المدرسة، وأظنّ أنّ جدي دَرَسَ فيها هو أيضًا، ومثلهما فعل معظمُ الأفراد الذكور من عائلتي باستثناء العم أسعد («آل») الذي دَرَسَ عند المطران غُبَاط. خلال اليومين الأوليْن، شعرتُ أنّ غياب البنات والمعلّمات مَحَضَ المدرسة طابعًا أكثر قساوةً وخشونةً وجسدانيةً وجعلها أقلّ أُنساً من مدارس القاهرة. على أني سرعان ما تكيفتُ مع الجوّ الجديد، إذ وجدتُ نفسي للمرة الأولى والأخيرة في حياتي الدراسية بين صبيان يشبهونني؛ فكل فرد من أفراد صفي تقريبًا تعرفه أسرتي. ولأسابيع تَلَتْ بدء الدراسة، ظل والداي وعماتي وابنُ عمي يوسف يسألونني أسئلة عن «أولاد الصفّوري في صفّك» أو يعلّقون تعليقات عرضية ولكنها عليمة عن زميلٍ من آل دجاني أو آل جمال كان والداه أو أعمامه أو عماته في عداد أصدقائهم.

كان معظم المعلّمين من البريطانيين، خلا اثنين هما ميشيل مرمورة، المجابِلُ لألبرت وابنُ القسّيس الأنغليكانيّ، والسيد بويدجيان، الأرمنيُّ المقدسيُّ، الذي كان يافعاً عندما كان أبي في المدرسة. وكانت المرأة الوحيدة في المكان هي مِسّ فِنتون، التي تُعلّمنا اللغة الإنكليزية بين حين وآخر بديلاً من المعلّمة الأصلية. وقد وَجَدْتُها جذّابة بشكل صاعق، بشعرها الأسود وقامتها النحيلة، تنتعل الصندل وترتدي قميصًا أبيض وتنّورة زرقاء بَحْرية. وكان تعاملي معها محدودًا جدًا، لندرة الفرص المتاحة بعيداً عن عالم الصبيان والأساتذة الخَشِن حيث أعيش. فظلّتْ طيفاً رومانسياً وكائناً يمنحني حضورُه الأنيقُ لذةً شخصية، إذ أُشاهدها تطوف عبر أروقة المدرسة الابتدائية أو ألمحها من خلل نافذة غرفة الشاي الخاصة بالأساتذة. وبعد مضيّ سنوات عديدة، اكتشفتُ أنها عمة الشاعر جيمس فِنتون. وعلى النقيض تمامًا منها، كان المستر صُغ، الإنكليزيّ ذو العرجة الفادحة، وكان مجردُ لفظ اسمه يثير عواصفَ من الضحك الساخر لمظهره والتأتأة التي يعانيها. وهو من أوائل الهامشيين الإنكليز الذين قابلتُهم، وقد بدا منقطعاً عن وقائع المدرسة المعقّدة (بل الشديدة التعقيد) حيث يعلّم، وعن التلامذة الذين يحاول تربيتهم دون كبير فَلاح. لم أكن أنا وزملائي نصغي إلى دروسه الملّة في الجغرافية أو ننجذب إليها. وكان، في ياقته المنشّاة وبذلته البنّية الفاهية التي لا تتبدّل، أشبه بكائن من عالم آخر يعجّ بأنهر الدانوب والثيمز وجبال الآبينين وأصقاع القطب المتجمّد، لا يثير انتباه أحدٍ من الصبيان اللامبالين والمستغرقين أشدَّ الاستغراق في شؤونهم الذاتية.

ينقسم الصف بالتساوي إلى مسيحيين ومسلمين، وتلامذة الداخليّ وتلامذة الخارجيّ. ينتمي معلّم الحساب، ميشال مرمورة، إلى عالمٍ لن يلبث أن يواجِه الاضمحلالَ والمنفى في كوارث العام ١٩٤٨. وهو معلّم دمث وحاد الذكاء، وعلى الرغم من توتره العصبيّ لأنه صديقٌ لمعظم أهل تلامذته (وابنُ أرشمندريت الكاتدرائية الذي عمّدني) فقد نجح في تعليمنا أوليات الكُسور بمهارة كبيرة. وقد التقيتُه عبر السنوات في ماديسون وويسكونسين وپرينستون وفي ما بعد في تورونتو حيث لا يزال يعيش، ولم يبارحه حنينُه إلى ماضيه المبدَّد. أما باقي تقديمات المدرسة في سان جورج فلم تترك أيَّ أثر فيّ. كانت تجمع التعليم اللامبالي وإلى

المناخ الانتقاليّ، وفي نظرة استرجاعية بعد مضيّ خمسين عامًا، أرى أنها توحي عمومًا برُوتين عبثيّ يسعى للحفاظ على نفسه في الوقت الذي تعاني فيه هويّةُ البلد تبدلاً لا عودة عنه. ولما كنتُ أطوَل قامةً وأسرع نمواً قياسًا إلى عمري، بعد أن بلغتُ الثانية عشرة وصرتُ بحاجة إلى إذن مرور للذهاب إلى المدرسة، فقد كان الجنود البريطانيون، عند حواجز الأسلاك الشائكة، يفتّشون حقيبتي ويدققون في إذن المرور بريبة فيما أَعْيُنُهم الأجنبية المعادية تتفحصني طولاً وعرضًا بصفتي مصدرَ شغب محتمَلاً.

ومع أنّ إذن المرور حَصَرَ حركتي في المنطقة التي تقع فيها مدرستي، فإنّ أسرة عمتي كانت تملك سيارة ستوديبيكر خضراء فاهية يُسمَح لألبرت وروبرت بسَوقها. فكنا نحن الثلاثةَ نتجول في الطالبية، داخلين خارجين بتكاسل من بيوت أصدقائهما. وعندما أكون بمفردي، أقود دراجتي حول الساحة الصغيرة إلى الغرب من بيتنا. وعلى مبعدة صفين من الأبنية خلف البيت، كان فيلق الآلات الهوائية في الجيش البريطانيّ يُجري تدريباته تحت شمس الظهيرة القاسية، وأذكر أني، في أيام العطل الأسبوعية، كنت أقعي خلف الصخور لمشاهدتهم، مشدوهاً من صيحاتهم الأعجمية وأحذيتهم السوداء المسمّرة تَخْبط الأسمنت الأسود الذي يكاد أن يذوب من شدّة الحرّ ومن نفير أبواقهم الهجين الوحشيّ.

توّلع ابنُ عمي ألبرت بالشِعر الإنكليزيّ، فهو يلقيه ويُكْثر من تقليب بؤبؤ العين في حركة دائرية، في تقليد ساخر لمعلّم اللغة الإنكليزية ولممثلٍ مسرحيّ في ذروة انطلاقه في آن معًا: «نصف فرسخ، نصف فرسخ، نصف فرسخ قُدُماً إلى الأمام / في وادي الموت، يكرّ السِتمئة خيّال، جميعًا»، وكان يلقي الأبيات ويدُه اليمنى ترتفع رويدًا رويدًا مع ارتفاع نبرة صوته. «لا شأن لهم في أن يعطوا الجواب. لا شأن لهم في أن يسألوا لماذا،/ دأبهم فقط أن ينفّذوا وأن يموتوا. إلى وادي الموت/ يكرّ الخيّالة السِتمئة». وفهمتُ من ذلك أنه يُفترض بنا نحن كذلك أن نكون جنودًا مقدامين نهجم دومًا إلى أمام، تحدونا فكرةٌ واحدة فقط هي تأدية الواجب. ويعلو صوتُ ألبرت إذ يعلن: «العالم كلّه مشدوهٌ بهم، العالم كله. مَجّدوا هجومهم/ مَجّدوا هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة، الخيالة البواسل الستمئة». لم أكن أعرف شيئًا عن

«فرقة الخيّالة الخفيفة»[1]. وقد مرّ وقت طويل قبل أن أحفظ القصيدة تدريجيًا عن ظهر قلب. وحين كنتُ ألقيها برفقة ابن عمي، خطر لي أنّ كلماتها قادرة على محو كل تفكّر أو شعور. فعبارة «لا شأن لهم أن يسألوا لماذا» نبوءة مريعة في دقّتها عن موقف لم أخبره مباشرةً وإنما تعرّفتُ إليه واستحوذ عليّ بعد عشرين سنة حين كنتُ أشاهد الجموع المصرية العريضة تحيي جمال عبد الناصر وتصفّق له في حرّ القاهرة.

أُجْلِيَتْ أسرة عمتي نبيهة عن القدس على مراحل بحيث لم يبقَ منها، مطلعَ ربيع العام ١٩٤٨، غيرُ ابن عمتي الأكبر يوسف وقد هَجَرَ بيت الطالبية عند سقوط الحيّ بأكمله بيد الهاغاناه [الصهيونية]. فانتقل للسكن في شقة صغيرة في البَقْعة الفوقى، وهو حيّ مجاور من أحياء القدس الغربية. ثم ما لبث أن غادر موطئ القدم الأخير هذا في آذار/مارس دونما عودة هو أيضًا. ومنذ أيامي الأولى في القدس إلى آخرها فيها، أذكر بوضوح أنّ الطالبية والقَطَمُون والبقعة الفوقى والتحتا كانت مأهولةً بالفلسطينيين دون سواهم، وينتمي معظمُهم إلى عائلات نعرفها ولا يزال لأسمائها وقعٌ أليف في أذني – سلامة، دجّاني، عوّاد، خُضر، بدّور، داڤيد، جَمال، برامكي، شمّاس، طنّوس، قُبَيْن – وقد أمسوا جميعهم لاجئين. لم أشاهد أياً من المهاجرين اليهود الساكنين حديثًا في القدس إلا في أحياء أخرى من القدس الغربية. فعندما أسمعُ الآن إشارات إلى القدس الغربية، فإنّها تعني دومًا بالنسبة إليّ الأحياءَ العربيةَ لمرابع طفولتي. ولا يزال يصعب عليّ أن أتقبّل حقيقةَ أنّ أحياء المدينة تلك، حيث ولِدتُ وعشتُ وشعرتُ بأني بين أهلي، قد احتلها مهاجرون بولونيون وألمان وأميركيون غزوا المدينة وحوّلوها رمزًا أوحَدَ لسيادتهم، حيث لا مكان للحياة الفلسطينية التي انحسرتْ إلى المدينة الشرقية التي أكاد لا أعرفها. فلقد أَضْحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل، وطُرِدَ منها سكانها السابقون نهائيًا في أواسط العام ١٩٤٨.

---

١ ـ استوحى الشاعر الانكليزي لورد تنيسون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢) قصيدته الشهيرة «هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة» من الهجوم شبه الانتحاريّ الذي شنّته الفرقة المذكورة من الجيش البريطانيّ على موقع روسيّ خلال حرب القرم. وسقط منها ٢٥٠ قتيلاً من أصل عديدها البالغ ٦٠٠ خَيّال. والقصيدة تمجّد طاعة الجنود العمياء للأوامر العسكريّة.

القدس التي عرفتُها أنا وعائلتي في تلك الأيام كانت أصغر وأبسط وأكثر تنظيمًا بكثير من القاهرة. وكان البريطانيون، أصحابُ الانتداب عليها، قد قرروا الجلاء عنها فجأةً عام ١٩٤٨، قبل حوالى ستة أشهر من مغادرة عائلتي المدينةَ لآخر مرة. وكان الجنود البريطانيون يحتلون المدى المدينيَّ كله، فيما اختفى معظمُهم من أحياء القاهرة. وكان الانطباع العام عن القدس أنها مدينة يَغْلب عليها الطابع الإنكليزيّ إلى حد كبير، نظيفةُ المساكن، منظّمةُ السَير، يُكْثر أهلُها من شرب الشاي، وسكانُها عربٌ من ذوي الثقافة الإنكليزية، كما هو حال عائلتي وعائلات أصدقائنا. والحقيقة أني لم أفقه أيّ معنى فعليّ للانتداب ولا للحكومة الفلسطينية اللذيْن يظهر اسمُهما على العُملة والطوابع البريدية. كانت القدس أكثر هدوءاً من القاهرة، ولكنها تفتقر إلى العظمة والثراء اللذين يُحْدقان بنا في القاهرة؛ من بيوت فخمة ومتاجر ثمينة وسيارات كبيرة وجموع كثيفة ضاجّة. ثم إنّ سكان القدس بدوا أكثر تجانسًا من سكان القاهرة، فهم بالدرجة الأولى من الفلسطينيين، مع أني أذْكر لمحات وجيزة لليهود المتديّنين وزيارةً واحدة قمتُ بها إلى «ميا شاريم»، أو إلى مقربة منها، حيث شعرتُ بمزيج من الفضول والجفاء، دون أن أستوعب أو أفقهَ معنى الحضور المغاير والمجفّل لليهود المتديّنين ببذلاتهم وقبعاتهم ومعاطفهم المغمّسة كلها بالأسود.

تحتفظ ذاكرتي بذكرى واضحة عن أحد زملائي في الصف. وأحسبُ أنّ داڤيد عزرا، الذي كان أبوه سمكريًا، قد كان اليهوديّ الوحيد في الصف الابتدائيّ السابع (وكان اليهود كثرة في المدرسة) ولا يزال التفكير به يستحوذ عليّ ويحيّرني، نظراً إلى التغيّرات اللاحقة التي طرأتْ على حياتي وحياة فلسطين. كان قويّ البنية، أسود الشعر ويحدثني بالإنكليزية. وبدا لي أكثر تفرّدًا وكبرياء وأقلّ شفافيةً وأدنى مرتبةً اجتماعيةً من أيّ تلميذ آخر في الصف. وهذا كله هو ما جذبني إليه. ومع أنه لم يكن يشبه اليهود المشرقيين الذين عرفتهم في «إعدادية الجزيرة» أو في النادي القاهريّ، فإنّني لم أفقه تمامًا معنى يهوديته بالنسبة إلينا، رغم أني أذْكر بوضوح أنّ وجوده بيننا لم يُثِر فيَّ أيّ شعور غريب. كان رياضيًا ممتازًا بَهَرَني بكتفيه وقدميه القويّة، وبلعبه العدوانيّ. ولم يرافقنا عزرا مرةً حين كنا نغادر المدرسة في مجموعات صغيرة بعد انتهاء الدروس في الأصائل، لنجتاز حواجز التفتيش، مستأمنين بكثرة عددنا. وفي آخر مرة شاهدتُه فيها، كان عزرا يقف في ناصية

هذا الكتاب قصة استثنائية عن المنفى وسردٌ لارتحالات عديدة واحتفال بماضٍ لن يستعاد. عام ١٩٩١، تلقّى إدوارد سعيد تشخيصًا طبيًا مبرمًا أقنعه بضرورة ان يخلّف سجلاً عن المكان الذي ولِد وأمضى طفولته فيه. في هذه المذكرات، يعيد إدوارد سعيد اكتشاف المشهد العربيّ لسنواته الاولى – «أماكن عديدة زالت، وأشخاص عديدون لم يعودوا على قيد الحياة ... باختصار، إنه أساسًا عالم قد اندثر». فقد طرأتْ على ذلك المشهد تحولاتٌ عديدة إذ تحولتْ فلسطين إلى إسرائيل، وانقلب لبنان رأسًا على عقب بعد عشرين سنة من الحروب الأهلية، وزالت مصر الملك فاروق الكولونيالية إلى غير عودة عام ١٩٥٢.

يحيي هذا الكتاب عالمًا يصعب تخيله من الشخصيات الغنية الجذّابة. إنّه نصّ غنائيّ وجميل الصنعة، يبلغ أحيانًا درجات عالية من الصراحة بقدرِ ما هو، في الآن ذاته، حميمٌ ومرح. ويكشف إدوارد سعيد فيه دقائق ماضيه الشخصيّ، ويَستعرض لنا الأفراد الذين كوّنوا شخصيته ومكّنوه من أن ينتصر ليصبح واحدًا من أبرز مثقفي عصرنا.

إدوارد سعيد (١٩٣٥ ـ....): وُلِد في القدس. وهو بروفسّور شرف في اللغة الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة كولمبيا في نيويورك. ألّف سبعة عشر كتابًا منها: **الاستشراق**، و**صور المثقف**، و**الثقافة والامبريالية** (صدر عن دار الآداب).

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

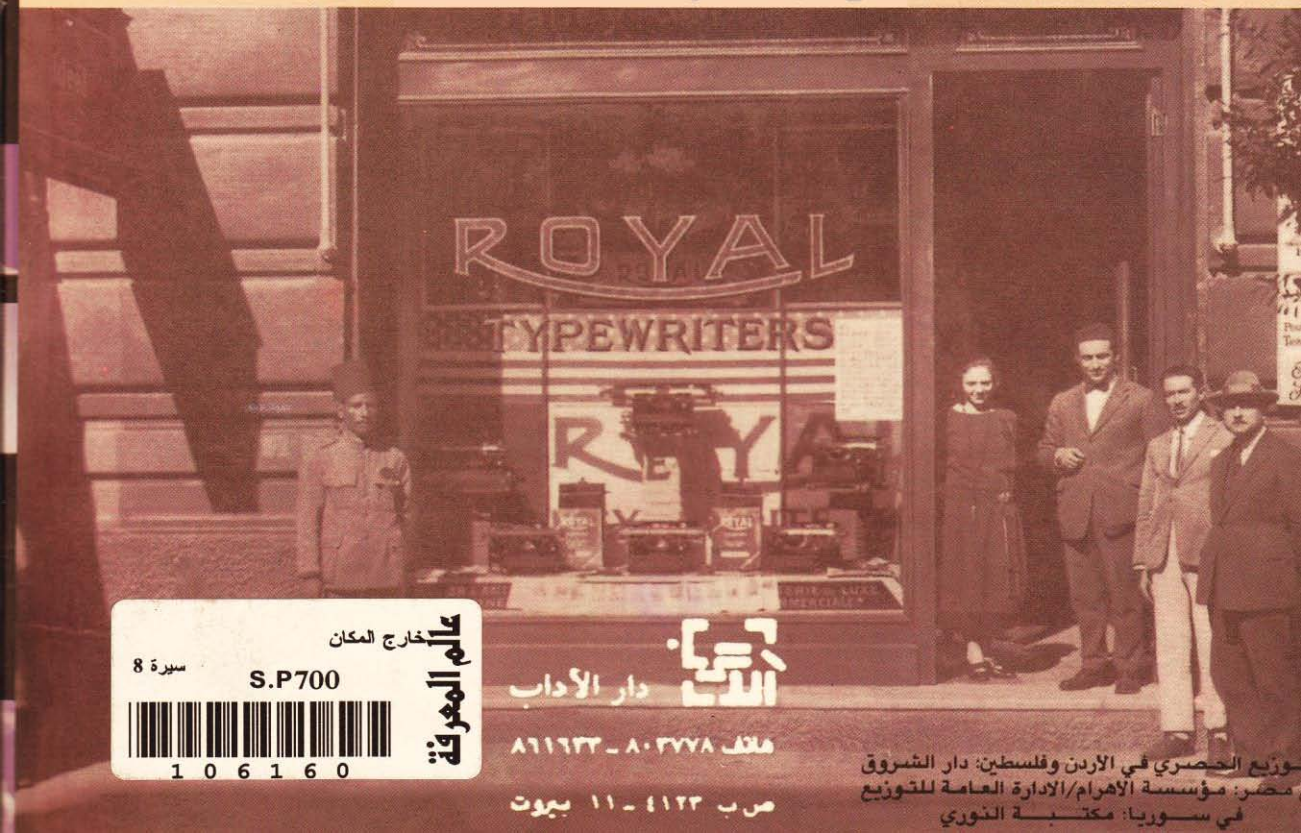

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

التوزيع الحصري في الأردن وفلسطين: دار الشروق
مصر: مؤسسة الأهرام/الادارة العامة للتوزيع
في سوريا: مكتبة النوري

عالم المعرفة
خارج المكان
سيرة 8
S.P700
1 0 6 1 6 0